موسوعة

الحقيقة المحمدية

الجزء الأول

في نور النبوة

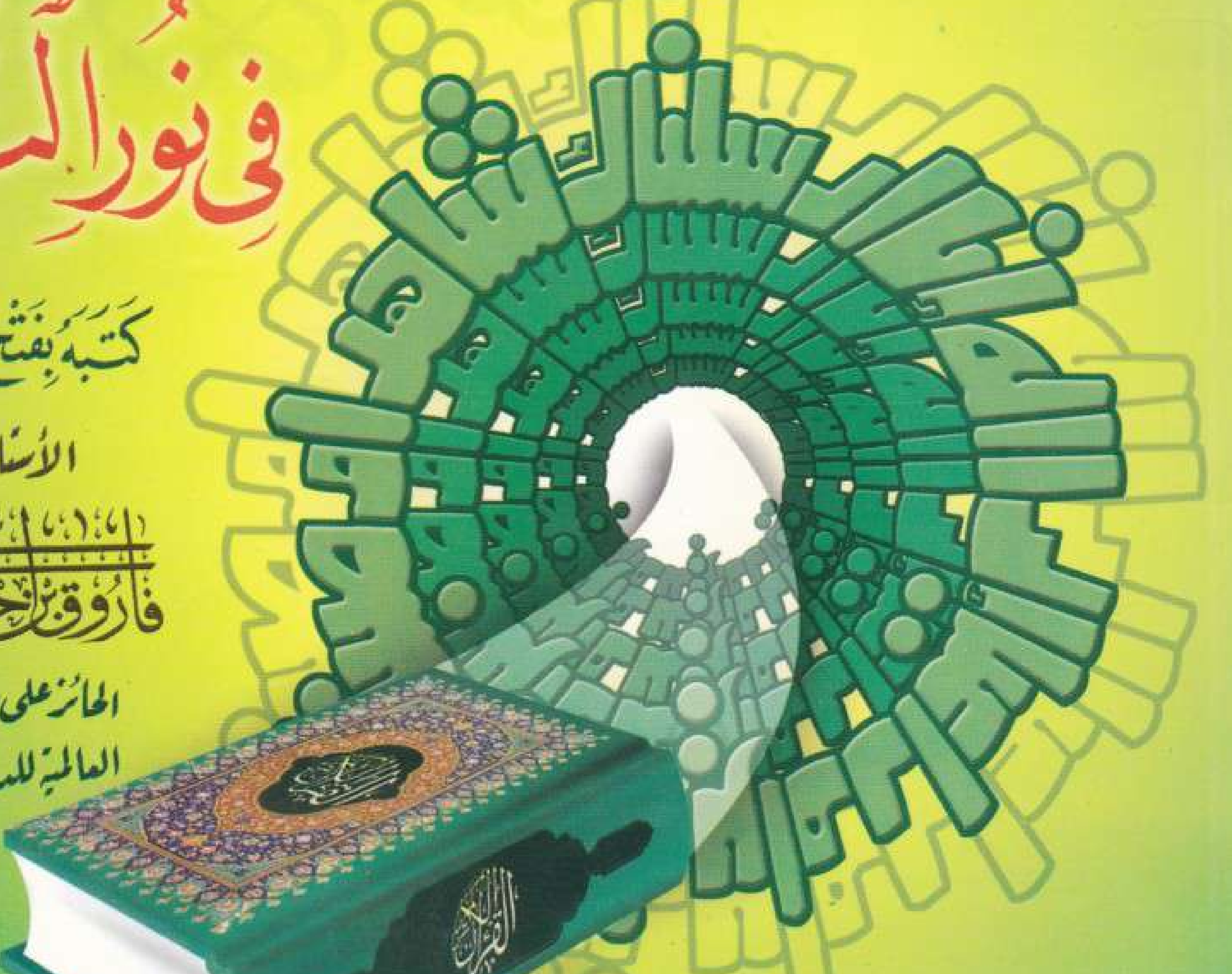

كتبه بفتح وعون من الله

الأستاذ الدكتور

فاروق بن أحمد بن الدسوقي الفقي

الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية

هذه الموسوعة

ليست كتابا فى السيرة ، و إنما هى محاولة لإدراك الحقيقة المحمدية من خلال نصوص القرآن الكريم و السنة الشريفة ، لإن كتب السيرة لم تتحدث عنه صلى الله عليه و سلم إلا من خلال وجوده البشرى فى هذه الحياة الدنيا فقط ، و الحقيقة المحمدية سابقة على هذه المرحلة البشرية و لاحقة لها . و من ثم فالجزء الأول من هذه الموسوعة المباركة يتناول حقيقة النبوة بعامة ، بتفصيل أصل الإيمان بالنبيين و صلته بالإيمان بالله عز و جل، و تفصيل عناصر النبوة . أما الجزء الثانى فموضوعه النور الأحمدى و هو الحقيقة المحمدية قبل الحياة الدنيا و السابقة على خلق آدم عليه السلام ، و هو أهم أجزاء الموسوعة ، و قد تشتمل على مجلدين أو أكثر . أما الجزء الثالث فهو فى النور المحمدى الذى أنار الله تعالى هذه الحياة الدنيا بمولده صلى الله عليه و سلم و الجزء الرابع فى نوره صلى الله عليه و سلم فى البرزخ و الذى هو نور و رحمة و بركة و سلام و سعادة لأهل البرزخ من المؤمنين. أما الجزء الخامس فموضوعه النور المحمدى المتمثل فى بعثه صلى الله عليه و سلم مقاما محمودا و إشراق الأرض بنوره و فى الشفاعة العظمى و نيله الدرجة العالية الرفيعة من الجنة التى لا تنبغى إلا لعبد واحد من عباد الله تعالى ، و لم لا ؟ و هو صلى الله عليه و سلم عبد الله الأول المتفرد بالعبودية التامة للخالق عز و جل بقدر ما تطيقه طاقة المخلوق ، و ليس بقدر استحقاق الخالق سبحانه .

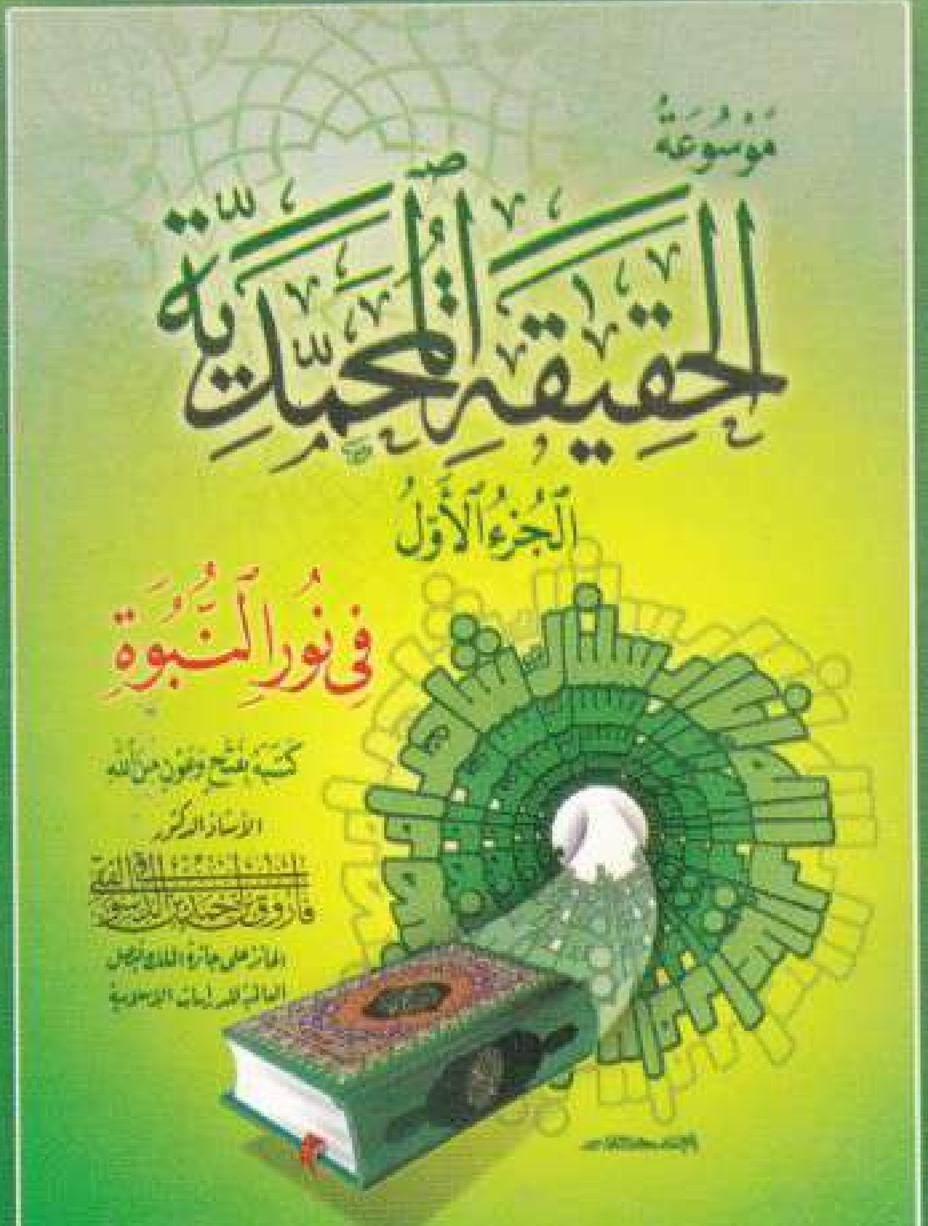

فاروق بن أحمد بن الدسوقي الفقي

موسوعة

الحقيقة المحمدية

الجزء الأول

في نور النبوة

كتبه بفتح وعون من الله

الأستاذ الدكتور

فاروق أحمد الدسوقي

الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

رقم الإيداع ٢٣٤٣٦ / ٢٠٠٥

تحذير

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف وكل من يحاول الاقتباس أو النقل من الكتاب نشراً أو إذاعة من غير ذكر المصدر سوف يعرض نفسه للمساءلة القانونية

عبد الرحمن فاروق دسوقي

المغـاير: ويتمـثل فى جـميع الخلق، وهو كـل السوى، أى مـا سوى الخـالق سبحانه، لأن كل ما سواه مخلوق.

وهذا الوجود المغـاير للأول سبحانه وتعـالى أعدادٌ من الخلق لا يحصـيها إلا الله سبحانه لكثرتها: أجناسا وأنواعا وأصنافا وأفرادًا، أحياءً وغير أحياء.

وحيث أن حـقيـقة حقـائق الخلائق الجـامعة لأجنـاسها وأنواعـها وأصنافـها وأفرادها هى المخلوقية، والمخلوقـية عبودية فى مقابل أن الخالقـية التى ينفرد بها الخالق هى ربوبيته لكل مـا سواه، والاسم الذى يطلقه القـرآن الكريم على كل الخـلائق المتعـددة والمتنوعـة هو «العـالمين»، ومن ثم فالخـالق سبحـانه هو رب العالمين، هذه الربوبية المطلقـة لاتكون إلا للإله الواحد، فالخالقيـة ربوبية مطلقة، والربوبية المطلقة تفرد بالألوهية.

ولا يجوز القـول بأن «العالمين» بصيـغة الجمع أو «العـالم» بصيغـة المفرد هو الثانى، كـما لا يجوز القـول بأن أى مخلوق: جنسا كـان أم نوعا أم فردا مهـما عظم شـأنه، لا يجوز القـول بأنه الموجـود الثانى بـعد أن علمنا أنَّ رب العـالمين سبحـانه هو الأول، إذ أن أولية الخالق سبحـانه مطلقة، ومن ثم يمنع طلاقـتها أن يكون له ثانى، فهو الأول الذى ليس له ثانى، كمـا أنه سبحانه الآخر الذى ليس له سابق على آخـريته، وليس له لا حق، إذ أنه لا نهاية لآخريتـه. أى أن آخريته مطلقة كما أن أوليته سبحانه مطلقة. وكذلك هو سبحانه الباقى الذى ليس له لا حق.

لأنه سبـحانه ليس نوعا فى جنس أو صنفـا فى نوع، فلا جنس له فهـو الفرد الوتر الواحد الأحد، فالقول بأن وجود السوى وجود ثانى بعد أولية الخالق قول غير جائز فى حقه سبحانه وتعالى، بل هو قول باطل، لأنه يؤدى إلى إثبات ندية بين الخالق والمخلوق، وحاشـا للخالق عز وجل أن يكون له بين المخلوقين ند أو ضد، أو يكون له نقيض أو يكون له نظير، أو يكون له قرين أو يكون له شبيه أو مثيل، وحاشا له سبحانه أن يكون له كفؤ أو يكون معه شريك، لا فى الخلق ولا فى الملك، ولا فى الأمر.

كل هذا مَنْفِىٌّ عنه لأن كل ما سواه عزوجل من خلقه، أى أن كل ما سواه موصوف بالمخلوقية، والمخلوقية جوهر العبودية، فكلهم عبيد له، وهو وحدهُ المتفرد بالألوهية، «لا إله إلا الله». فالتعبير الدقيق عن الصلة بين الله الإله الواحد وبين كل ما سواه: أنه سبحانه رب كل السِّوَى فكلهم عبيد له، فليس ثَمَّ إلا الله الإله الواحد القهار المنفرد بالألوهية لأنه المنفرد بالربوبية، وهو منفرد بالربوبية للعالمين لأنه المنفرد بالخلق، وخلقه كلهم مقهورون له فكلهم عبيد له.

وحيث أن أكثر كائنات العالمين فى عالمنا المحسوس، أى عام الشهادة، أضعف وأعجز من أن تتلقى مباشرة من الخالق سبحانه وتعالى عطايا الربوبية التى هى مقومات وجودها من الخير والرحمة والبركة والسلام، وذلك لنقص فى عبوديتها وضَعْف فى كينونتها سببهُ نقص فى العبودية لديها، فإنه لا يصلح للتلقى من الله تعالىٰ مباشرة إلاَّ العبد الكامل العبودية، أو بتعبير أدق العبد المنفرد بتمام وكمال العبودية لله عز وجل الذى هو أقرب الخلق للخالق وأحب الخلق للخالق وأعبد العبيد للمعبود سبحانه، ومن ثم فإنه وحده ﷺ الذى يتلقى الرحمة والخير والبر والسلام والبركة من الخالق جلا وعلا مباشرة، وذلك لأنه لا يستطيع أن يتلقى من الخالق العظيم المتفرد بالألوهية إلا العبد الكامل تام العبودية بحسب طاقة المخلوق ألا وهو رسول الله ﷺ لأنه هو الذى اجتمعت فيه حقائق الخلائق وإكتملت فيه وحده حقيقة المخلوقية فتمت فيه وحده حقيقة العبودية، فتفرد وحده من دون سائر الخلائق بكمال العبودية لله عزوجل بقدر ما تُطيقه طبيعة المخلوق لا بقدر استحقاق الخالق.

وعلى هذا، فإنه إذا كانت الشهادة الأولى: «لا إله إلا الله» أدق التَّعابير وأصدق الأقوال المثبتة لإفراد الله تعالى بالألوهية، أى إثبات إلهية الخالق سبحانه ووحدانيته، فإن الشهادة الثانية «محمد رسول الله» هى أيضا أصدق تعريف وأدق تعبير عن عبودية المخلوق، تلك العبودية التامة الكاملة المتمثلة فى الحقيقة المحمَّدِية.

إذ كما أن الله تعالى بتفرده بالخالقية هو رب العالمين، أى رب كل ما سواه، فإن عبده الأول ورسوله المصطفى المطلق رحمته للعالمين، أى رحمته تعالى لكل ما سواه من الخلق فى العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. ومن ثم فلا يصلح تفسير الشهادة الثانية (محمد رسول الله) بالمفهوم القاصر على الرسالة البلاغية أو الدلالة المحصورة فى تبليغه ﷺ القرآن والسنة للناس الذين عاصروه، ومن بعدهم إلى يوم الدين فحسب، وإنما التفسير الصحيح لشهادة «محمد رسول الله» هو المفهوم المطلق للإرسال، وهو الإرسال الكونى بالرحمة للخلق فى العالمين جميعا، لأن إرسال الله تعالى له رحمة للعالمين يعنى شمول رحمة الله تعالى به لكل الخلق فى العالمين، وهذا يقتضى لكى يتحقق شمول رحمته للعالمين سبق إرساله لكل الخلق إرسالاً كونيا وجوديا بالرحمة والبركة وبالخير والسلام قبل الإرسال التبليغى، أى قبل وجوده الآدمى ﷺ.

وهذا معناه بوضوح أن رسالته ﷺ وجودية كونية قبل أن تكون بلاغية تعليمية دنيوية فقط.

فالحقيقة المحمدية حقيقةٌ كونية، يؤكد هذا أن الله تعالى رفع له ذكره بأن جعل اسمه ﷺ مع اسمه سبحانه، فلا يذكر إلا ويذكر معهُ «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ومن ثم فالشهادتان سبع كلمات مُتَضَمِّنات للحقيقة الكونية المتمثلة فى تفرد الله تعالى بالألوهية وتفرد رسوله ﷺ بتمام حقيقه العبودة لله عزوجل.

أمَا وقد علمنا أن الله عز وجل منفردٌ بالخالقية، وكل ما سواه من خلقه، فإنه سبحانه هو وحده الموجود الحق، ووجوده هو الوجود الحق، ومن ثم فهو الحق، وما سوى الحق باطل، إلا أن يكون هذا السوى مراد للحق، لأن مراد الحق حق.

وذلك أن المخلوقات لم تكن لتوجد إلا بمشيئة الخالق وعلمه وقدرته، وأمره لكل شيء أن يكون فيكون ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ومن ثم فإن المخلوقات لم تكن لتوجد إلا بكلماته سبحانه،

فوجودها ليس ذاتيا، أى ليس وجودها مُتَعَلِّقًا بذواتها، وإنما هو متعلق بإرادة الخالق سبحانه وأمره وفعله، فوجودها ـ إن لم يكن متعلقا بإرادته ومشيئته سبحانه ـ باطل، فإذا كان موجودا وانقطعت عنه مشيئة الله تعالى باستمرار وجوده هلك على الفور، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] أى أن السماوات والأرض فى كل لحظة أو أدنى من اللحظة تتداعى نحو الهلاك، ولولا أن للخالق عز وجل إرادة باستمرارها تُمسكها عن الزوال لهلكت على الفور. ولذا صح عن النبى ﷺ قوله («إن أصدق ما قاله الشاعر قول لبيد: ألا كل ما خلا الله باطل).. وخلا، أى كل ما حُرِمَ من مشيئة الله باستمراره، وكل ما خلا منه وجه لله عز وجل فإنه يكون باطلا ويتداعى إلى الهلاك على الفور. وهذا هو المعنى الدقيق لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

وعلى هذا فليس ثمَّ موجود إلا الله عزوجل وعطاءاته التى هى تجلّيات أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحكيمة المحكمة، أى أنه ليس فى الخلق إلا ما كان مرادًا له عزوجل، ولأن المخلوق مراد لله عزوجل بإرادته الكونية «كن»، فإن لله تعالى فى كل مخلوق وجه، به يستمر وجوده، فما فيه وجه لله تعالى بقى، أى ما كان فيه ما هو لوجهه تعالى بقى، والذى خلا منه ابتغاء وجه الله تعالى هلك. وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] والمعنى كل شىء الآن وقبل الآن وبعد الآن هالك إلا وجهه...، فالآية تتحدث عن ناموس الهلاك ونقيضه أى ناموس الوجود أو الكينونة للشىء وهلاكه. وليست خبرا عن هلاك كل شىء فى المستقبل يوم القيامة، كما يفهم البعض هذا الفهم القاصر وغير الصحيح، والمعنى أن الكائن الذى فيه شىء لوجه الله تعالى باقى، أما الذى لا يكون فيه شىء لوجه الله فهو هالك، أو أن ما كان لوجه الله تعالى فهو باقى، وما كان لغير وجهه عز وجل فهو هالك، ودليل هذا التفسير ما أورده السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير هذه الآية قال:

(١) أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما «كل شيء هالك إلا وجهه» إلا ما يريد به وجهه).

(٢) وقال أيضا (وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد رضى الله عنه «كل شيء هالك إلا وجهه» قال: إلاَّ ما أُريد به وجهه».

(٣) وقال فى تفسيرها أيضا (وأخرج البيهقى فى شُعَب الإيمان عن سفيان قال «كل شيء هالك إلاَّ وجهه» قال: ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة»[١].

فإذا تذكرنا أن دلالة كلمة «هالك» فى الآية تفيد أنه هالكٌ من قبل والآن وبعد الآن، فتكون الآية معبرة عن ناموس الله تعالى فى بقاء وهلاك الشيء، أي لايمكن لشيء أن يكون ويبقى إلا إذا كان فى هذا الشيء وجه لله تعالى،أي يكون فيه أو كله ما يُراد به وجه الله عزوجل، فهذان هما ناموس الهلاك وناموس البقاء يعبر عنهما قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧] والمعنى يبقى ما كان لوجه الله أى ما أريد به وجهه، أو يبقى من الشيء ما كان لوجهه، وتطبيق هذا القانون العام فى البقاء حديث سيدنا رسول الله ﷺ للسيدة عائشة رضى الله عنها لما قالت له عن الشاة التى تصدَّقت بها ذهبت كلها إلا الكتف فقال لها: بل قولى بقيت إلا الكتف» لأن ما تصدقت به كان لوجه الله تعالى فبقى، ولهذا ورد فى الحديث الشريف «ليس لأبن آدم إلا ما أكل فأفنى ولبس فأبلى وتصدق فأبقى». ويؤكد هذا التفسير أيضا قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] والباقيات الصالحات كل عمل وكل شئ وكل مال وكل ولد أُبتُغِيَ به وجه الله حتى من المال والبنون، فمن جعل ماله وأبناءه لزينة حياته الدنيا فخراً وجاها بين الناس

(١) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى رحمه الله جـ٥ ص١٥٢، ١٥٣.

فقط فليس منها شيء باقي، وإذا جعلها كلها لوجه الله بقيت كلها، وإذا جعل بعضها بقي هذا البعض وهلك أو فني البعض الآخر، يؤكد هذا التفسير قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٨] أي فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان، وهذه النعمة العظمى للثقلين هي البقاء لكل ما كان في ذات الكائن المبتلى أو في عمله لوجه الله، وهذا خاص بالثقلين الإنس والجن فحسب، أما سائر الأحياء والأشياء فهي فانية هالكة إلا ماكان لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته وهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩ـ٢٠] أي أن ابتغاء وجه الله هو فقط الذي من أجله يجازي الكائن المبتلى الجزاء الدائم الباقي في جنة الخلد، فالكائن الباقي من الشيء ما كان فيه لوجه الله تعالى، وكل كائن ما دام باقيا أي مستمرا في الوجود فلابد أن يكون فيه وجه لله تعالى، وهو تسبيح الشيء لله عز وجل قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٢ ـ ٤٤]فكينونة الشئ ودوام وجوده كامنة في أنه في جوهره وحقيقته يسبح بحمده تعالى وحده، ولنتدبر قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي كل العقلاء من ملائكة وجن وإنس ثم قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ والشيء في القرآن هو الموجود أو الكائن، وهذا معناه أنه ما من شيء أي ما من موجود أو كائن في الأرض أو في السماء أو في الوجود كله، إلا يسبح بحمد الله تعالى وحده. وإلا لما صار موجودا، وإذا انقطع تسبيحه لما استمر في الوجود، ولهلك أو لفني على الفور. هذا هو قانون البقاء، أن يحقق الكائن عبوديته لله تعالى بالتسبيح والسجود له عزوجل. قال تعالى عن العقلاء: ملائكة وجن وإنس سواء المؤمنين

أو الكافرين من الثقلين ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] حيث مَنْ للعقلاء، فالملائكة ومؤمنو الجن والإنس يسجدون لله تعالى سجودا طوعيا وكرهيا. أما كُفّار الإنس والجن فيسجدون سجوداً كرهيا، وكذلك ظلالهم بالغدوِّ والأصال علامة على هذا السجود والخضوع الكرهى لله تعالى، وبهذا الخضوع يتحقق بقاؤهم فى الحياة الدنيا إلى أجلهم، أى أن فيهم وفى حياتهم وأعمالهم ما هو لوجه الله تعالى، وبه تستمر حياتهم إلى الأجل الذى قدره الله تعالى لهم، وإن كان هذا السجود أى الشيء الذى فى كَيْنُونتهم لوجه الله تعالى كرهيًا.

أما بالنسبة لغير العقلاء من الأشياء والأحياء فهي جَميعا تسجد لله تعالى أيضا ودليل هذا قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩] حيث ما لغير العقلاء، هذا السجود لله تعالى، والتسبيح بالعبادة لله رب العالمين، وهو بحمد الله تعالى هو تَوَجُّه كل شيء وكل حي فى السماوات وفى الأرض لله عزز وجل، وهو دليل على أن كل كائن فيه شيء لوجه الله تعالى أى فيه شيء لله تعالى هو سر بقاء الكائن. فإذا انقطع عن الشيء هذا الذى لوجه الله تعالى فيه هلك.

وما لوجه الله فى الكائن أو فى الشيء هو عبودية الشيء لله تعالى سجوداً وتسبيحا طوعا أو كرها، فلا يهلك ما يهلك من الأحياء غير العاقلة والأشياء إلا بانقطاع تسبيحهم أى غفلتهم عن حمد الله ولو للحظة واحدة.

فالعبودية نتيجة للمخلوقية وملازمة لها، وهما تعلق مطلق من المخلوق بالخالق عز وجل، من حيث أن وجود المخلوق متعلق بمشيئة الخالق سبحانه وخالقيته: إبداعا وإيجاداً وإمداداً بمقومات الدوام، وهلاكه متعلق أيضا بمشيئته سبحانه: تحويلا أو تغييرا أو إفناء وإهلاكا، هذا التعلق جعل للمخلوق ولَهًا بالخالق عزَ وجل رجاءً وخوفًا، ومن ثم يتبع هذا الولَهَ بالضرورة وينبنى عليه حاجة المخلوق المُلحَّة الشَّدِيدة لعبادة الخالق سبحانه، وهذا هو تأليه المخلوق الخالق سبحانه، أىَ اتخاذه إلاهًا واحدا فلا يتخذ معه من المخلوقين إلها آخر

حيث لا يملك المخلوق، أياً كان هذا المخلوق، الإبداع والايجاد أو الإدامة أو الإهلاك والإفناء.

وهذا هو إفراد الله تعالى بالألوهية بناء على إنفراده سبحانه بالخلق، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وبناءً على إنفراده سبحانه بالإفناء والإيجاد وبانفراده بالألوهية فإنه يلزم إفراده بالعبادة وحده (فاعبدوه) وقرن الله تعالى خالقيته لكل شيء بقهره لكل شيء وبانقهار كل شيء له بالتالي، والانقهار هو العبودية والخضوع وهذا الاقتران في قوله تعالى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] فإنفراد الله تعالى بالخلق يعني أن كل شيء مخلوق له، فكل ما سواه بمقتضى مخلوقيته مقهور له طوعا وكرها. وهذا دليل إنفراده سبحانه بالألوهية. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢].

ودليل إنفراده بالخلق وبإمداد الخلق بمقومات استمرار وجودهم وحياتهم هو التحدِّي من الله للمعاند أن يثبت خالقًا غير الله أو رازقًا غير الله تعالى، فمن زعم هذا فليخلق وليرزق، أو ليذكر من يخلق أو من يرزق غيره، وهذا هو دلالة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

هل يوجد أحد من الخلق يخلق ويرزق، بالقطع لا يوجد. إذاً لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت إلا الله عز وجل إذًا لا إله إلا الله عز وجل.

والنتيجة الملزمة هي تأليه كل الخلق إيَّاه أي عبادة كل الخلق ربهم عز وجل: خوفا من الهلاك، ورجاء في الإستمرار في الوجود، ومحبة مجردة من المخلوق

العبد لله عز وجل الخالق الذى لا إله هو. وتلك هى مقومات العبودية الثلاثة فى الكينونة المخلوقية وهى: الخوف والرجاء والمحبة.

فتعلق الشىء الذى أصل كينُونته: الفناء والهلاك والعدم بالخالق عز وجل من وجهين أو باعتبارين:

الاعتبار الأول: لأنه سبحانه وتعالى الكائن الأكمل مطلقًا الأجمل مطلقا، الأعلى الأبهى الأقوى الأغنى الأ قدر الأعلم الأكرم والأرحم باطلاق فله المثل الأعلى فى كل كمال فى السماوات والأرض، وكذلك هو المقدس عن كل نقص أو عيب مطلقا أيضا. لهذا فهو مراد من كل ما سواه لذاته، ومقصود لذاته ومحبوب لذاته عزوجل.

الاعتبار الثانى والثالث: أما الاعتبار الثانى والثالث فهما التعلق به سبحانه رجاء وخوفاً إذ أن تعلق المخلوق بالخالق سبحانه هو أنه سبحانه المنعم بالوجود على الشىء الذى أصله فناء وهلاك وعدم، ثم هو بعد أن أوجده سبحانه بعد أن لم يكن موجوداً، هو سبحانه المنعم عليه بالنعم التى لا تُعَدّ ولا تحصى من الأرزاق التى يدوم للمخلوق بها وجوده وتستمر بها حياته حسب مشيئته سبحانه، وكذلك لأنه سبحانه هو الذى يُمْسك المخلوق الفرد، أو العالم ككل أو العالمين عن الزوال، فيدفع عنها الضُّرّ الذى من شأنه أن يفنيها ويهلكها، ويزيل سبحانه عنها كل ما يهدد بقاءها. ومن ثم استحق الله عز وجل بهذين الاعتبارين ولَهَ الإمْتنان له سبحانه من كل الخلق: خوفا ورجاء بالإضافة إلى الاعتبار الأول الذى هو المحبة فما من مخلوق إلا وهو خاضع وعابد ومسبح وساجد لله تعالى التسبيح والعبادة التى تخصه هو دون غيره، أى تناسب ماهيته وحقيقته والحكمة من خلقه ولهذا قال ﴿...وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...﴾ هذا التسبيح الذى هو سر بقائه.

ومن ثم يتأكد لنا ما سبق تقريره من أن الخالقية لله تعنى الإلهية له والمخلوقية لكل ما سواه تعنى عبودية كل ما سواه له.

وحيث أن الله عز وجل هو الخالق وحده ليس له شريك في الخلق ولا في الملك ولا في الأمر، فلا رب للعالمين غيره، ومن ثم فهو المتفرد في الوجود وحده بالألوهية، فلا إله إلا هو عزوجل، ورسوله ﷺ مخلوق كسائر خلق الله تعالى من حيث أصل وجوده، ومخلوقيته مبدأ كينونته، ومن ثم فهو عبد لله تعالى من هذا الوجه لاقتران العبودية بالمخلوقية، بيد أَنَّهُ أول العابدين، فأولية العبودية قرينة وملازمة لأولية المخلوقية ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وهو من ثم أول المسلمين ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فلاشك أن أول المسلمين وأول العابدين لله عزوجل في هذا الوجود المخلوق هو أشد الخلق خشية ورجاء وحبا لله عز وجل.

إذاً فالحقيقة المحمدية هي حقيقة العبودية التامة الكاملة بل المطلقة لله عز وجل وبالتالي:فإن شهادتي «لا إله إلا الله محمد رسول الله» سبع كلمات مباركات تجمع بين التصديق بإفراد الله عز وجل بالألوهية، وبإفراد رسوله ﷺ بأكمل وأتم وأفضل أحوال العبودية.

ومن ثم فهما، أي الشهادتان؛ التفسير الحق للوجود بدءاً واستمرارا وإنتهاءاً، وفي دلالة هذه السبع المباركات وحولها وأعماقها ستدور أجزاء موسوعة الحقيقة المحمدية بأنوارها المتعددة، بفتح من الله تعالى وعونه وتوفيقه وتسديده.

حيث سيكون، بإذن الله تعالى، الجزء الأول في عقيدة التوحيد متمثلة في أركان الإيمان الستة بعامة، وفي ركن الإيمان بالرسل والنَّبيِّين بخاصة، وبيان هذا لايكون إلا بتفصيل أصل الإيمان بالرسل وصلته بالإيمان بالله عز وجل، وبسائر الأركان الأخرى، وكذلك ببيان أحكام هذا الإيمان المستوجب للعلم بعناصر النبوة وحقيقتها وتاريخها وأثرها على الحياة الإنسانية والتاريخ البشري وتطبيقات هذا كله على سيرة بعض الأنبياء صلى الله عليهم وسلم جميعا.

أما الجزء الثاني فموضوعه النور الأحمدي حيث سنحاول من خلال فصوله

معرفة الحقيقة المحمدية قبل الحياة الدنيا أى قبل تمثلها فى الكينونة البشرية، إذ من الثابت بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة أن للناس وجودا سابقا على هذا الوجود الأرضى البشرى، وهو الخلق الأول، وكذلك يثبت القرآن والسنة وجودا فى هذا الخلق الأول للنبوة متمثلا فى النور الأحمدى السابق وجوداً على خلق آدم عليه السلام.

هذا النُّور الأحمدى هو معدن النُّبُوة وأصلها عند النَّبِيين، وهو نبع الإيمان فى قلوب المؤمنين بعامة أيضا. ومن ثم فالعلم بالنور الأحمدى لايتم إلا من خلال تفسير النفس الإنسانية وأحوالها المتباينة بين الروحية والطينية. وكل هذا وغيره من مُفصَّلاَت الجزء الثانى الخاص بالنّور الأحمدى.

أما الجزء الثالث فهو فى النور المحمدى الذى بَدَأ بمولده ﷺ وإنتهى بانتقاله إلى الرفيق الأعلى، بيد أنه ليس بمنهج العرض التاريخى لأحداث السيرة النبوية العطرة، أى حسب مناهج كتب السيرة، بل ستدور مباحثه وفصوله حول الحقيقة المحمدية، أو بتعبير أدق حول النور المحمدى أى النور النَّبوى فى القالب البشرى، باعتبار أنه التفسير الصحيح لكل أحداث السيرة العطرة التى مَلأت قلوب كل صحابته وأمته بالنور الذى بدد منها الظلمات، هم ومن جاء بعدهم من الأتباع وسائر أجيال الأمة الإسلامية المباركة.

أما الجزء الرابع فَمَوضُوعه النُّور المحمودى فى عالم البرزخ وهو نُوَر ورحمة وبركة وسلام وسعادة لأهل البرازخ المؤمنين، فليس الوجود البرزخى موات بمعنى الفناء والعدم كما يحاول خوارج هذا العصر تصويره يائسين من أصحاب القبور كما هو شأن أصحاب العقائد المادية، الكافرين باليوم الآخر والحياة البرزخية.

أما الجزء الخامس فهو عن النور المحمدى الذى هو رحمة للعالمين متمثلة فى الشفاعة العظمى ورحمة وبركة وسلام لأمته ﷺ يوم الدين، حيث سيبعثه الله تعالى مقاما محمودا فى الدرجة العالية الرفيعة التى لا تَنْبغى إلا لعبد واحد من

عباد الله تعالى، وأدعوا الله تعالى أن يكون له ﷺ وبإذن الله تعالى ستكون له وليست لغيره ﷺ.

والله تعالى أسأل أن يتم علينا هذا النور وأن يوفقنا إلى كتابته كتابة تُرضيه سبحانه وترضى رسوله ﷺ وأن يُجنِّبني فى كتابتها أدنى الزلل، وأن بها الأمة ويجعلها فى ميزانى يوم القيامة، إنه سميع قريب مجيب. وما كان فيها من توفيق إلى الحق والصواب، فهو من الله تعالى، وما كان من خطأ وقصور فهو منى، وأسأل الله تعالى المغفرة والعفو.

وحسبى من هذا كله أنه ابتغاء وجهه عز وجل.

وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعله فى حبه وحب حبيبه وحب كل مؤمن وكل مسلم وأن يرزقنى بها لحظة من لحظاته المباركات الصالحات المصلحات الراجيات المنجيات الباقيات المبقيات.

والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على الهادى البشير والسراج المنير وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وسلام على المرسلين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبيد الله الفقير إليه

فاروق بن أحمد الدسوقى الفقى

الإسكندرية ليلة الأربعاء

٢٧ صفر ١٤٢٦هـ

٦ إبريل ٢٠٠٥م

الباب الأول

الأصول الاعتقادية لحقيقة النبوة في القرآن الكريم والسنة

الفصل الأول: النسق المنطقى لترتيب أركان الإيمان.

الفصل الثانى: أساس الإيمان بالله عز وجل بين الوحى والعقل.

الفصل الثالث: الفطرة هى الأساس النفسى للإيمان بالله عز وجل واحداً لا شريك له.

الفصل الرابع: الإيمان بالله عز وجل أول الأركان واسبقها وجوديا ومعرفيا.

الفصل الخامس: إفراد الله تعالى بالخالقية هو أساس التقديس فى التوحيد الإسلامى.

الفصل السادس: من جوهر التوحيد الإسلامى إفراد الله عز وجل بالأوليَّة والآخرية.

الفصل السابع: من جوهر التوحيد الإسلامى وصف الله عز وجل بالكمالات المطلقة وتنزيهه المطلق عن النقص.

الفصل الثامن: صفات الله تعالى الذاتية الدالة على خصائص الألوهية، وصفاته سبحانه الفعلية الدالة على خصائص الربوبية.

الفصل التاسع: صفة الحكمة تنفى عن الله عز وجل الخلق للعبث أو اللهو، كما تثبت له الغنى المطلق وتنفى عنه الفقر والحاجة إلى غيره أو طلب الفائدة من الخلق.

الفصل الأول

النسق المنطقى لترتيب أركان الإيمان

ما هى أهمية ركن الإيمان بالنبوة بين أركان الإيمان؟

وعلى أى الاصول الإعتقادية يُبنى هذا الركن فكريا فى عقيدة التوحيد الإسلامية؟ هذان السؤالان هما موضوع هذا الفصل، لأن هذا الموضوع أساس لما بعده، إذ أن ما بعده سينبنى عليه.

وللإجابة على هذين السؤالين نجد أن الإيمان بالنبيِّين والرسل لم يرد فى الذكر الحكيم: كتابا وسنة، إلا لاحقا للإيمان بالله وللإيمان بملائكته وكتبه. ولهذا دلالة على أن مواضيع الإيمان، أو ما اصطلح العلماء عليه بأركان الإيمان، قد وردت فى الكتاب والسنة مرتبة وفق نسق وجودى ومعرفى له دلالته على التوحيد، لأن بناء هذا النسق المنطقى موافق لمبادىء العقيدة الإسلامية، كما أن مبادىء العقيدة تدل عليه وتوضحه، لذا فهما وجهان لحقيقة واحدة: هى حقيقة التوحيد.

فقد ورد وجوب الإيمان بالكتب والرسل فى الموضع أو الترتيب الثالث بعد الإيمان بالله عز وجل وبالملائكة فى حديث الإيمان الصحيح الذى جاء فيه أن الصحابة رضى الله عنهم رأوا جبريل عليه السلام، متمثلا فى رجل شديد بياض الثياب ليس عليه أثر السفر واضعا ركبتيْه أمام ركبتَى الرسول ﷺ سائلاً إياه عن الإسلام والإيمان

والإحسان. فكان رد رسول الله ﷺ على سؤاله عن الإيمان قوله «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١). وما نقصده بالنسق المنطقى هو هذا الترتيب الوارد بالحديث بين أصول العقيدة ، أو أركان الإيمان الذى يعتبر مقصوداً، بحيث يكون من الخطأ مخالفته بتقديم المتأخر أو تأخير المتقدم.

وبتعبير آخر نقول إن هذا الترتيب المنزل بالوحى يتمثل فيه النسق الإعتقادى الإسلامى، إذ يقوم هذا النسق على ترتيب منطقى وتوافق فكرى ونظام عقلى بين عناصره بعضها ببعض من جهة، وبينه وبين صحيح المنقول عن الوحى من جهة أخرى، ليس فى هذا الحديث فقط، بل فى سائر الآيات القرآنية الكريمة والإحاديث النبوية الشريفة التى تتناول شعب الإيمان وأصول العقيدة الإسلامية.

ولتوضيح ما نرمى إليه نقول: إذا قلنا على سبيل المثال: أن الإيمان هو أن تؤمن بالرسل والكتب والملائكة، وبالله عز وجل، فإن هذا يهدم البناء المنطقى والتناسق الفكرى في البناء الاعتقادى الإسلامى، كما جاء فى الحديث الشريف، وكما ورد كذلك فى سائر آيات القرآن الكريم فالإيمان بالملائكة ينبنى على الإيمان بالله عز وجل، والإيمان بالكتب ينبنى على الإيمان بالله عز وجل مع الإيمان بالملائكة، والإيمان بالرسل يتأسس على الإيمان بالله عز وجل مع الإيمان بالملائكة والكتب معا.

كذلك لا يمكن أن يقوم الإيمان باليوم الآخر - كحقيقة إخبارية فى مجملها وتفاصيلها - إلا بعد الإيمان بالله عز وجل وبالملائكة وبالكتب وبالرسل جميعًا.

أما الإيمان بالقضاء والقدر فإنه لا يقوم فى نفس المؤمن - كعقيدة إسلامية خالصة من الشوائب واللبس - إلا بعد الإيمان الصحيح بالله عز وجل وبالملائكة وبالكتب وبالرسل وباليوم الآخر.

فالإيمان بالله تعالى هو الأساس الذى ينبنى عليه الإيمان بالأركان اللاحقة فى

---

(١) أخرجه الشيخان وفى مسلم/ الجزء الأول ك الإيمان باب تعريف الإيمان المجلد الأول ص١٥٧. صحيح مسلم بشرح النووى رحمهما الله.

الحديث، يثبت هذا ويؤكده ورود هذه الأركان أو هذه الأصول الإيمانية فى آيات القرآن الكريم مقرونة ولاحقة للأصل الأول وهو الإيمان بالله تعالى.

أخرج البخارى عن أبى هريرة قال: كان النبى ﷺ بارزا يوما للناس فأتاه رجل، فقال: ما الإيمان؟

قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث...» إلى آخر الحديث(1).

قال العسقلانى فى شرح الحديث:

(الإيمان بالله تعالى هو التصديق بوجوده وأنه متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص.

والإيمان «بالملائكة» هو التَّصْديق بوجودهم، وأنهم كما وصفهم الله تعالى عباد مكرمون.

وقدَّم الملائكة على الكتب والرسل نظرا للترتيب الواقع لأنه سبحانه وتعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول.

والإيمان بكتب الله تعالى يعنى التصديق بأنها كلامه وأن ما تَضَمَّنَتْهُ حق.

«وبلقائه» - كذا وقعت هنا بين الكتب والرسل وكذا لِمُسْلِم من الطريقين - ولم تقع فى بقية الروايات، وقد قيل إنها مكررة لأنها داخلة فى الإيمان بالبعث، والحق أنها غير مكررة، فقيل المراد بالبعث القيام من القبور، والمراد باللقاء بعد ذلك، وقيل اللقاء يحصل بالانتقال من دار الدنيا والبعث بعد ذلك.

«ورسله»... وقع فى حديث أنس وابن عباس (الملائكة والكتاب والنَّبِيِّين) والتعبير بالنَّبِيِّين يشمل الرسل من غير عكس.

- والإيمان بالرسل: التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله عز وجل.

ودل الاجمال فى الإيمان بالملائكة والكتب والرسل على الاكتفاء بذلك فى الإيمان

---

(1) صحيح البخارى كتاب الإيمان باب ٣٧ حديث ٥٠.

بهم من غير تفصيل، إلا من ثبت تسميته، فيجب الإيمان به على التعيين، وهذا الترتيب مطابق للآية ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(١).

ومناسبة الترتيب المذكور - وإن كانت الواو لا تُرَتِّب - بل المراد من التقديم أن الخير والرحمة من الله ، ومن اعظم رحمته أن أنزل كتبه إلى عباده، والمتلقى لذلك منهم الأنبياء والواسطة بين الله وبينهم الملائكة)(٢).

والذى يمكن أن نخلص إليه من هذا كله هو أن جميع أركان الإيمان مبنية على الإيمان بالله عز وجل، فإذا إجتمعت جميعا فى نص واحد كان الالتزام بترتيبها على النحو المذكور فى الحديث وفى الآية الكريمة مطلوبا للوضوح والبيان ومحافظة على البناء المنطقى فى النسق الاعتقادى الإسلامى.

أما إذا ذُكِرَ بَعْضُهَا دون البعض، أو ذكر أحدها دون بقية الشعب، فإنه لابد أن يُذكر بعد الإيمان بالله تعالى. وهذا ما تكرر فى آيات القرآن الكريم.

قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(٣).

وقال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾(٤).

والإيمان بالله وبرسوله يشمل الإيمان ببقية الشعب وبكل ما أتى به رسوله فى القرآن والسنة.

وذلك لأن التصَديق بالرسول ﷺ يعنى التصديق بالقرآن وما اشتمل عليه من الإيمان بالكتب والرسل والملائكة واليوم الآخر وبالقدر وتفاصيل ذلك كله.

(١) البقرة آية ٢٨٥.

(٢) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى للعسقلانى / إخراج محب الدين الخطيب طبعة المكتبة السلفية جـ ١٠ ص١١٧، ١١٨.

(٣) سورة النور آية ٦٢.

(٤) سورة الحجرات آية: ١٥.

ومثل هذا قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾(١).

والشاهد من هذه الآية أن قوله تعالى ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ يشمل جميع أركان وشعب الإيمان بما فى ذلك الإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر والقدر، مُجْملاً ومفصلاً، كذلك عندما نقرأُ قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(٢). وقوله ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(٣).

فعندما يكون السياق القرآنى فى معرض بيان الحق ومصدر الهدى فإنه يتحدث عن الإيمان بالله عز وجل وبرسوله وبما أنزل على رسوله، لانه هو الهدى وهو الحق.

وعندما يكون فى موضع الوعظ والتخويف والانذار والتنبيه فإنه يذكر الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، ولكن فى جميع الاحوال فإن الإيمان باليوم الآخر لايتم فى نفس العبد إلا إذا آمن بالله وبالرسل وبالكتب وبالملائكة، لأن الإيمان باليوم الآخر من الأمور الغيبية التى لا يدركها الإنسان إلا عن طريق الملائكة والكتب والرسل، وإن كان الإيمان باليوم الآخر إجمالا ينبنى على الإيمان بالله مباشرة ، وهكذا ينبنى الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر على الإيمان بالله عز وجل.

فكل شعبة من هذه الشعب تنبنى مباشرة على الإيمان بالله تعالى، بينما نجد أنها جميعا تشكل حسب الترتيب الوارد فى الحديث الشريف وفى الآية القرآنية الكريمة بناء فكريا ومنطقيا متناسقا.

(١) سورة محمد آية: ٢.
(٢) سورة البقرة آية ٢٣٢.
(٣) سورة النساء آية ٥٩.

الفصل الثانى

أساس الإيمان بالله عزوجل بين الوحى والعقل

ولكن إذا كانت شعب الإيمان جميعا مؤسسة على الإيمان بالله عز وجل ولاحقة وجدانيا وفكريا ومعرفيًا للإيمان بالله تعالى،.....

فعلى أى شىء يتأسس الإيمان بالله عز وجل؟

أو بتعبير آخر أو بصياغة أخرى للسؤال: -

ما هو أساس الإيمان بالله تعالى؟

لقد قامت فى تاريخ الفكر الإسلامى قضية هامة من قضايا أصول الدين أثارت إختلافا بين الفرق، كل فرقة إتخذت موقفا خاصا بها بحسب منهجها ومذهبها.

وتتمثل هذه القضية فى السؤال التالى:

هل يتأسس الدين وينبنى على العقل أو على النقل أى الوحى؟ ويعنى هذا أن السؤال قائم أيضا بالنسبة لاركان الإيمان الواردة فى الحديث: هل نثبتها بالعقل أو بالنقل؟

قال بعض المتكلمين (مثل المعتزلة) وجميع الفلاسفة بأن النقل أو الوحى لا يورث اليقين إلا بما إشتمل عليه من براهين عقلية. كما أن الوحى برمته أو رسالات الرسل

وكتبهم، بما فى ذلك القرآن الكريم، لا يتم التصديق بها إلا بالبراهين العقلية، أى بالادلة العقلية على صحتها، ومن ثم فإن العقل هو أساس النقل عند أكثر المتكلمين والفلاسفة بشتى إتجاهاتهم ومذاهبهم، وبالتالى يكون العقل عندهم هو أساس الدين، ومن ثم يكون أيضا أساس الإيمان بالله عز وجل.

ويلخص الرازى هذا الأصل عندهم بقوله (الدليل إما أن يكون مركبا من مقدمات كلها عقلية، وهو موجود، أو كلها نقلية، وهذا محال، لأن إحدى مقدمات ذلك الدليل هو كون ذلك النقل حجة، ولا يمكن إثبات النَّقل بالنَّقل، أو بعضها عقلى وبعضها نقلى، وذلك موجود، ثم الضابط أن كل مقدمة لا يمكن إثبات النقل الا بعد ثبوتها، فإنه لا يمكن إثباتها بالنقل. وكل ما كان إخباراً عن وقوع ما جاز وقوعه وجاز عدمه، فإنه لا يمكن معرفته إلا بالحس أو بالنقل، وما سوى هذين القسمين فإنه يمكن إثباته بالدلائل العقلية والنقلية)(١).

فالرازى يصرح بأن الدليل يكون صحيحا إذا كان مركبا من مقدمات عقلية مَحْضَة، ولكنه لا يكون صحيحا إذا كان من مقدمات كلها نقلية مَحْضَة، لأنه لابد من إثبات أن النقل حجة، حتى تصح هذه المقدمات، وإثبات صحة النقل وحجيته بالاعتماد على النقل محال، لأنه إثبات لأمر بأمر غير ثابت، لذا وجب إثبات النقل بغير النقل أى بالعقل. ومن ثم أجاز الرازى صحة الدليل المكون من مقدمات عقلية ونقلية بشرط أن تكون العقلية أساسا تنبنى عليه النقلية، أى بحيث ينبنى النقل على العقل وليس العكس.

ليس هذا فقط، بل إن الدلائل العقلية عند الرازى والمتكلمين قطعية، أما الدلائل النقلية فهى ظنيَّة وليست قطعية، وهو يرتب هذه النتيجة الغريبة على طبيعة اللغة البشرية كما يلى (الدلائل النقلية لا تفيد اليقين لأنها مبنية على نقل اللغات ونقل النحو والتصريف، وعدم الاشتراك، وعدم المجاز، وعدم الاضمار، وعدم النقل وعدم التقديم والتأخير، وعدم التخصيص، وعدم النسخ، وعدم المعارض العقلى، وعدم

(١) الرازى، معالم أصول الدين ص٢٥ طبعة دار الكتاب العربى بيروت.

هذه الأشياء مظنون لا معلوم، والموقُوف على المظنون مظنون، وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية وأن العقليـة قطعية والظن لا يعارض القطع)[1]. أى نحتاج إلى إثبات أن النقل لايعارض العقل، وبذلك يصبح العقل مهيمنا على النقل وموجها له وحاكما وضابطا ومؤولا عند المتكلمين والفلاسفة. وهذا يعنى هيمنة العقل والرأى على الوحى عندهم.

وتَوضيحا لهذا الأصل عند أكثر المتكلمين والفلاسفة، أقول:

١ـ إنهم انطلقوا من المقدمة الباطلة القائلة بأنه لا يمكن العلم بالرب تعالى إلا بالأدلة العقلية وأهمها عندهم دليل الحدوث وبقية الأدلة تدور حوله، متجاهلين بهذا حقيقة الفطرة.

٢ـ ومن حججهم أيضا فى تحكيم العقل فى النقل أننا لو أثبتنا الإيمان بالله تعالى أى «وجود الله تعالى» بالوحى، فإن هذا يوقع فى الدور، لأن إثبات صحة الوحى أو النقل قائم على أساس الإيمان بالله تعالى، فيكون إثبات وجود الله بالوحى، وإثبات صحة الوحى قائم على إثبات وجود الله عز وجل وفى هذا تناقض، لأنه وقوع فى الدور عندهم، ومعنى هذا أنهم يقولون أننا لو جعلنا النقل أساس العقل لوقعنا فى الدور لأن صحة النقل لا تثبت إلا بأدلة عقلية، وهذا كله قائم على إثبات أن للمعرفة الإنسانية بالخالق جل وعلا، أو أن للإيمان بالله تعالى، مصدرينْ إثنين فقط هما العقل أو الوحى، وهو قول غير صحيح إذ يوجد مصدر ثالث للإيمان بالله تعالى هو الفطرة.

ومن ثم يمكننا توضيح أصل الدين عندهم ـ أى عند الفلاسفة والمتكلمين ـ بالقول بأن كل ما نعرفه ونؤمن به من القرآن والسنة من أصول وفروع مبنى على التسليم إبتداء بنسبة القرآن لله عز وجل ونسبة السنة لرسوله ﷺ، والإيمان بأنه مرسل من ربه عز وجل.

وحيث أن معرفة الله عز وجل إبتداء والإيمان به لا يثبتان عندهم إلا بأحكام العقل وبراهينه ـ حسب زعمهم ـ وحيث أن نبوة سيدنا محمد ﷺ تحتاج إلى دلائل عقلية

(١) نفس المصدر والصفحة.

لإثبات صحتها وصدقها، فإن هذا يعنى أن المنقول مبنى على المعقول، وأن أساس الدين كله عندهم هو العقل، أى أنهم يعتبرون «الرأى» الذى يسمونه العقل وأحكامه هو أصل الإيمان بالله عز وجل، ومن ثم يكون العقل عندهم هو القاعدة الأساسية للنسق الاعتقادى حسب مذهبهم، فإستتبع هذا الأصل عندهم الإعتماد على الفكر والنظر والرأى لفهم آيات القرآن الكريم، جاعلين مقررات العقول مقياسا وميزاناً ومرجعا لمفاهيم الآيات القرآنية إثباتا ونفيا، ومنهجهم فى هذا تأويل الآيات إذا تعارضت فى ظاهرها مع مقررات العقول حسب زعمهم(١)(٢).

كما جعلوا نفس المقياس فى الحديث الشريف، فقبلوا الحديث أو رفضوه على أساس موافقته أو مخالفته لمقررات العقول حسب مفهومهم الخاص لمتن الحديث.

أما منهج السلف فقد رفضوا تأسيس المنقول على المعقول وقرروا أن القرآن الكريم يحمل فى ذاته دليل إعجازه، فهو ـ باعتبار أنه الوحى الصحيح ـ هو الدعوة وهو الرسالة وهو الدليل وذلك لاعجازه من ناحية ولعدم معارضة العقول السليمة له، بل لموافقته التامة لمقررات العقل الصحيحة من ناحية أخرى. وإعجازه دليل على نبوة الرسول ﷺ وصدقه فيما بَلَّغَ عن ربه، أو بتعبير أدق أول وأهم الأدلة على ذلك.

ومن ثم فالقرآن الكريم ـ بإعتبار أنه كلام الله تعالى المنزه عن الخطأ والضلال والنسيان ـ مُهيْمِن على المعقول الذى يتفق عليه البشر، ومهيمن أيضاً على المنقول من قبله من الكتب السماوية. فهو إذاً المعيار للمعقول وليس العقل البشرى هو المقياس والميزان الذى تحاكم إليه آيات الكتاب الحكيم، كما يفعل الفلاسفة وبعض المتكلمين. خاصة وأن الذى يطلقون عليه العقل تَشُوبُه آراء وأهواء بشرية.

ومن ثم فالوحى لا يحتاج لأدلة عقلية وبراهين فكرية لاثبات صحته، وبالتالى لايتأسس المنقول على المعقول كما يزعم المتكلمون، وإن كان «صحيح المنقول لا

(١) المحصول للرازى الصفحات الأولى نشر جامعة الأمام محمد بن سعود.
(٢) راجع ايضا درء تعارض العقل والنقل/ المقدمة للمرحوم الدكتور محمد رشاد سالم.

هذه الأشياء مظنون لا معلوم، والموقُوف على المظنون مظنون، وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية وأن العقلية قطعية والظن لا يعارض القطع)[1]. أى نحتاج إلى إثبات أن النقل لايعارض العقل، وبذلك يصبح العقل مهيمنا على النقل وموجها له وحاكما وضابطا ومؤولا عند المتكلمين والفلاسفة. وهذا يعنى هيمنة العقل والرأى على الوحى عندهم.

وتَوضيحا لهذا الأصل عند أكثر المتكلمين والفلاسفة، أقول:

١ـ إنهم انطلقوا من المقدمة الباطلة القائلة بأنه لا يمكن العلم بالرب تعالى إلا بالأدلة العقلية وأهمها عندهم دليل الحدوث وبقية الأدلة تدور حوله، متجاهلين بهذا حقيقة الفطرة.

٢ـ ومن حججهم أيضا فى تحكيم العقل فى النقل أننا لو أثبتنا الإيمان بالله تعالى أى «وجود الله تعالى» بالوحى، فإن هذا يوقع فى الدور، لأن إثبات صحة الوحى أو النقل قائم على أساس الإيمان بالله تعالى، فيكون إثبات وجود الله بالوحى، وإثبات صحة الوحى قائم على إثبات وجود الله عز وجل وفى هذا تناقض، لأنه وقوع فى الدور عندهم، ومعنى هذا أنهم يقولون أننا لو جعلنا النقل أساس العقل لوقعنا فى الدور لأن صحة النقل لا تثبت إلا بأدلة عقلية، وهذا كله قائم على إثبات أن للمعرفة الإنسانية بالخالق جل وعلا، أو أن للإيمان بالله تعالى، مصدرينَ إثنين فقط هما العقل أو الوحى، وهو قول غير صحيح إذ يوجد مصدر ثالث للإيمان بالله تعالى هو الفطرة.

ومن ثم يمكننا توضيح أصل الدين عندهم ـ أى عند الفلاسفة والمتكلمين ـ بالقول بأن كل ما نعرفه ونؤمن به من القرآن والسنة من أصول وفروع مبنى على التسليم إبتداء بنسبة القرآن لله عز وجل ونسبة السنة لرسوله ﷺ، والإيمان بأنه مرسل من ربه عز وجل.

وحيث أن معرفة الله عز وجل إبتداء والإيمان به لا يثبتان عندهم إلا بأحكام العقل وبراهينه ـ حسب زعمهم ـ وحيث أن نبوة سيدنا محمد ﷺ تحتاج إلى دلائل عقلية

(١) نفس المصدر والصفحة.

لإثبات صحتها وصدقها، فإن هذا يعنى أن المنقول مبنى على المعقول، وأن أساس الدين كله عندهم هو العقل، أى أنهم يعتبرون «الرأى» الذى يسمونه العقل وأحكامه هو أصل الإيمان بالله عز وجل، ومن ثم يكون العقل عندهم هو القاعدة الأساسية للنسق الاعتقادى حسب مذهبهم، فإستتبع هذا الأصل عندهم الإعتماد على الفكر والنظر والرأى لفهم آيات القرآن الكريم، جاعلين مقررات العقول مقياسا وميزاناً ومرجعا لمفاهيم الآيات القرآنية إثباتا ونفيا، ومنهجهم فى هذا تأويل الآيات إذا تعارضت فى ظاهرها مع مقررات العقول حسب زعمهم(١)(٢).

كما جعلوا نفس المقياس فى الحديث الشريف، فقبلوا الحديث أو رفضوه على أساس موافقته أو مخالفته لمقررات العقول حسب مفهومهم الخاص لمتن الحديث.

أما منهج السلف فقد رفضوا تأسيس المنقول على المعقول وقرروا أن القرآن الكريم يحمل فى ذاته دليل إعجازه، فهو ـ باعتبار أنه الوحى الصحيح ـ هو الدعوة وهو الرسالة وهو الدليل وذلك لاعجازه من ناحية ولعدم معارضة العقول السليمة له، بل لموافقته التامة لمقررات العقل الصحيحة من ناحية أخرى. وإعجازه دليل على نبوة الرسول ﷺ وصدقه فيما بَلَّغَ عن ربه، أو بتعبير أدق أول وأهم الأدلة على ذلك.

ومن ثم فالقرآن الكريم ـ بإعتبار أنه كلام الله تعالى المنزه عن الخطأ والضلال والنسيان ـ مُهيْمِن على المعقول الذى يتفق عليه البشر، ومهيمن أيضاً على المنقول من قبله من الكتب السماوية. فهو إذاً المعيار للمعقول وليس العقل البشرى هو المقياس والميزان الذى تحاكم إليه آيات الكتاب الحكيم، كما يفعل الفلاسفة وبعض المتكلمين. خاصة وأن الذى يطلقون عليه العقل تَشُوبُه آراء وأهواء بشرية.

ومن ثم فالوحى لا يحتاج لأدلة عقلية وبراهين فكرية لاثبات صحته، وبالتالى لايتأسس المنقول على المعقول كما يزعم المتكلمون، وإن كان «صحيح المنقول لا

(١) المحصول للرازى الصفحات الأولى نشر جامعة الأمام محمد بن سعود.
(٢) راجع ايضا درء تعارض العقل والنقل/ المقدمة للمرحوم الدكتور محمد رشاد سالم.

يتعارض مع صريح المعقول» كما أثبت هذا كله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه «درء تعارض العقل والنقل»[(١)].

وأهم أدلة النقد الموجه من المتكلمين والفلاسفة إلى منهج السلف هو أن تأسيس الإيمان بالله تعالى على الوحي يؤدى إلى الوقوع في الدور، حيث يزعمون ـ بهذا القول ـ أن تأسيس أركان الإيمان الخمسة بما فيها الكتب والرسل على الإيمان بالله يعنى أن الإيمان بالله تعالى مؤسس على الإيمان بالكتب والرسل في الوقت الذى يكون فيه الإيمان بالكتب والرسل مؤسساً على الإيمان بالله تعالى، وهذا وقوع فى الدور، وفى هذا تناقض كما يقولون. ولكن ثمة مغالطة فى هذا الكلام فالحجة صحيحة فى نفى تأسيس الإيمان بالله على الوحى، ولكنها باطلة إذا اعتبرناها دليلا على تأسيسه على العقل.

وللرد على هذه الحجة الباطلة للمتكلمين والفلاسفة نقول: إن الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر مؤسس على الإيمان بالله تعالى.

أما الإيمان بالله تعالى فليس مَبْنيًّا أو مؤسساً على الوحى، أى الكتب والرسل، إبتداء، لأنه ـ أى الإيمان بالله ـ اسبق فى الوجود الإنسانى: أفراداً وأمما على الوحى.

كذلك لا يتأسس الإيمان بالله تعالى على العقل البشرى حيث هو ـ أى الإيمان ـ مغروس فى النفس الإنسانية قبل إكتمال قوى الإنسان الفكرية ونمو ملكاته العقلية، وهذا لا يمنع أن الإيمان بالله تعالى متوافق تماما مع الأحكام العقلية الصريحة الصحيحة التى هى بدهيات فطرية.

ومن ثم ننتهى إلى أن الإيمان بالله عز وجل له مصدر خاص غير الوحى وغير العقل.

هذا المصدر الثالث للمعرفة هو الفطرة.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل/ ابن تيمية ـ تحقيق د. محمد رشاد سالم ـ رحمه الله ـ المقدمة. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود.

الفصل الثالث

الفطرة هى الأساس النفسى للإيمان بالله عز وجل واحدا لا شريك له.

قال تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

فطرة الشىء هى طبيعته فى أول خلقه، ومن ثم فطرة الإنسان هى طبيعته الأولى التى يولد بها وقبل أن تتبدل وتتغير.

والآية تثبت أن الله عز وجل يَخْلق الإنسان موحداً بمقتضى الطبيعة والخلقة والجبلة، أى أن طبيعته الأولى أو فطرته - لو سلمت من التحريف والتبديل - فإنها تدفعه وتوجهه إلى اتخاذ إله له، لأن الله خلقه عبدا، ليس هذا فقط، بل إن الفطرة السوية تَدُلُّه وتَهْديه، بغير علم مكتسب، وبغير إرشاد من أحد من الخلق إلى حقيقة التوحيد الإسلامية النازلة من السماء بالوحى على سيدنا محمد ﷺ وعلى كل الأنبياء والرسل عليهم جميعا الصلاة والسلام، إجمالا وليس تَفْصيلا.

وبناء عليه فإن التوحيد الذى نزل من السماء عن طريق الوحى له مثيل فى نفس كل إنسان لم تتبدل فطرته، ولا فرق بينهما، اللهم إلا أن معرفة الله عز وجل عن

(١) سورة الروم آية: ٢٩.

طريق الفطرة إجمالية كلية ومعرفة الله تعالى بالوحى إخبارية تفصيلية بيانية حيث تُعَرِّف الإنسان بالله عز وجل باسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحكيمة.

وقد ورد من الأحاديث الصحيحة ما يوضح هذا المعنى ويقرره.

روى مسلم فى صحيحه بسنده عن رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل قال (يقول الله تعالى: إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا)(١).

وقد بين الله عز وجل فى هذا الحديث أن الذى يغير الفطرة هم الشياطين، ولكن الشياطين ليسوا من الجن فقط، بل هناك شياطين الإنس، ومن ثم فدواعى تغيير الفطرة كثيرة منها: البيئة والمجتمع والثقافة السائدة (نظام التربية وأجهزة الإعلام) وعلى رأس هؤلاء جميعا الأسرة حيث يورث الآباء بعامة والوالدان بخاصة عقيدتهم للأبناء.

ولكن العامل الرئيسى والحاسم فى تغيير الفطرة، وتحريفها عن الإيمان بالله الواحد الذى لاشريك له، إلى الكفر أو الشرك به، أو الإلحاد، هو إرادة صاحبها، وما هذه العوامل الأخرى إلا دواعى.

ومن هنا يجب علينا أن نفهم قول رسول الله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)(٢). بمعنى أنهما يدعوانه إلى دينهما وليس يجبرانه على الشرك والكفر.

وكل الدعاة إلى تغيير الفطرة، إنما يستخدمون براهين يزعمون أنها عقلية، وأدلة يتوهمون أنها منطقية، لاثبات عقائدهم الفاسدة بهذه الأدلة الباطلة التى تحمل الطابع العقلى والصبغة المنطقية فى ظاهرها، لكنها تتضمن خلال مقدماتها المعقدة المغالطة والتمويه.

أما الإيمان بالله واحدا لاشريك له، فهو لا يحتاج إلى أدلة عقلية حيث هو مغروس فى النفس الإنسانية بمقتضى العهد والميثاق الذى أخذه الله على كل فرد من أبناء آدم والذى شهد به كل إنسان على نفسه قبل أن يخلقه الله تعالى حيا فى هذه الحياة الدنيا

(١) صحيح مسلم باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار حديث رقم ٢٨٦٥..

(٢) رواه الشيخان وفى البخارى كتاب الجنائز باب ما قيل فى أولاد المشركين حديث رقم ١٣١٩..

قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(١).

حدث هذا فى عالم الذر قبل أن ينزل أبناءآدم إلى الحياة الدنيا فى صورتهم البشرية الأرضية. ومن ثم فإن الله تعالى هو الذى عَلَّمَ الإنسان التوحيد وأشهده على معرفته عز وجل واحدا بلا شريك، وتَمَّ بذلك غرس التوحيد فى النفس الإنسانية، وأصبحت بذلك الفطرة السوية هى النبع الأول والمصدر الرئيسى للتوحيد، حيث فهم شيخ الإسلام ابن تيمية الفطرة وفسرها بأنها الإسلام، وكذلك قرر تلميذه ابن قيم الجوزية.

فقد روى أنه سمع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول (كيف يُطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟)(٢) ثم تساءل ابن القيم رحمه الله تعالى (ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار ومن لم ير ذلك فى عقله وفطرته فليتهمهما)(٣).

وحيث أن الفطرة الإنسانية حقيقة ثابتة فى النفس الإنسانية، وهذه الأخيرة واقع قائم لا يحتاج إلى دليل لإثباته، ولا يمكن لمجادل أن ينكره، فإن الإيمان بوجود الخالق عز وجل أمر ثابت مغروس فى نفس كل إنسان، ومن ثم فهو امر أولى بدهى يُستَدل به على غيره ولا يُستَدل عليه بغيره.

فإذا قال قائل: وما الدليل على أن طبيعة الإنسان الأولى وفطرته تتضمن الاقرار بالخالق جل وعلا؟.

أقول: إن هذا علم ضرورى يسلِّم به صاحب الفطرة السوية فى جميع أحواله، أما صاحب الطبيعة المنحرفة والفطرة الفاسدة، أى الملحد، فهو يضطر أيضا إلى الاقرار بالخالق واللجوء اليه ودعائه والتضرع له فى ساعة الضيق والعسرة والحرج مثل ساعة الاشراف على الغرق أو الهلاك ومن ثم يدعو الله عز وجل دون سواه.

(١) الأعراف: ١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) وهذا من اقوال شيوخ الصوفية الاكابر الذين يثنى عليهم ابن تيمية رحمهم الله جميعا.

(٣) ابن القيم/ مدارج السالكين جـ١ ص٦٠.

ومن الأدلة على أن الإيمان بالله مركوز فى أعماق النفس الإنسانية، وأن الكافر المجاهر بالشرك أو بالالحاد إنما يكابر ويحاول طمس فطرته وتغطيتها وإخفائها، قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

قال السيوطى (أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وظنوا أنهم أحيط بهم قال أهلكوا، وأخرج البيهقى فى الدلائل عن عروة قال: فر عكرمة بن أبى جهل يوم الفتح فركب البحر فأخذته الريح فنادى باللات والعزى فقال أصحاب السفينة لا يجوز ههنا أحد يدعو شيئا إلا الله وحده مخلصا، فقال عكرمة: والله لئن كان فى البحر وحده إنه لفى البر وحده فأسلم)(١).

ولنا أن نتساءل من أين لأهل السفينة الموشكة على الغرق الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له ولاند ولا قادر غيره حتى لا يتوجهوا فى البحر الهائج إلا إليه سبحانه، وينسوْن ما كانوا يعبدون من دونه فى البر، وهم فى حالة الأمان واليسر؟ إنه من أعماق نفوسهم، ذلك أنه الإيمان الفطرى المركوز فى القلوب يظهر ويطفو إلى السطح ساعة العسرة وساعة الضيق ووقت الخطر.

فاذا ما عادوا إلى اليسر والأمان والإطمئنان والمتاع والآمال وطول الأمد عادوا إلى شركهم وفسقهم ونسوا عهدهم الذى عاهدوا الله عليه ساعة العسرة حين ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢ ـ ٢٣].

هذه الآية ومثيلاتها فى القرآن الكريم وتطبيقاتها فى مثل قصة إسلام عكرمة كلها تثبت أن أساس الإيمان بالله تعالى فى النفس الإنسانية هو الفطرة الموحدة، وهذه الحقيقة تتضمن الرد على الفلاسفة والمتكلمين الذين جعلوا منهج معرفة الخالق

(١) السيوطى/ الدر المنثور/ جـ٣ ص٣٢٨.

والإقرار بوجوده هو النظر العقلي، الذى فيه إنكار لحقيقة أن الإنسان يعرف خالقه بداهةً أى بمعرفة أولية بمقتضى الخلقة، وليس بمعرفة وعلم مُكتسبين. وهذا ما جعل المتكلمين يعتمدون على دليل الحدوث لإثبات وجود الخالق عز وجل، وهذا الدليل وغيره من الأدلة العقلية تقوم جميعا على مقدمات عقلية مَحْضَة. وبهذا جعلوا العقل أصلا للدين وأساسا للوحى نتيجة لتأسيس الإيمان بالله تعالى على العقل، متجاهلين حقيقة الفطرة ومخالفين لها ولحقائق إيمانية أخرى معلومة بالقرآن الكريم والسنة.

كذلك لا يجوز القول بأن الوحى هو أساس الإيمان بالله عز وجل، لأن الوحى ـ قرآنا وسنة ـ يثبت الفطرة كمصدر أول وأساس أصيل للعلم بالله تعالى ربًا بلا شريك وبلا ند. قال تعالى للناس قاطبة فى كل زمان ومكان ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١) فأثبت أنهم يعلمون جميعا أنه ليس لله تعالى نِداً، وإن كانوا لا يؤمنون جميعا بذلك.

ويدل على هذه الحقيقة أيضا وجود كثير من البشر يؤمنون بالله تعالى إيمانا فطريا على الحنيفية دون أن تبلغهم رسالة الرسل وهؤلاء موجودون فى كل زمان ومكان.

فَلو قلنا أن الوحى هو أساس الإيمان بوجود الله تعالى، لأدى هذا إلى أن يكون العقل هو أساس الدين لان الإيمان بصحة الوحى يحتاج إلى أدلة عقلية. ومن ثم يصبح العقل أساساً للنقل وفى هذا ما فيه من فساد وتحريف للدين ومفاهيمه كما حدث من المعتزلة وأكثر الفرق المنحرفة كالقدرية والجهمية وغيرهم من الفلاسفة.

والحق هو أن الوحى والعقل لا يتعارضان وأن الوحى مستقل فى وجوده وإثباته عن العقل، وأن التسليم بالوحى غير متعارض مع أحكام العقل وقائم ومبنى على الإيمان بالله تعالى الذى هو أمر فطرى فى النفس لايحتاج إلى دليل عقلى من جنس أدلة المتكلمين والفلاسفة.

---

(١) البقرة آية ٢١ ـ ٢٢.

الفصل الرابع

ترتيب أركان الإيمان وجوديا ومعرفيا

أولا: الإيمان بالله عز وجل أول الأركان وأسبقها في النفس وجوديا ومعرفيا:

فمعرفة الله عز وجل والإيمان به أمر أولى فى النفس الإنسانية، فهو متزامن مع وجود هذه النفس، ليس متأخرا عنها فى الوجود، وليس لمعرفة الله تعالى والإيمان به فى النفس الإنسانية مصدر آخر سوى وجود هذه النفس، أى أن الله عز وجل خلق النفس الإنسانية مؤمنة به، عارفة له معرفة جبلية، فوجودها معرفته ومعرفته سبحانه هو وجودها وذلك لأن الإيمان ما هو إلاً معرفة وتصديق بالوجود الغائب عن الحس. ومن هنا اخطأ القائلون بأن مصدر الإيمان بالله تعالى النظر العقلى، لأن النظر العقلى قائم على المحسوس أو المجرد من المحسوس ، فأصل المجرد كالرياضيات هو المحسوس، فلا يصلح أساسا للإيمان بالغيب، كما أخطأ القائلون بأن مصدر الإيمان بالله تعالى هو الوحى؛لأنه موجود فى النفس الإنسانية بمقتضى الخلقة قبل تلقى الوحى وهذا هو معنى أولية الإيمان بالله تعالى فى النفس الإنسانية، وهذه الأولية من ناحيتين:

الأولى: أولية من الناحية الوجودية أى بالنسبة لوجود الذات الإنسانية المتزامن وجودها مع معرفة الله تعالى.

الثانية: أولية أيضا من الناحية المعرفية، أى أن أول ما عرف الإنسان عرف رَبَّهُ عز وجل، فعرف نفسه، فمن عرف نفسه عرف ربه.

ومن ثم تعتبر الفطرة هى الأساس الأول والأصيل للإيمان بالله عز وجل، والإيمان بالله عز وجل أساس أصيل فى النفس الإنسانية للإيمان بالملائكة والكتب والرسل وبقية الأركان. بل ولكل المعارف والعلوم كذلك.

ومن ثم يتضح لنا أن مكمن الخطأ عند القائلين بأن أساس الإيمان بالله هو النظر العقلى فى جعلهم العقل البشرى أسبق فى النفس من معرفة الله عز وجل، فى حين أنه قد تبين لنا ان تفرد الله عز وجل بالأولية أى بالأزلية ليس وجوديا فقط، بل هو معرفى كذلك، فلا يجوز أن يعرف الإنسان شيئا قبل معرفة الله عز وجل، كما لا يجوز إثبات وجود أحد أو شىء قبل إثبات وجود الله عز وجل، فلحظة أن قال الله عز وجل لنا فى عالم الذر (أَلَسْتُ بربكم) عَرَفت النفسُ ربها مع إدراك ذاتها ووجودها لأول مرة.

والقائلون بأن معرفة الله تعالى، لا تكون الا بالنظر العقلى، فهؤلاء كأنهم أثبتوا وجوداً للعقل قبل الذات الإنسانية كائنا مستقلا عن وجود الله تعالى، فيكون مشاركا له فى الأزلية والقدم، وأساس التوحيد الإسلامى هو تفرد الله تعالى بالأزلية والقدم والأولية، كما سنعلم هذا مفصلا بعد، وذلك لأن القول بالتلازم المعرفى بين الاله والعقل يستتبع تلازما وجوديا بينهما أيضا، فيكون العقل أزلياً قديما مع الإله، وهذا شرك صريح، وهذا هو مكمن الالحاد الذى وقع فيه الفلاسفة وقبلوه صراحة فكان شركهم صريحا مخرجا من الملة. وهو ما يقتضيه مذهب بعض المتكلمين ونلزمهم به ضمنا، فكان شركهم من الشرك الخفى الذى لا يخرج من الملة.

أما التوحيد الإسلامى، فإنه قد جعل الفطرة الإنسانية المغُروسة فى النفس الإنسانية بمقتضى الخلقة هى المصدر الأول والأصيل لمعرفة الله عز وجل والتصديق بوجوده واحدا لا شريك له، ومن ثم تزامنت هذه المعرفة مع النفس فى الوجود، فبدأ

وجود النفس أو الذات الإنسانية لحظة أن شاهدتْ الرب سبحانه والاستماع إليه قائلا «أَلَسْتُ بربكم؟» وهذا يقتضى أسبقية وأولية وأزلية الرب سبحانه.

ومن ثم تلازمت أسبقية هذه المعرفة وأوليتها فى النفس الإنسانية مع تفرد الله عز وجل بالأزلية والقدم أى بالاولية.

وبناء على هذا كله يكون الإيمان بالله عز وجل هو أساس الإيمان بالأركان جميعا، بل وبكل ما نزل من عند الله تعالى من حق، وكل ما نزل من عنده حق خالص.

ويكون ـ بالتالى ـ الإيمان بالله تعالى أساساً أصيلا وركنا أوليا فى النفس بمعنى أنه لا ينبنى على شىء بينما يَنْبنى عليه كل معرفة وكل تصَديق سواه.

ولهذا لا يَرِدُ الإيمان بأى ركن من الأركان فى القرآن الكريم إلا تالياً للإيمان بالله تعالى. بل ينبنى التصديق بعالم الشهادة على الإيمان بالله تعالى، بدليل وجود طائفة الشكاك والسوفسطائيين، الذين شكوا فى كل شىء حتى فى المحسوس، بعد أن أنكروا الخالق وألحدوا أو شكوا فى وجوده، فمن الناحية الوجودية كل شىء مخلوق لله عز وجل، ومن ثم لا ينشأ إيمان بوجود أى شىء فى النَّفس، إلا إذا كانت هذه النفس مؤمنه بالله الخالق عزَّ وجل ، أى أن الإيمان بالمخلوق مبنى على الإيمان بالخالق وليس العكس.

وهكذا يتوافق ترتيب الأركان ونسق الإيمان فى القرآن والسنة وجوديا ومعرفيا، من حيث أسبقية الإيمان بالله تعالى على الإيمان بالملائكة، وأسبقية الإيمان بالله تعالى وبالملائكة على الإيمان بالكتب، وأسبقية الإيمان بهذه الأركان الثلاثة على الإيمان بالرسل ، بحيث يَنْبنى كل ركن لاحق على ما سبقه من الأركان وجوديا ومعرفيا معا، فيكون الإيمان بالرسل والنبيِّين مبنياً على الإيمان بالكتب، أى بالرسالة السماوية أو بالهدى الربانى، والإيمان بالملائكة المنزلين من عند الله بالكتب، وكل هذا مبنى على الإيمان بالله إلها واحداً وربا واحدا خالقا حكيما عليما قديراً سميعا بصيرا موصوفا بكل صفات الكلمات والجلال منزها عن صفات النقص والعيب والعجز وأفعال العبث.

ثانياً: الإيمان بالملائكة لاحق للإيمان بالله تعالى وسابق لجميع الأركان الأربعة الأخرى:

من الثابت أن الملائكة أسبق فى الخلق من الجن والإنس.

لقد أخبر الله عز وجل الملائكة بمشيئته فى جعل الإنسان خليفة وتعجبت الملائكة وأزال الله تعالى تعجبهم بإخبار آدم لهم بالأسماء التى علمها الله تعالى له من دونهم. ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، وكان معهم إبليس الذى كان من الجن، وهذا يثبت أسبقية وجود الملائكة والجن على وجود آدم أى الإنسان.

والإيمان بالملائكة يستتبع الإيمان بالغيب أو بتعبير آخر نقول إن الإيمان بالغيب أى بوجود عالم غائب وراء حس الإنسان أصل، والإيمان بالملائكة فرع منه، وكل منهما يدل على الآخر ويؤدى إليه.

فالتصديق بالملائكة تصديق بعالمهم الغائب فى السماوات السبع وكل ما ورد فى القرآن الكريم والسنة الشريفة من أحوال السماوات وما فيها والملائكة ومهامها ووظائفها. وليس خلق الملائكة أقدم فى الزمان من الناحية الوجودية فقط، بل هم عباد الله المكرمون لا يعصونه ويفعلون ما يؤمرون، وكلَّفهم الله تعالى بمهام عديدة فى حياة الإنسان وموته وفى كل الظواهر والتغيُّرات الكونية والحيوية على الأرض. وفى السماوات.

ومن ثم هم جنود الرحمن وسفرته ينْجز الله تعالى بهم قضاءه ويمضى بهم قدره فى العباد، وفى السماوات وفى الأرض، فهم علل غيبية تعمل مع العلل والأسباب الطبيعية لحدوث الأحداث والمسببات والنتائج فى الحياة والممات وجميع الاحداث الكونية والطبيعية فى الأرض، بأمر الله تعالى ومشيئته ووفق مراده عز وجل، ومن ثم لا يمكن تفسير الكون تفسيرا إسلاميا صحيحا إلا بالإيمان بالملائكة.

ولا يمكن تكوين تصور صحيح للكون المخلوق فى ذهن المسلم إلا إذا عرف كل ما جاء عن الملائكة فى الكتاب والسنة، وأهم ما يجب على المسلم أن يعلمه فى هذا الصدد أنهم رسل الله تعالى إلى رسل أهل الأرض، وإلى أهل الأرض لأنهم ليسوا رسلا لتوصيل هدى الله تعالى ورسالته للأنبياء فقط، بل هم أيضا سفَرته سبحانه وجنوده لتنفيذ أوامره الكونية ومشيئته وأقداره فى العباد، فهم رسله سبحانه الذين

يحملون أوامره التشريعية، وأيضا هم رسله سبحانه لتنفيذ أوامره الكونية فى حياة الانس والجن.

ومن ثم يعتبر الإيمان بالملائكة هو الركن الإيمانى الذى يتناول قضية تصور العالم وتفسير الكون المخلوق فى الإسلام.

وهم أكرم ما فى الكون المخلوق على الله عز وجل من مخلوقاته من غير الإنس والجن، اى اكرم المخلوقات التى لم يخلقها الله تعالى للإبتلاء، أى التى هى كائنة بأمره ومشيئته الكونية، أى كما أرادها الله تعالى أن تكون بلا حرية أو إختيار مثل الأجرام السماوية والأرض والجبال والبحار والسحب والنبات والحيوان والمعادن وغيرها.

والذى يصدق بوجود الملائكة بنفس الصفات والأحوال والوظائف والمهام التى جاءت عنهم فى القرآن الكريم والسنة يمكنه أن يتوصل إلى تفسير صحيح للكون وللحياة وللموت وللدنيا والآخرة.

أمّا الذى يكذب بوجودهم أو يصفهم بصفات مخالفة لصفاتهم وخلقتهم وأحوالهم فى الكتاب والسنة لا يمكن أن يصل إلى التفسير الصحيح للكون والحياة والموت والدنيا والآخرة حسب ما جاء فى القرآن والسنة.

ولذلك ورد الإيمان بهم أى التصديق بوجودهم وأحوالهم ومهامهم وخصائصهم كما هى فى القرآن والسنة بعد الإيمان بالله تعالى مباشرة.

ذلك أنهم من الناحية الوجودية أسبق كما علمنا، وهذا السبق فى الخلق للملائكة عن الجن والإنس يتّفق مع كون الوحى طريق أول لوصول الهدىْ الربانى للإنسان.

وجبريل عليه السلام حامل كلام الله تعالى إلى رسل البشر، هو ملك الوحى، وهو من كبار الملائكة ومن المقربين لله عز وجل، وكذلك ميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ومن ثم أصبح الإيمان بالملائكة هو الركن الثانى بعد الإيمان بالله تعالى وجوديا ومعرفيا أيضا.

وجوديا لما للملائكة من أدوار هامة وَخطيرة فى الأحداث الكونية والطبيعية والحيوية بأمر الله تعالى ومشيئته وبخاصة فى وجود الإنسان جنينا وبشراً حياً أو ميتا

. ووجوديا أيضا لما لهم من سبق فى الوجود زمانيا على الانس والجن. ومعرفيا لوجود الهدى الالهى للإنسان عن طريقهم أولا كما سبق توضيح ذلك.

ثالثا: الإيمان بالكتب لاحق للإيمان بالملائكة وسابق على الإيمان بالرسل واليوم الآخر

من الناحية الوجودية كلام الله الذى أنزله سبحانه بالوحى ليس مخلوقا، ولا يجوز لنا أن نقول ذلك، بينما الملائكة مخلوقون فكلمات الله تعالى القائمة به عز وجل الصادرة عنه لملك الوحى ليست مخلوقة، ولكن ملك الوحى جبريل عليه السلام أو غيره ممن يتلقى من الله عز وجل مخلوق ثم أن نزوله بأمر الله إلى رسل الله من البشر والنبيين إنما يكون فى زمن محدث مخلوق، ولهذا صح القول أن صحف إبراهيم ﷺ أسبق فى حياتنا الدنيا الأرضية زمانا من توراة موسى، وأن توراة موسى أسبق زمانا من الزبور الذى نزل على داود وزبور داود أسبق زمانا من إنجيل عيسى عليهم الصلاة والسلام، وأن القرآن الكريم بعدهم جميعا فى الزمان نزولا من السماء إلى الأرض، لكن هذه البعدية الزمانية أى الحدوث فى الزمان هى بالنسبة لنا نحن المخلوقين فى الزمان، وليست بالنسبة للخالق الأزلى عز وجل، ومن ثم فهى ليست بالنسبة لكلامه سبحانه الصادر منه الذى هو غير مخلوق وغير حادث فى الزمان.

فمن حيث أن القرآن الكريم كلام الله أى فعله حيث أنه عز وجل قد قاله فهو أى كلامه ليس مخلوقا ، وكذلك بالنسبة لكل كلام لله عز وجل قاله فى كتاب من كتبه المنزلة أو بالنسبة لقوله تعالى كن للشيء ليكون، فإن كلمة كن الالهية ليست مخلوقة وما يخلقه الله ويقضيه بها مخلوق.

أما نزول الوحى والقرآن من السماء إلى الأرض يحمله ملك الوحى إلى الرسول البشرى ﷺ فهو أمر حادث فى الزمن، ومن ثم فهو من هذا الوجه متأخر عن الملك وجوديا. أى أن جبريل عليه السلام والملائكة أسبق وجوديا من نُزول الكتب السماوية إلى الأرض، بل إن نزول الكتب السماوية والهدى الربانى لاحق فى الزمان على نزول آدم وزوجه من الجنة إلى الأرض. قال تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩] فمن حيث هذا

الوجه يكون وجـود الملائكة أسبق من نزول الكتب السـماوية إلى الأرض على رسل البشر.

ولهذا جاء ترتيب الكتب السماوية بعد الإيمان بالملائكة وقبل الإيمان بالرسل، لأن وجود الكتب وآثارها فى تاريخ البشـرية متأخر عن وجود الملائكة فى الكون ومـتأخر عن حدوث أفعال الملائكة فى حياة البشر، ومتأخر أيضا من حيث الآثار والنتائج عن آثار ونتائج الكتب السماوية فى حياة الإنسان أيضا.

إن أفعال الملائكة هى مـجلى المشيئة الالهية فـى الكون، لأنهم هم المنفذون لها فى الكون المخلوق بعامة، وفـى حياة وموت الإنسان بخـاصة. ولا يمكن أن يحدث شىء فى الكون المخلوق كبيرا كان أم صغيرا إلا بمشيئة الله تعالى الكونية، فهم إذاً أسبق فى حياة الإنسان وجوديا أيضا.

والكتب السماوية الركن الثـالث من أركان الإيمان هى أوَامر الله تعالى التشـريعية التخيـيرية الابتلائية فى حياة البـشر، ومن ثم فهى لاحقة وجـوديا للملائكة من حيث تنزيلها من السماء على رسل البشر بعد نزول آدم وزوجه إلى الأرض، ومن حيث أن ملاك الوحى يتلقاها من الله عز وجل، ثم يوصلهـا إلى رسل البشر، وهذا دليل السبق المعرفى للملائكة على الكتب فى حياة البشر.

فالسبق الزمانى للملائكة على الكتب من هذا الوجه ثابت وجوديا ومعرفيا.

لهـذا ورد الإيمان بالكتب بعـد الإيمان بالملائكة، وصـار الإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان.

وقد نسب الله تعالى الملائكة إلـيه بقوله (وملائكته) لأنهم جنوده وسـفرته ومنفذو مشيئتـه الكونية، ومبلغوا أوامره التشريعية، فليس لهم فـعل أو أفعال خاصة بهم، بل كل ما يـفعلونه هو فـعل الله عز وجل، لأنهم لا يفـعلون إلا أمره ولا يعـصونه البتة، فأفعالهم منسوبة له عز وجل على الحقيقة ومنسوبة لهم مجازا.

وحـيث أن الكتب المنزلة ـ وإنْ كنا نحن البـشر لا نتلقـاها إلا فى صورة أصـوات مسموعة وكلمات منطوقـة وحروف مكتوبة ـ ، إلا أنها قبل أن تكون هذا أو ذاك هى كلام الله تعالـى المنزَّل منه سبحانه على ملك الوحى جـبريل عليه السـلام أو غيره من الملائكة أو ممن يشاء من خلقه.

أو منزل من رب العزة إلى اللوح المحفوظ مرة واحدة، ومن ثم يقوم ملك الوحى بتويصله إلى قلوب رسل البشر الذين يوصلونها بدورهم بألسنتهم إلى أقوامهم، فتصير كلمات الله تعالى بين الناس مكتوبة ومتلوّة ومسموعة.

ولهذا نسب الله تعالى الكتب إلى نفسه ، لأنها تتضمن كلامه جل وعلا، فكلام الله بالنظر إلى أنه من الله عز وجل ليس مخلوقاً، أما بالنظر إلى أنه منزل بالملك ومقروءٌ وَمتْلُوٌ ألفاظا وحروفا وآيات وسور، ومكتوب فى المصاحب كذلك، فهو من حيث كونه كلام الله ليس مخلوقاً أما الأصوات والأوراق والمداد والنزول به من السماء وأفعال العباد وأصواتهم وكتابتهم فهى مخلوقة أما المتلو والمدون فهو كلام الله غير مخلوق(١).

رابعا: الإيمان بالرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره:

الإيمان بالرسل والنَّبيِّين هو الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب. ومن ثم فلن نفصِّل فيه هنا، ولكن سنقتصر على تأكيد بناء الإيمان بالرسل والنَّبيِّين على الإيمان بالكتب والملائكة والإيمان بالله عز وجل، ثم الإيمان باليوم الآخر الذى يلى ركن الإيمان بالرسل يأتى مبْنيًا على الإيمان بالرسل والأركان السابقة، لأن معرفة أحوال وأخبار اليوم الآخر مصدرها الكتب والرسل.

وكذلك بالنسبة للإيمان بالقدر خيره وشره من الله الذى هو آخر الأركان ينبنى على الأركان الخمسة السابقة عليه، فمن صَحَّتْ عقيدته فيها جميعا، وفهم هذه الأركان الخمسة فهما صحيحا صح فهمه لهذا الركن الأخير وصحت عقيدته فيه.

وغنى عن البيان أن وجود الرسل ومعرفتهم لاحقان وجوديا ومعرفيا للأركان السابقة وكذلك اليوم الآخر لاحق وجوديا ومعرفيا للأركان الأربعة السابقة، ثم إن الإيمان بالقدر خيره وشره ، الذى هو مشيئة الله تعالى فى كل ما يحدث فى الكون، لابد أن يكون لاحقاً معرفيا ووجوديا أيضا لجميع الأركان السابقة بما فيها الإيمان باليوم الآخر.

---

(١) أخطأ المعتزلة لما اصروا على ان القرآن محدث مخلوق سواء من حيث كونه من الله تعالى أو من حيث كونه مقروءا بالالسنة مكتوبا بالأقلام لأنهم لم يفرقوا بين هذين الحالين، ففعل التلاوة والتدوين الذى يقوم به المؤمنون مخلوق. أما المتلو والمدون بفعلهم فهو كلام الله تعالى غير مخلوق.

الفصل الخامس

إفراد الله تعالى بالخالقية هو أساس التقديس للتوحيد الإسلامى

يتمثل التوحيد الإسلامى فى التصديق القلبى بالله عز وجل خالقا لكل ما سواه مما نراه ونشاهده، والتصديق أيضا بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكل أمر غيبى أخبر به الله عز وجل فى القرآن الكريم وأخبر به رسوله ﷺ فى السنة.

كذلك يتمثل التوحيد فى الاقرار اللفظى بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، باعتبار أن هذه الشهادة هى التعبير القولى عن التفسير الوجودى الصحيح، فهذه الشهادة، أو هاتان الشهادتان هما حقيقتا الوجود فى سبع كلمات، اذ تَتَضَمَّنَان بوضوح البيان القولى بأن الحقيقة الكونية تتمثل فى وجودين متباينين متغايرَيْن.

الموجود الأول: وهو الخالق جل جلاله.

الموجود المغاير: ويتمثل فى المخلوقات جميعا، أى كل ما سوى الخالق، وأعداد المخلوقات لا يحصيها إلا الله تعالى: أجناسا وأنواعا وأصنافا وافراداً أحياء وغير أحياء.

وحيث أن الخالق عز وجل هو الموجود الحق فهو الأول الذى ليس له ثانى، وهو سبحانه الآخر الذى ليس له سابق ، ومن ثم لا يجوز القول بأن الله تعالى هو الموجود الأول وأن الكون المخلوق أو العالمين هو الموجود الثانى، فهذا القول باطل لأن هذا

القول يؤدي إلى اثبات ندية بين الخالق والمخلوق، وحاشا لله تعالى أن يكون له سبحانه ندٌ أو ضدٌ أو نقيض، لأنه سبحانه لا جنس له ولا نوع، ومن ثم لزم القول بأن الله تعالى هو الموجود الحق باعتبار أنه هو وحده الخالق، وأن كل ما سواه مخلوقاته، لأن كل ما سواه مَخلوق له، وموجودات مغايرة له ، فليس بينها مثله، كما أنه سبحانه ليس مثل شيء منها، وليس كمثله شيء.

وقولنا أن الخالق هو الموجود الحق يفيد أن ما يغايره من الموجودات ليس وجوداً حقيقيا. وهذا صحيح، فليس بين المخلوقات ما يتصف بالوجود الحقيقي، وإنما هو وجود عدمي، لأنه وجود إمكاني في مقابل أن وجود الخالق وجوبي، وليس ثم تناقض في عبارة «الوجود العدمي» بل هي وصف صحيح لوجود كل ما سوى الخالق سبحانه، لأن وجود المخلوق محصور بين عدمين: عدم قبل بدئه وعدم بعد إنتهائه، فهو وجود عدمي من حيث كونه وجودا مسبوقا بعدم، ومنتهيا إلى عدم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم/ ٢٧] وهذا الوجود العدمي هو ما يطلق عليه علماء التوحيد الوجود الإمكاني، وهو تعبير «كلامي»(١) عن المخلوق، لأن وجوده ليس ذاتيا، وإنما هو موجود بمقتضى المشيئة الإلهية، إن شاء الله تعالى أن يبدأ وجوده، صار موجودا، وإن شاء أن يعدمه صار معدوما، فهو موجود إذا شاء الخالق سبحانه أن يجعله موجوداً أو معدومٌ إذا شاء أن يعدمه، أو إذا لم يشأ إيجاده.

ومن ثم فالحقيقة الكونية أو الحق الكوني هو الله تعالى وما شاء أن يكون. ومن ثم فشهادة التوحيد هي إثبات الحق الكوني، أي إثبات وتصديق بالخالق سبحانه وبالمخلوق كموجود عدمي .

فالخالق تُعبِّر عنه الشهادة الأولى من الشهادتيْن «لا إله إلا الله» والمخلوق تعبر عنه الشهادة الثانية منهما «محمد رسول الله» فإذا سلمنا بأن الخالق عز وجل هو الحق الكوني، أو إذا سلمنا أن وجود الخالق سبحانه هو تسليم بالحقيقة الكونية المطلقة باعتبار أن ما سواه ما هو إلا كلمته وفعله، فكيف نسلم بأن شهادة «محمد رسول الله» هي أصدق وأدق تعبير مختصر عن حقيقة الوجود المخلوق؟

(١) «كلامي أي مصطلح من مصطلحات علم الكلام.

هذا هو الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب: النور النبوى وهو ما سنقرأه تفصيلا بأدلته من الكتاب والسنة بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه وفتحه ومنّه.

بيد أن هذا التفصيل الدقيق الذى سنقرأه فى أقسام هذا الكتاب وفصوله يمكن إجماله فى الأسطر التالية:ـ

علمنا ان الوجود وجودان متغايران غير متماثلين هما:

الله جل جلاله الذى ليس كمثله شىء، وهو الخالق والموجد والفاعل للموجودات المغايرة أو موجودات «السِّوىَ»، ومن ثم فهو سبحانه الموجود الحق، ووجوده هو الوجود الحقيقى.

والوجود المغاير هو وجود المخلوقات التى هى بكلمات الخالق سبحانه، ومن ثم فوجودها ليس وجوداً حقيقيا مؤكدا، إذ ليس هذا الوجود نابعًا من ذواتها ولا متعلقا بذواتها، وإنما هو متعلق بمشيئة الخالق سبحانه.

وهذا التعلق من المخلوق بالخالق إبداعا وإيجاداً وإمدادا بمقومات الوجود، جعل للمخلوق ولَهاً بالخالق سبحانه، يتبع هذا الوله بالضرورة وينبنى عليه عبادة المخلوق للخالق، أى تأليهه خوفاً من العودة للعدم، ورجاء فى إستمرار الوجود، ومحبة من المخلوق للخالق باعتبارين:

الأول: أنه سبحانه الموجود الأكمل الأتم الاجمل مطلقا فهو جل جلاله بالتالى مرادٌ لذاته ومحبوبٌ لذاته.

الثانى: باعتبار أنه منعم الوجود على المخلوق إبداعا، ودافع الضُّرِّ عنه رحمةً ومنعم النعم التى بها يدوم وجوده كرما، فإستحق الاله سبحانه بهذا ولَهَ الإمتنان لهذه الثلاثة:

الخوف والرجاء والمحبة، وهى جميعا كفيلة بأن تدفع المخلوق إلى عبادة الخالق وحده سبحانه، لو سلمت الفطرة، وإستقام الفهم، ونجا العبد من تلبيس الشياطين.

إذاً فالخالقية تعنى الألوهية، والمخلوقية تعنى العبودية.

والله وحده هو الخالق ليس له شريك فى الخلق فلارب للعالمين سواه، ومن ثم فهو المتفرد وحده بالألوهية، فلا إله غيره.

وحيث أن كل ما سواه مخلوق له، فإن كل ما سواه عبد له، وسيدنا محمد ﷺ خير موجود عرف الله عز وجل، وأفضل مخلوق عبده سبحانه. «فالحقيقة المحمدية» هى حقيقة العبودية المطلقة لله عز وجل.

وبالتالى فان شهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» سبع كلمات مباركات تجمع بين الإقرار والتصديق بالاله الخالق سبحانه، وبالعبد المخلوق فى أكمل وأتم أحوال العبودية، فهى إعلان عن الألوهية والعبودية معا. ومن ثم ليس فى الوجود إلا الله عز وجل وعباده الذين ليسوا سوى كلماته، فليس فى الوجود سوى الله سبحانه وتعالى وكلماته أى مخلوقاته التى تتم بكلماته عز وجل، وليس بمعنى أنها، أى المخلوقات هى عين الكلمة الإلهية، لأن عين الكلمة الالهية فعل الله وليست مخلوقة ؛ والذى يتم بها مخلوق. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس/٨٢) فالكلمة الألهية «كن» ليست مخلوقة والشىء الذى أراده الله بها هو المخلوق.

لذا، فالخالق سبحانه هو الأول الأزلى القديم وهو عز وجل الدائم الباقى الابدى الذى ليس كمثله شىء، والخلق جميعا محدثون، فلهم ابتداء، وهالكون فهم إلى انتهاء حتمى، فوجودهم بين البدء والانتهاء ليس ذاتيا، وإنما هو بِمَنْع الخالق سبحانه الفناء عنهم، وبامساكه سبحانه السماوات والأرض وكل شىء فيهما عن الزوال، لأن ذات المخلوق التى هى من الوجود العدمى تتداعى فى كل لحظة إلى الزوال، فلا بقاء لهم إلا بابقاء الله تعالى لهم، هذا حال كل مخلوق، ولا يستثنى منه أى مخلوق، ولا حتى أحبهم اليه رسوله محمد ﷺ.

فسبحان المتفرد بالأولية الذاتية تفرداً مطلقا وبالآخرية أو بالبقاء الذاتى بقاءً مطلقا.

وسبحان الله القادر على أن يجود على من يشاء من عباده بما يشاء من الوجود المحدود بالأجل المؤقت، أو بالوجود الباقى بقاء غير ذاتى، وغير مطلق حيث يبقى هذا الموجود بابقاء الله تعالى له وليس ببقاءٍ ذاتى.

الفصل السادس

من جوهر التوحيد الإسلامى إفراد الله عـــز وجل بالأوليـــة وبالآخـــرية

تتضمن شهادة «لا إله إلا الله» خصائص وصفات للألوهية يتفرد بها الله عز وجل:ـ

الأولى: هى أن الله تعالى هو الخالق المتفرد بالأولية والأزلية أو القدم، قال تعالى ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

كتب السيوطى رحمه الله فى الدر المنثور فى تفسير هذه الآية الكريمة. فقال: (وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن مقاتل بن حيان رضى الله عنه قال: بلغنا فى قوله عز وجل «هو الأول»: قبل كل شىء، و«الآخر» بعد كل شىء، و«الظاهر» فوق كل شىء، و«الباطن» أقرب من كل شىء)(١).

وأخرج أبو الشيخ فى العظمة (عن ابن عمر وأبى سعيد عن النبى ﷺ قال: لا يزال الناس يسألون عن كل شىء حتى يقولوا: هذا الله كان قبل كل شىء، فماذا كان قبل الله؟. فإن قالوا لكم ذلك، فقولوا: هو الأول قبل كل شىء، وهو الباطن دون كل شىء، وهو بكل شىء عليم)(٢).

---

(١)، (٢) السيوطى/ الدر المنثور جـ٦ ص١٨٩.

وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات (عن أم سلمة عن النبى ﷺ أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات: اللهم أنت الأول، فلا شيء قبلك، وأنت الآخر فلا شيء بعدك، أعوذ بك من شر كل دابة ناصيتها بيدك، وأعوذ بك من الإثم والكسل، ومن عذاب النار، ومن عذاب القبر، وفتنة الغنى وفتنة الفقر، وأعوذ بك من المأثم والمغرَم)(١).

وأخرج البيهقى (عن ابن عمر قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ الذى كان يقول يا كائن قبل أن يكون شيء، والمكوِّن لكل شيء، والكائن بعد ما لا يكون شيء، أسألك بلحظة من لحظاتك الوافرات الراجيات المنجيات)(٢).

وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى (عن محمد بن على رضى الله عنهما أن النبى ﷺ علَّم عليا دعوة يدعو بها عندما أهمَّه، فكان على رضى الله عنه يعلمها لولده: يا كائن قبل كل شيء، ومكوِّن كل شيء ويا كائن بعد كل شيء، إفعل بى كذا وكذا)(٣).

فمن دلائل اسمه «الأول» تفرده عز وجل بالوجود قبل أن يكون شيء مما سواه، ومن ثم فكل ما سواه مخلوق له، وهو وحده سبحانه خالق كل شيء، وهذا أخص معانى الأولية. كما أن من أخص معانيها وجوب وجوده سبحانه وهو عز وجل الذى يبدأ الخلق فيصير لهذا الخلق بدءاً أى لحظة أولى فى وجوده، لأنه حدث بعد أن لم يكن موجوداً. فلحظة البدء هذه هى بدء عمر هذا المخلوق، وماله ابتداء لابد أن يصير إلى إنتهاء، فيكون الزمن الحادث من لحظة بدئه إلى لحظة انتهائه هو عمر أو أجل هذا الخلق، هذا الأجل الذى قدره الله تعالى له، فهو صائر إلى لحظة الانتهاء حتما بمقتضى تصيير الخالق سبحانه للزمان أو للدهر الذى هو إنطلاق الخلق بأمر الله وقوته من بدئه إلى منتهاه.

قال تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقد اختلف المفسرون من الصحابة والتابعين فى دلالة لفظ «السجل» فى الآية، فقد أخرج أبو داود والنسائى وابن جرير وإبن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى، وابن

(١)، (٢)، (٣) المصدر السابق ونفس الصفحة وما بعدها.

منده فى المعرفة وابن مردويه والبيهقى فى سننه وصحَّحَه (عن ابن عباس رضى الله عنهما قال السجل كاتب للنبى ﷺ)(١). وهذا يفيد بأن اسم السجل ليس عَلَماً لشخص بعينه، ولكنه اسم يطلق على كل من يقوم بالتدوين وحمل سجل التدوين، يؤكد هذا ما أخرجه النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر (عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: السجل هو الرجل: زاد ابن مردويه: بلغة الحبشة).

أما القول الثانى فى دلالة اسم السجل فهو المنسوب للإمام على رضى الله عنه بأنه «مَلَك» يدل على هذا ما أخرجه عبد بن حميد عن على فى قوله تعالى ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ قال ملك. كذلك يدل عليه ما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ قال: السجل: ملك فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبوها نورًا.

أما القول الثالث فى دلالة لفظ السجل فى الآية فهو الصحيفة وهو مروى عن مجاهد فيما أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر (عن مجاهد فى الآية قال: السجل: الصحيفة)(٢).

والمعنى أن السماء تكون بيد الجبار سبحانه كالصحيفة فى يد الكاتب، فيطوى الله عز وجل السماء بالسهولة واليسر الذى يطوى بهما الكاتب الصحيفة، بل هى أهون على الله جل جلاله، هذا على قول مجاهد، وعلى قول ابن عباس رضى الله عنهما يكون التفسير: أن السماء تكون بيد الجبار سبحانه كالصحف التى بيد السجل الذى هو كاتب النبى ﷺ ويطويها الله تعالى كما يطوى هذا الرجل صُحُفَهُ بين دفتىْ كتابه، وعلى قول الإمام على رضى الله عنه وأرضاه، فإن التفسير يكون: إن الله عز وجل يطوى السماء كما يطوى الملك الموكل بالكتاب الذى اسمه السجل لكتبه أى لصحفه.

ولا يوجد إختلاف أو فروق جوهرية بين الأقوال الثلاثة، إذ أنها ـ ولله المثل الأعلى تدل على أن الله تعالى يطوى السماء بسهولة ويسر كما يفعل الذى يطوى

(١) نفس المصدر جـ٤ ص٣٧٣.
(٢) نفس المصدر والصفحة.

دفتيْ كتابه على صفحاته، ومن ثم يعيد سبحانه الخلق إلى ما كان عليه عند البدء لقوله تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ....﴾ قال ابن عباس (نهلك كل شيء كما كان أول مرة)(١) وهذا الأثر لابن عباس يفيد أن إعادة الخلق إلى ما كان عليه قبل البدء شامل لكل شيء.

أما القول الثاني لمجاهد الذي قصر دلالة عبارة (أول خلق) في الآية على الناس فحسب، ودليل هذا ما أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ قال: عراة حفاة غرلا.

وأخرج ابن جرير (عن عائشة قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ: وعندي عجوز من بني عامر، فقال: من هذه العجوز يا عائشة؟ فقلت: إحدى خالاتي. فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة فقال: أن الجنة لا يدخلها العجوز، فاخذ العجوز ما أخذها، فقال: إن الله تعالى ينشئهن خلقا غير خلقهن، ثم قال: تحشرون حفاة عراة غرلا، فقالت: حاشى لله من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: بلى، إن الله تعالى قال ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فأول من يُكْسَى إبراهيم خليل الرحمن)(٢).

ولا أرى منافاة أو تعارضا بين تفسير كلمة خَلْق في الآية بكل شيء أي بكل الخلق: أي السماوات والأرض وما فيهما والناس طبعا. وبين تفسيرها باعادة الناس حفاة عراة غرلا يوم الحشر حسب حديث السيدة عَائشة رضي الله عنها وأرضاها، لأن تفسير الكلمة بالدلالة الأولى العامة يصدق على الناس أيضا، وإستشهاد الرسول ﷺ بالآية في معرض رده على عائشة رضي الله عنها وأرضاها التي استنكرت الحشر عراة حفاة غرلا بدافع الحياء بقولها (حاشى لله من ذلك) هذا الاستشهاد ليثبت لها أن هذا هو الذي سيكون بالنسبة للناس، حيث سيعيدهم الله كما بدأهم سبحانه، وهذا لا يمنع إفاده الآية بأن الله تعالى سيعيد كل شيء كما بدأه سبحانه، وذلك لان الدلالة الخاصة لاتتعارض مع الدلالة العامة بل تدخل فيها.

والمعنى الذي نود الاستشهاد عليه بهذه الآية وما في معناها هو أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق له وأنه سيهلكه وذلك يوم أن يقول عز وجل: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) السيوطي/ الدر المنثور/ جـ٤ ص٣٧٤.

يرد عليه أحد، فيرد سبحانه وتعالى جل شأنه على نفسه قائلا: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وهذا كله دليل دامغ وحجة بالغة على أن الله تعالى هو وحده الحى الباقى الدائم والجن والإنس والملائكة يموتون جميعا بما فى هؤلاء الأنبياء والمرسلون، وكذلك سيد ولد آدم سيدنا محمد ﷺ مات وسيموت أيضا، وستصيبه نفخة الصعق التى لا تبقى بعدها نفس إنسانية أو نفس جنية أو غير ذلك من الأحياء فى الأرض أو فى السماوات إلاً وستصعق وتموت، هذا بالنسبة للأحياء فى الأرض، وكذلك لن تبقى بعد هذه النفخة نفس ملائكية حيَّة، وسيقبض الله تعالى بعدها نفس إسرافيل النافخ للصعقة ، ونفس جبريل وحتى نفس ملك الموت، هذا بالنسبة للأحياء فى السماء من الملائكة فلن يبقى أحد إلا وسيموت.

فماذا بشأن الأحياء الموتى من الشهداء والصديقين والأنبياء الذين هم أحياء عند ربهم يُرزقون؟

هؤلاء أيضا سيصيبهم الصعق.

فكيف يموتون بالصعق وهم أموات؟. الإجابة: يكون هذا الموت بالنسبة لهم بمثابة فقد الوعى بالنسبة للحى، لان شهادة رب العالمين بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون تدل على أن لديهم نوعا من الحياة لا نعرفها، وبالتالى فهم على وعى قوى وشعور بالذات وبالوجود الذى حولهم، فإذا ما أصابتهم صيحة الساعة ماتوا بها، بمعنى أنهم سيفقدون الوعى والشعور بالذات وسيدخلون فى حالة فناء، أى خروجهم عن هذه الحياة البرزخية إلى الفناء التام عن كل شىء، فإذا ما تمت نفخة البعث بعد ذلك، تلك التى سيُحْيِى الله تعالى بها الأموات، فيقومون من قبورهم جميعا، تكون هذه النفخة بالنسبة للذين كانوا أحياء فى برزخهم بمثابة المنبه لهم للإفاقة من الإغماء، أو من فقدان الوعى فيعودون للوعى، أحياءً فى قبورهم ثم يقومون للبعث، ودليل هذا الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه وأحمد بن حنبل (عن أبى سعيد رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لا تُخيِّروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش؛ فلا أدرى أكان فيمن صَعِق أم حوسب بصعقته الأولى؟!!»[1].

(١) أخرجه مسلم : الفضائل باب من فضائل موسى رقم (١٦٠) عن كنز العمال رقم ٣٢٣٧٤.

والشرح: أن رسول الله ﷺ صُعِق مع الناس فلما أفاق من الصعقة وانشقت عنه الأرض وهو أول من تنشق عنه، إذا به يرى موسى آخذاً بقائمة من قوائم العرش الأمر الذى يدل على أنه ربما يكون قد أفاق من الصعق قبله، وربما لم يصعق من أجل أنه سبق له الصعق بصعقة الطور فَجُوزِىَ بها. وشاهدنا فى هذا الحديث، ان الناس يُصعقون وربما أُستُثنِى موسى ﷺ من ذلك، ليس باعفائه من الصعق ولكن بالتعجيل له بعودة الحياة والوعى اليه قبل كل الناس بما فيهم رسول الله ﷺ على أساس أنه حوسب بصعقته الأولى فنقصت مدة صعقته هذه عن غيره بما يساوى زمن صعقته الأولى، فكانت إفاقته من الصعقة الثانية العامة قبل كل الناس بما فيهم رسول الله ﷺ، هذا احتمال أول.

أما الاحتمال الثانى: فانه يكون قد عُوفِىَ من صعقة القيامة تماما.

يدل على هذا بوضوح الحديث الذى أخرجه مسلم أيضا والبيهقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه يُنفخ فى الصور، فيصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ثم يُنفخ فيه أخرى فأكون أول من يبعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدرى أحوسب بصعقة الطور، أم بعث قبلى، ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس إبن متى)[1]. فالاحتمال الثانى أوضح فى هذا الحديث من الذى قبله لقوله عن الاحتمال الأول (أحوسب بصعقة الطور) وقوله عن الاحتمال الثانى (أم بعث قبلى) لأن معنى أن يبعث قبل النبى هو أن يعافى تماما من الصعق.

يوضح هذا الشرح رواية أحمد بن حنبل والبيهقى وأبى داود وإبن ماجة لهذا الحديث عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال (لاتخيرونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأصعق معهم فأكون أول من يُفيق، فإذا موسى باطش من جانب العرش فلا أدرى: أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن إستثنى الله؟!)[2]. فتدبر قوله ﷺ (فأصعق معهم) كيف وهو ﷺ والنبيِّن والصديقين والشهداء أحياء

---

(١) أخرجه مسلم أيضا بنفس الموضع/ ١٥٩ عن كنز العمال رقم/ ٣٢٣٧٣.

(٢) أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة عن كنز العمال رقم/ ٣٢٣٧٥.

فى برزخهم؟ يجيب على هذا السؤال ويوضح كيفية موتهم وهم أحياء عند ربهم يرزقون ويفسره بأنه أشبه بالاغماء للحى قوله ﷺ (فأكون أول من يفيق) ولم يقل فاكون أول من يبعث أو أول من يحييه الله. فالناس الذين ليسوا أحياء عند ربهم يرزقون فى برزخهم حين يحدث نفخة الصعق وهم أموات وليسوا أحياء يكون حالهم حين تَلَقِّيهم الصيحة غير حال الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون، ومن ثم بعد الصعق للجميع يبعث الذين كانوا أمواتا أى تأتيهم الحياة فيصيروا أحياء ويقومون للبعث، أما الذين هم عند ربهم يرزقون فلا نقول تعود إليهم الحياة ولكن يعود اليهم الوعى فتحدث الافاقة ومن ثم قال ﷺ (فاكون أول من يفيق) أى من الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون. ثم يقول عن موسى ﷺ (فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله) وأيضا هى إفاقة بالنسبة لموسى وليست بعثا ولا إحياء.

وشاهدنا من هذا كله أنَّه قبل أن يفَيق سيدنا رسول الله الخاتم ﷺ، فانه لا يكون قبل هذه اللحظة حَيًّا فى الوجود كله إلا الله الحى الدائم الباقى قيوم السماوات والأرض.

أما قوله ﷺ (أو كان ممن استثنى الله) أى من الصعق وليس من الموت أو فقدان الحياة بنوعيها الدنيوية والبرزخية، لانه لو كان ثَمَّ مخلوق حى يستثنيه الله تعالى من الموت فى هذا اليوم لكان رسول الله ﷺ، فلما ثبت أنه ﷺ سيصيبه الصعق ويموت هذه الموتة البرزخية، فانه يكون من الثابت أيضا أن أهل البرزخ الأحياء سيموتون، بيد أن هناك من سيموت بالصعق وهم سائر الناس، وهناك من سيموت بغير الصعق، مثل موسى وهم الذين استثناهم الله تعالى بقوله ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفى الحديث الطويل الذى ذكره ابن كثير فى تفسير آية زلزال الساعة بسورة الحج، وهو الحديث الذى أورده أبو جعفر بن جرير الطبرى بسنده عن أبى هريرة وهو يتناول أحداث القيامة والساعة والبعث هذا الذى جاء فيه [.... ثم يأمر الله عز وجل إسرافيل فيأمرة بنفخة الصعق، فينفخ نفخة الصعق، فيصعق أهل السماوات

والأرض إلا من شاء الله، فـاذا هم خمدوا، جـاء ملك الموت عليه السلام إلى الجـبار تبارك وتعالى فيـقول: يارب قد مات أهل السماوات والأرض إلاَّ من شـئت، فيقول الله عز وجل وهو أعلم: (فمن بقى؟) فيـقول: يارب بقيت أنت الحى الذى لا يموت، وبقى حملة عرشك وبقى جبريل وميكائيل وأنا. فيقول الله عز وجل: ﴿ليمت جبريل وميكائيل﴾، فـيتكلم العرش، فيـقول: يارب تميت جبـريل وميكائيل؟ فيقـول الله عز وجل: (اسكت، انى كتبتُ على كل من تحت عرشى الموت)، فيـموتان، ويأتى ملك الموت عليه السلام إلى الجبار تبارك وتعالى فيقـول: قدمات جبريل وميكائيل، فيقول الله عز وجل، والله أعلم: (فمن بقى؟). فيقول: يارب بقيت أنتَ الحى الذى لا تموت، وبقى حـملة عـرشك، وبقـيتُ أنا، فـيقول الله عـز وجل: (ليمت حـملة عـرشى)، فيموتون.

ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار تبارك وتعـالى فيقول: يارب بقيتَ أنتَ الحى الذى لا تموت، وبقيتُ أنـا. فيقـول الله عز وجل له: أنت خلق من خلقى خلقـتك لما رأيت فمت، فيموت.

فاذا لم يبق إلا الله تبـارك وتعالى الواحد الاحد الصمـد، ليس بوالد ولا ولد، كان آخرا كما كان أولا.

قال: لا مـوت على أهل الجنة، ولا مـوت لأهل النار ثم يطوى الله تبارك وتعـالى السماوات والأرض كطى السجل، ثم دحاها، ثم يُلَقِّفُها، ثم قال: أنا الجبار، ثم هتف بصوته تبارك وتعالى وتقدس: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ثم قال: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ثم نادى (ألاَ من كان لى شريكا فليأت، ألاَ مـن الذى كان لى شريكا؟ ألاَ من الذىَ كان لى شريكا فليأت؟) فلا يأته أحد.....][1].

سبحانك لا إله غيرك ولا رب سواك ولا شريك لك فى ملكك ولا منازع لك فى أمـرك، أنت وحدك الحى القـيوم الذى لا يمـوت وكل ما سـواك يموت. ذلك فـيصل

(١) اورده ابن كثير فى كـتاب (النهـاية فى الفتن والملاحم جـ١ ص٢٧٠ ـ ٢٧٨ تحقيق الاستـاذ محـمد أحمد عبدالعزيز نشر دار التراث الإسلامى/ القاهرة.

التفرقة بين الالوهية والعبودية: الاولية والآخرية لله تعالى وحده، الأولية بمعنى أنه سبحانه سابق على كل ما سواه من الموجودات وبمعنى نفى البدء عنه، كما أن الآخرية تعنى أنه باق بعد كل ما سواه من الموجودات ونفى الانتهاء لوجوده سبحانه، فهو الاول أى لا أول لوجوده فى الزمان، فهو قبل الزمان، وهو الآخر فلا آخر له فى الزمان لأنه سبحانه بعد الزمان، إذ يفنى الزمان وهو الباقى بعد الزمان.

هذا هو الفيصل الأول للتفرقة بين الخالق والمخلوق وهو ما يميز بين الأولية أو الأزلية أو القدم التى للاله وحده سبحانه واجب الوجود وبين الذى وجوده ممكن فهو حادث وهالك وفانى.

لكن لا يمنع هذا بقاء الأرض والسماء بمشيئة الله تعالى، وإن بدّلهما الله تعالى أرضا غير الأرض وسماء غير السماء، لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى مناديا (لمن الملك اليوم..؟) وهذا يدل على بقاء السماوات والأرض الذين هما ملكه سبحانه أو من ملكه عز وجل، فالثابت أن الملائكة والجن والإنس وجميع الأحياء يموتون ولا يبقى حى إلا الله سبحانه وتعالى ويُبْقِى الله السماء والأرض مع تبديلهما لإعدادهما ليوم الدين ، بعد أن يبعث الله تعالى الناس من قبورهم للحساب، فيحشرون على هذه المبُدَّلة، فكل الخلق خاضعون بمقتضى حقيقة المخلوقية لمحدودية الزمن الذى هو أجل كل مخلوق، والله سبحانه وتعالى وحده المتفرد بأنه خالق الزمن وفوق الزمن ومقدر الزمن لخلقه بين بدء وانتهاء فقط لمن يريد سبحانه أن لا يبقيه كسائر الخلق، وبين بدء وانتهاء ثم اعادة لمن شاء سبحانه ان يبقيه إلى المدى الذى يشاؤه عز وجل وهما الثقلان. قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢ ـ ١٣].

وقال تعالى عن خلق الناس ثم إهلاكهم ثم اعادتهم ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] فالبدء والاعادة للناس، يؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ

حقًا إنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤] فدلالة لفظ الخلق فى هذه الآية تَصدق أوضح ما تصدق على الإنس والجن الثقلين اللَّذين يعيدهما الله تعالى إلى الحياة بالبعث ليجزى المؤمنين منهم برحمته وإحسانه، ويجازى الكافرين والفاسقين منهم بعدله أو عفوه.

أما قوله تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩ ـ ٢٠] فهو يصدق على كل الخلق، وليس على الناس فحسب، إذ أن قوله تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟﴾ يدل على ما يشاهده علماء الفلك مما يطلقون عليه مولد نجم والنجم شمس لأن شمسنا هذه ليست سوى نجما، ومولد الشمس خلق جديد، وقد رأوْا هذا ورصدوه وسجلوه علميا، كما أنهم رأوْا ورصدوا وسجلوا فناء نجم أو نجوم متعددة، وعلموا ما يؤول إليه النجم أوالشمس بعد الفناء بما أطلقوا عليه الثقب الاسود، أو الثقوب السوداء، لانها متعددة فى ملك الله تعالى. فهذا بدأٌ للخلق وذاك اعادة له. فهذه تصَدق أدق ما تصدق على عالم الفلك، وتصدق أدق ما تصدق على خلق الشمس والكواكب التى تُدور حولها ومنها الأرض والقمر، وقد توصل العلماء إلى مراحل التفاعلات التى خلق بها الجبار جل جلاله الشمس وما حولها من كواكب وذلك كله بالنظر فى التلسكوب أو المقرب المكبر لما يرصده الفلكيون، والنظر هو الرؤية البصرية، وهذا ما تقرره الآية اذ يقول رب العزة ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ..؟﴾ والرؤية تصدق على الرؤية البصرية التى تتبعها الرؤية العقلية العلمية .

كذلك علم الفلكيون المراحل التى تكونت من خلالها الكواكب حول الشمس فصار بعضها صلبا وبعضها غازيا وبعضها سائلا وبعضها باردا مغطى بالثلج وبعضها ملتهبا حرارة، والأرض يجتمع فيها هذه العناصر جميعا لذلك قال تعالى

بعد إثبات العلم بالرؤية البصرية الفلكية لبدء الله تعالى الخلق وإعادته ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾(١) وذلك بالعلم بجيولوجية الأرض وكيف بدأ الله تعالى خلقها أى مراحل تكون طبقاتها فيمكنكم بهذا العلم استنباط خلق ما فى السماء من كواكب.

ويتحَدَّى الله جل جلاله المشركين أن يجرؤ أحدهم على القول بأن أحد آلهتهم يبدأ الخلق ثم يعيده، إنهم يقرون - رغم عبادتهم غير الله عز وجل - بأن بدء الخلق وإعادته لله تعالى وحده، ومن ثم يُلْزِمُهم بالاعتراف بأنه لا خالق الا الله عز وجل، فعليهم - إن كانوا منصفين - أن يقروا بالحقيقة الكونية ويشهدوا بأنه لا إله إلا الله ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] أى أنَّ الله تعالى هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو الذى يمد المخلوقات بمقومات وجودها ورزقها من السماء والأرض بين الخلق والاعادة، الله وحده يصنع هذا ، ومن ثم فإن الله وحده هو الإله الواحد، ليس معه فى الكون اله آخر، أما الآلهة الأخرى التى يدعونها من دون الله ويعبدونها من دون الله، فهى آلهة مُزَيفة باطلة. فهى لا تخلق ولا تبدىء ولا تعيد ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] فالخلق فى هذه الآية يصدق على كل شىء حسب تفسير ابن عباس رضى الله عنهما. أما فى آيتىْ الأعراف ويونس فالخلق يصدق أكثر ما يصدق على الناس.

وفى سياق سورة الروم لفظ الخلق يصدق على السماوات والأرض والناس وكل شىء أى كل الخلق. قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٥: ٢٧].

(١) آية ٢٠ سورة العنكبوت.

يدل على هذا أنه سبحانه وتعالى بَيَّن فى أول السياق قيام السماوات والأرض بأمره ، ثم خروج الناس من الأرض بدعوته، ثم ذكر تَمَلُّكَهُ سبحانه لكل من فى السماوات والأرض ، ثم ذكر سبحانه أنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض، فلا يشاركه سبحانه أحد فى هذا المثل، لأن كل ما سواه مخلوقٌ له وحده ، ومن ثم فكل ما سواه يجرى عليه قضاؤه سبحانه ببدء الخلق ثم الاعادة إلى ما كان عليه، فكل شىء سواه فانٍ وهو وحده الدائم وكل شىء سواه هالك زائل وهو وحده الباقى جل جلاله.

هذا هو جوهر التوحيد الإسلامى، وأعنى به إفراد الله تعالى بالقدم والبقاء أى الديمومة اللانهائية أزلا أبدا بناء على إفراده بالخالقية، ووصف ما سواه بالمخلوقية التى تستلزم الزوال والفناء والهلاك، بعد انتهاء الاجل المحدد بمشيئته سبحانه وقدره وقضائه، ذلك الذى قدره الله تعالى لكل شىء سواه، إلا أن يشاء الله عز وجل المنَّ على من يصطفيهم من عباده بالبقاء، ولكن لا يبقون ببقاء ذاتى لهم، ولكن يبقون بإبقاء الله تعالى لهم، لانه هو عز وجل هو القادر على كل شىء، الفعال لما يريد.

الفصل السابع

من جوهر التوحيد الإسلامي أيضا وصف الله عز وجل بالكمالات المطلقة وتنزيهه سبحانه عن النقص

لايقتصر التوحيد على إفراد الله بالخالقية ووصف ما سواه بالمخلوقية ومن ثم إفراده تعالى بالأولية والآخرية فحسب، بل من جوهر التوحيد أيضا وصفه سبحانه بالكمالات المطلقة وتنزيهه عن أدنى نقص وأقل عيب، فهو سبحانه له المثل الأعلى في السماوات والأرض، أي أن كل ما كان من الصفات وصفاً كماليا لأي مخلوق في السماوات والأرض، فإن وصف الله تعالى به أولى وأكمل وأتم وأعلى، فله عز وجل الصفات الكمالية على سبيل الإطلاق. إذ باعتبار أنه سبحانه وتعالى الخالق وغيره مخلوق له، فإن كل صفة ثابتة لأي مخلوق وتستوجب لهذا المخلوق الثناء الحسن، فإن وصف الخالق بها أولى، لأنه هو سبحانه الذي وهبه هذا الجانب من الكمال.

وحيث أن مخلوقات الله عز وجل كثيرة ومتعددة في الأفراد والأصناف والأنواع والأجناس ، بل والاكوان أيضا، أي العالمين (جمع عالم) وحيث تتوزع بَيْنَها الكمالات والصفات العليا الموجبة للثناء الحسن وتتفاضل المخلوقات فيما بينها بمقدار ما نال كل مخلوق من هذه الصفات أو الخصائص أو الأحوال الكمالية، حتى يكون أكثرها حيازة وفوزاً بهذه الصفات الكمالية أعلاها قدرا بمعيار تفاضل الخلق

بعضهم على بعض. أى أن المخلوق الحائز لعدد أكثر من هذه الصفات الكمالية يكون أعلى قدراً من الذى يحوز أقل منها، هذه الكمالات الموزعة على الخلق لابد أن يكون وصف الخالق بها جميعا أولى. لأنه هو الذى وهبهم إياها، وفاقد الشىء لا يعطيه، ومعطيه لابد أن يكون غنيا به.

وكذلك فإن كل النقائص والعيوب التى تتصف بها المخلوقات، وكل ما يخجل منه الإنسان ، وكل ما يتنزه عنه، وينفيه عن نفسه، ويشعر بالعار والدونية منه، ويغضب إذا ألصقه غيره به، هو من مضادات الكمالات ونقائض الحسن، ومن ثم فإن تنزيه الخالق عنه أولى، من حيث أنه المعطى للكمال والمانع له، ومن ثم فهو سبحانه برىء من كل عيب منزه عن كل نقيصة متعال عن كل فعل يتبرأ الإنسان منه.

فصفاته كلها عليا وأفعاله كلها حكيمة محكمة وأسماؤه كلها حسنى وكمالاته كلها مطلقة، كذلك تنزهه عن النقص تنزهٌ مطلق أيضا.

ولأسمائه الحسنى دلالاتها على ذاته العلية المتصفة بصفات الكمال المطلق، ولها أيضا دلالاتها على صفاته العليا وكمالاته المطلقة وأفعاله الحكيمة المحكمة.

٤.الصفات العقلية والصفات الخبرية:

وحيث أن العالمين كلها من خلقه وما يحدث فيها من أحداث هى من فعله وما يحدث من هؤلاء الخلق من أفعال وتأثيرات هى بمشيئته وقضائه، فإن النظر فى ملكوت السماوات والأرض ليدل الناظر على بعض صفاته العليا وبعض أفعاله وبعض أسمائه ولا يدل على كل صفاته العليا أو أسمائه الحسنى.

فالتأمل فى صَنْعَة كل مخلوق يدل المتأمل بيقين على أن الصانع قادر وقدير ومقتدر، ويدله أيضا على أنه عالم وعليم وذو علم بما يخلق ويصنع، كما أن المتأمل فى شأن الاحياء بعامة والبشر بخاصة يَتَوصَّل بيقين إلى أن الخالق جل جلاله حى.

وإنتظام الكون ودقة حركة الأجرام السماوية، وتوالى الليل والنهار على عالمنا الذى نعيش فيه بدقة بالغة يدل على أن الخالق سبحانه هو قيوم السماوات والأرض، كما أن تحقيق كل مخلوق الهدف من وجوده يدل على أن الخالق سبحانه حكيم. وعظمة الخلق تدل على أن خالقه عظيم ، وكبر العالم يدل على أنه سبحانه كبير، بل

أكبر من كل شيء وأكبر من العالمين جميعا، ومنح الإنسان السمع والبصر والفؤاد يدل على أنه سميع بصير، ومنحه الكلام يدل على أن سبحانه يتكلم بما شاء كيف يشاء.

ولقد إستدل سيدنا إبراهيم ﷺ إستدلالا فطريا بالنظر فى ملكوت السماوات والأرض على أنه لابد أن يكون لكل ما فى الكون من كوكب وقمر وشمس وسماء وأرض وأحياء وغير أحياء من فاطر لها جميعا ليس هو مثل شيء منها، وليس شيء منها كمثله، ومن ثم رفض ربوبية الكوكب والقمر والشمس وكل شيء مرئى ولجأ إلى خالق كل شيء قائلا: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] لأنه سبحانه القادر مطلقا أى قدرته غير محدودة، وعلمه غير محدود، وسمعه غير محدود، وبصره غير محدود، وقوته غير محدودة، وكذا فى جميع كمالاته سبحانه.

ولكن النظر فى الخلق لا يورث الإنسان علما بكل الصفات والكمالات الإلهية، وإنما يدرك منه بعضها، لأن الكون المخلوق منه ما هو غيبى، كما أن منه ما هو مشاهد، ومن ثم لابد من مصدر آخر لمعرفة ما غاب عنا من صفات الله عز وجل وأفعاله التى يدل عليها عالم الغيب، ولابد من مصدر آخر لمعرفة عالم الغيب.

فلمعرفة صفات الله تعالى التى لايدركها الإنسان بتأمله وتدبره لابد من مصدر خبرى غيبى، اذ لا يمكن للإنسان بعقله ، أى بفكره المحض القاصر، أن يتوصل إلى معرفة جميع صفات الخالق سبحانه، من حيث أن الإنسان مخلوق، وليس له من سبيل للعلم بصفات ربه عز وجل إلا بقياسه على نفسه أو على المخلوق، والخالق سبحانه ليس كمثله شيء من الخلق، ومن ثم يكون العلم بصفاته عن طريق هذا القياس علم غير صحيح.

لذا نجد أن لله تعالى صفات يمكن للإنسان أن يعلمها بتأمله وفكره بالنظر فى الكون وفى نفسه، قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(١)، ويمكن ان نسميها الصفات العقلية أى التى يدركها العقل عن طريق

(١) فُصِّلت / ٥٣ .

قياس الأَوْلَى، وله سبحانه وتعالى أيضا صفات يتعذر على الإنسان أن يدركها ويعلمها بفكره ونظره فلا يصلح حتى قياس الأولى، وهذه الصفات لا نعلمها الا بالخبر، أى بأن يتفضل ربنا علينا فيعلمنا إياها أو بعضها ومن ثم أطلق علماء التوحيد عليها اسم الصفات الخبرية.

أما عن الصفات العقلية فلم يعلمها الإنسان بالقياس العقلى على نفسه بمعنى أنه لو قال: بما أن الله تعالى قد خلقنى حيًا مريدا سميعا بصيرا عالما قديرا متكلما، فانه بالقياس علىّ يكون هو سبحانه حيا مريدا سميعا بصيرا عالما قديرا متكلما، فإن هذا القياس فاسد، ينتج نتائج باطلة عن صفات الله تعالى وكمالاته، لأنه، وإن كان يثبت لله هذه الصفات ،إلاّ أنه يثبتها على غير ما يليق به سبحانه، حيث يلزم منه أن تكون هذه الصفات مثل صفات المخلوق المحدودة القاصرة الضعيفة الزائلة. كما أننا إذا اعتمدنا هذا القياس لزم أن يوصف الاله، جل وعلا، بصفات النقص التى تكتنف الذات الإنسانية، وذات كل مخلوق، حاشى لله سبحانه وتعالى. ومن ثم يبطل أساسا قياس الخالق على المخلوق أو الغاب على الشاهد.

وانما ثَمَّ العلم بهذه الصفات السبع واثباتها للخالق سبحانه بقياس عقلى أيضا، ولكن ليس بقياس الغائب على الشاهد أو بقياس الخالق على المخلوق، ولكن بقياس آخر هو قياس الأَوْلَى الذى نص شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على قاعدته بقوله (قياس الأولى هو أن كل ما هو كمال للإنسان أو المخلوق فوصف الخالق به أولى وكل ما كان نقصا وعيبا للإنسان أو للمخلوق فتنزيه الخالق سبحانه عنه أولى). هذا القياس يسمح باثبات أسماء الكمالات الموصوف بها الإنسان والمخلوقات لله تعالى لفظا، وليس معنى أو دلالة، باعتبار أن المعنى الذى يدل عليه الوصف، إذا كان للإنسان ، فإنه يكون محدوداً، أما المعنى الذى يدل عليه الوصف، إذا كان لله تعالى، فهو مطلق وكمالٌ يليق بجلاله سبحانه، وكذلك بالنسبة لتنزيه الخالق سبحانه عن الصفات التى تُعَدُّ نقصا فى حق الإنسان، ينتج هذا القياس نفيا مطلقا لها عن الخالق جل جلاله.

بهذا القياس توصلنا إلى وصف الله عز وجل بالحياة التى ليس كمثلها حياة لأى كائن حى آخر من حيث أن حياة الله تعالى دائمة أزلية أبدية لا يجوز عليه الموت ولا يجرى على حياته سبحانه التغير أو الفناء أو الضعف، وكذلك علم الله غير محدود أى مطلق لا متناهى أما علم المخلوق فهو محدود وفوق كل ذى عِلمٍ من الخلق عليم، حتى يكون الله سبحانه وتعالى بعلمه فوق كل العلماء من المخلوقين، ولا يوجد مخلوق يوازى بعلمه علم الله سبحانه أو يساويه، بل إن علوم المخلوقين جميعاً فى علم الله تعالى كقطرة فى بحور الأرض كلها أو أقل من قطرة فكيف يكون فوقه سبحانه من هو أعلم منه، هذا محال.

فعلمه سبحانه مطلق لا محدود ولا متناهى ومجموع علم المخلوقين محدود متناهى، وقطرة من بحور فى علم الله تعالى.

وكذا القول فى جميع صفات الله تعالى فسمعه مطلق لا متناهى ولا محدود وبصره مطلق لا متناهى ولا محدود وارادته مطلقة لا يحدها حد ولايرد عليها قيد، وقدرته مطلقة لا يعجزه شىء أو فعل، وهو سبحانه يتكلم إذا شاء لمن يشاء كيف يشاء بما يشاء. وهكذا فى سائر كمالاته عز وجل.

وعلى هذا يكون جوهر التوحيد وصف الله عز وجل بالكمالات المطلقة التى تليق بجلاله وتنزيهه وتسبيحه سبحانه عن كل ما يعتبر من صفات النقص والعيب.

الفصل الثامن

صفات الله تعالى الذاتية الدالة على خصائص الالوهية، وصفاته سبحانه الفعلية الدالة على خصائص الربوبية

وهى الصفات التى يتعذر - إن لم يكن من المحال - على الإنسان أن يعلمها بالتأمل والنظر فى الكون المخلوق، منها على سبيل المثال، صفاته الذاتية سبحانه التى هى له بإعتبار أنه الاله الواحد والموجود الكامل كمالا مطلقا، فخصائصه الذاتية لا يمكن للإنسان أن يدركها بقياس الأولى ولا بأى إستنباط من النظر فى الكون، لأن الإنسان وكذا كل الخلق تنبنى حقيقتهم الوجودية على النقص، لأن وجودهم عدمى، وجوهر الوجود العدمى النقص، ومن ثم لا يصح القياس على الإنسان لمعرفة خصائص الالوهية التى جوهر حقيقتها الكمال المطلق. اللهم إلا بطريق قياس السلب أو قياس النفى، وهو أن يعمد الناظر أو القائس إلى كل نقيصه ثابته للوجود الإنسانى أو وجود الخلق فينفيها عن الله عز وجل. ومن ثم يتوصل إلى بعض الصفات غير الثبوتية(١).

ولكن إذا أردنا معرفة خصائص الألوهية أو الصفات الذاتية التى تخص الخالق سبحانه، ليس من حيث كونه خالقا، ولكن من حيث كونه إلها حتى قبل أن يخلق الخلق، لأنه كان سبحانه قبل الخلق ولا شىء معه، وكان إلها فى ذاته، أى هو الموجود الكامل كمالا مطلقا فى ذاته، وكان قادراً قدرة مطلقة على الخلق، وعلى الفعل، حتى

(١) وهى صفات النفى التنزيهية مثل قوله تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ...﴾.

قبل بدأ خلق هذا العالم الذى نعيش فيه أو بدء العالمين. فكان إلها فى ذاته، وهو بعد الخلق على ما عليه كان.

هذه الصفات الالهية الذاتية التى هى خصائص الألوهية، يَتَعذَّرْ على الإنسان أن يدركها ويعلمها كلها بمجرد النظر العقلى فى الكون المخلوق، ومن ثم لا سبيل إلى العلم بها جميعا إلا بأن يخبرنا الله عز وجل بها، ومن ثم أطلق عليها العلماء الصفات الخبرية، أما الصفات التى يستنبطها المتأمل بالنظر فى الخلق، فقد أطلقوا عليها الصفات العقلية ، فالصفات التى هى لله عز وجل من حيث كونه إلها فى ذاته، حتى قبل الخلق، هى الصفات الذاتية، أما التى له بمقتضى كونه خالقا رازقا فهى صفات الله الفعلية ، أى المنسوبة إليه لأفعاله فى غيره، وهى التى نعلمها بالنظر فى خلقه. فالذاتية هى صفات الالوهية، والفعلية هى صفات الربوبية.

والآيات الأخيرة من سورة الحشر تعرض لنا الصفات العقلية والصفات الخبرية أو بعض خصائص الالوهية وبعض خصائص الربوبية.

قال تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

هذه الآيات الثلاث من آخر سورة الحشر تتضمن تَمْييزًا بين أسماء الله الحسنى سنعرض له فى البنود الثلاثة الآتية: ـ

أ ـ أثبت الله تعالى لنفسه سبحانه فى الآية الأولى الألوهية ونفاها عن غيره (هو الله الذى لا إله الا هو) معرفا نفسه بعد ذلك بأنه عالم الغيب والشهادة (عالم الغيب والشهادة)، فجمع بين علم الغيب الذى هو صفة خبرية لأن الإنسان بالعقل يعجز عن الإحاطة بعلم الغيب أو أن يدرك أن فى الكون عالم غيب، وبالتالى فهو يتعذر عليه إثبات علم الغيب لله تعالى الا بعد علمه بعالم الغيب، وهذا العلم خبرى وليس عقليا، فهذه صفة خبرية لا نعلمها إلا بالخبر ويتعذر بل من المحال علمها بالنظر العقلى الذى لا يكون الا فيما هو مشاهد من الخلق، أما

اثبات علمه للشهادة فهذه صفة عقلية سبق أن أثبتناها من الصفات المستنبطة بالنظر العقلى فى الكون المخلوق، إذ يسلم العقل تسليماً تاما بأن خالق هذا الكون المشاهد لابد أن يكون عالما به علما إحاطيا كليا شاملا كاملا وتفصيليا دقيقا.

فعلمه بالغيب صفة لله خبرية ذاتية، وعلمه بالشهادة صفة له سبحانه عقلية فعلية لأن عالم الشهادة من فعله.

كذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الرحمن اسم علم لله تعالى ويدل على صفة خبرية لله تعالى، فهى ذاتية تخص ذاته عز وجل، ومن خصائص ألوهيته، لا علم لمخلوق بها إلا بالخبر، فهو سبحانه الرحمن سواء أكان معه خلق يرحمهم، أو لم يكن معه، فدلالة اسم الرحمن عامة مطلقة، أما الرحيم فهى صفة فعل، لأنها له بمقتضى رحمته للمؤمنين وللخلق، وهى من الصفات التى يمكن ادراكها بالنظر فى أحوال الأمومة والأبوة فى الأحياء، فهى أيضا مما يمكن إستنباطه من عالم الشهادة، عندما نرى مظاهر الأمومة والأبوة عند الإنسان وعند الأحياء الأخرى، ندرك على الفور أن خالق الأمومة والأبوة أو خالق الأمهات والآباء بما فى قلوبهم من رحمة بالأبناء وبغيرهم لابد أن يكون رحيما، وهذا ما توصل به رسول الله ﷺ مدربا صحابته على النظر فى الخلق لادراك صفة الرحمة كاحدى الصفات العقلية لله عز وجل، عندما رأى المرأة تضم وليدها إلى حضنها وتعطيه ثديها فى حنان بعد أن وجدته بعد ضياعه منها أثناء المعركة فقال لهم (هل ترون رحمة هذه المرأة بإبنها؟! الله أرحم بعباده من رحمة هذه المرأة بابنها). أو ما معناه.

وكذلك صرح ﷺ بأن الله قسم رحمته مائة جزء فانزل جزءاً واحد منها يتراحم به الخلق، وجعل عنده تسعا وتسعين حتى أن الدابة العجماء ترفع حافرها عن وليدها بهذا الجزء من المائة.

إذاً الرحمة التى هى صفة عقلية هى التى يدل عليها اسم الرحيم سبحانه. أما رحمة الرحمن فهى الرحمة العامة المطلقة وهى من صفات الالوهية، أما رحمة الرحيم فهى من صفات الربوبية، فإذا أمعنا النَّظر وجدنا أن «عالمَ الغيب» اسم لله تعالى يدل على العلم الذاتى، وهو صفة خبرية وهو أيضا صفة ذاتية لله عز وجل،

فهو إذا يَخصه بمقتضى ألوهيته عز وجل ، لأن ما كان ذاتيا له كان خاصا بألوهيته، أى من حيث كونه سبحانه إلها فى ذاته بصرف النظر عن وجود خلق معه فى الوجود أم لا.

أما إسم الله تعالى «الرحيم» فيدل على رحمة الله لعباده فهى صفة عقلية مستنبطة من الخلق وهى أيضا صفة فعلية بمقتضى ربوبيته للخلق، لأن ما كان من أفعاله فى غيره سبحانه، فهو خاص بربوبيته لهم أى من حيث كونه ربا لخلقه عز وجل.

ب ـ أما قوله تعالى بعد ذلك فى بقية آيات سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣] فقد جمعت هذه الآية أسماء لله تعالى تدل على صفات ذاتية لله عز وجل ذكرها سبحانه بعد أن أثبت لنفسه إنفراده بالألوهية، ومن ثم فهى أسماء تحمل خصائص الألوهية، أى أن من كانت هذه أسماؤه الملكية والقدوسية وأنه السلام فهو الاله الواحد بحق لا يشاركه فى الالوهية غيره.

ومن ثم قال عز وجل ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لأن واحدا من الآلهة الباطلة لا يتصف بهذه الصفات الذاتية للاله الحق سبحانه، ولا حتى بصفة واحدة، وبالتالى لا يستحق أى مخلوق أياً كان، أن يسمى بأى إسم من هذه الأسماء على سبيل الاطلاق والحقيقة، بالألف واللام الاستغراقية أو حتى على سبيل التنكير من غير الالف واللام، ومن ثم جاء النفى على صيغة التنكير ليكون نفيا مطلقا (لا إله إلا الله).

جـ ـ أما قوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]. فهذه الآية جمعت أسماءً تدل على خَصَائص الربوبية، أى أنه إذا كانت الآية (أ) جمعت بين أسماء الله الحسنى الدالة على الصفات الذاتية والفعلية التى تخص الأولى منها الالوهية والثانية الربوبية، فإن الآية (ب) تضمَّنت ذكر أسماء الله الحسنى التى تدل على الصفات الذاتيّة التى تخص إلهية الله عز وجل، بينما هذه الآية (جـ) تضمنت

أسماء الصفات الفعلية التى تدل على خصائص الربوبية وأفعال الله تعالى فى الخلق ، فاثبت منها ثلاثة ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر، لقوله سبحانه وتعالى ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى التى هذه المذكورة آنفا منها، فهذه الأسماء الحسنى ثلاثة أقسام فى الكتاب العزيز منها ما يأتى دالا على صفات الالوهية مقرونا باسماء دالة على صفات الربوبية مثل ما جاء فى الآية (أ) ومنها ما يأتى فى الكتاب العزيز دالا على صفات للألوهية أو الصفات الذاتية فحسب، وهى الخبرية، ومنها ما يأتى فى القرآن الكريم دالا على صفات للربوبية التى هى صفات الأفعال فحسب، وهى العقلية، ألم تر أنه قال بعد الأسماء الدالة على خصائص الالوهية الذاتية الواردة فى الآية (ب) ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى فى ألوهيته أما فى الآية (جـ) بعد ذكر الأسماء الثلاثة واثبات الأسماء الحسنى له سواء ما يخص منها الالوهية أو ما يخص الربوبية فقد قال ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فاثبت تسبيح كل الخلق له سبحانه، ثم أثبت صفتى العزة، وهى ذاتية من خصائص الألوهية، وصفة الحكمة وهى من صفات الأفعال التى تدل على أنه سبحانه لا يخلق خلقا أو يفعل فعلا إلا لحكمة، فختم بصفة من صفات الالوهية وصفة من صفات الربوبية معا كما بدأ هكذا فى الآية (أ).

الفصل التاسع

صفة الحكمة تنفى عن الله عز وجل العبث واللهو بفعله سبحانه، كما تثبت له الغنى المطلق وتنفى عنه الفقر والحاجة وطلب الفائدة من خلقه

وصف الله تعالى نفسه بالعزة مع الحكمة ﴿.. وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وبالعلم مع الحكمة معا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] وهما صفتان لازمتان للخلق وللفعل كما أن الإرادة والمشيئة مع الاختيار لازمان للخلق وللفعل وكذلك القدرة هى أيضا المقوم الرئيسى الثالث للفعل مع الارادة المختارة، وفى المشيئة والاختيار والإرادة قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] وقال تعالى ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥ ـ ١٦] وفى القدرة قال تعالى: ﴿... أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢].

فإذا كان دور الارادة فى الفعل هو الاختيار أى اختيار إنجاز الفعل من تركه، ودورها فى الخلق التقدير والتحديد والتعيين والتخصيص لما هية المخلوق وجوهره وصورته وأحواله وطبائعه وخصائصه وأفعاله أو تأثيراته وأجله ورزقه وكل ما يتعلق بشأنه وإذا كان دور القدرة هو اتمام الفعل وانجازه أو هو فى الخلق إبداعه ثم إخراجه من العدم للوجود، فما هو دور العلم، وما هو دور الحكمة فى عملية الخلق وما هو دورهما فى عملية الفعل؟

أولا: لكل فعل هدف أو غاية وكذلك لكل خلق هدف أو غاية؟

هذا بالنسبة للفاعل المريد المختار من البشر.. ولوحدث أنْ فعل شخصٌ ما فعلاً ما بلا هدف وبلا غاية، فانه يكون موصوفا بالعبث، ولوحدث أن فَعَلَ شخصٌ ما فعلا حقيرا مزريا لا يليق به، فإن هدفه يكون إما اللهو وإما اللعب.

فاللهو واللعب كلٌ منهما هدف للاهى وللاعب، وان كانا هدفيْن دنيئين يحطان من شأن اللاهى أو اللاعب، أما من فعل بغير هدف فهو عابث، ومن فعل لأهداف دنيئة لا تليق به فهو لاهى أو لاعب.

وعلى النقيض منهما صاحب الغاية العليا والأهداف الجادة من أفعاله، والفاعل العاقل منزه عن العبث الذى يفعل صاحبه بلا هدف أو غاية ومن ثم فتنزيه الخالق الحكيم العزيز عن العبث أولى من تنزيه الإنسان العاقل. وكذلك اللعب واللهو فى حق الإنسان منقصة له وعيب فيه، ومن ثم فتنزيه الله سبحانه وتعالى عن اللهو واللعب بهذا الاعتبار أولى حسب قياس الأولى، ومن ثم نفى الله تعالى عن نفسه العبث فى الخلق والفعْل فقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦] وتنزه وتعالى عن اللعب واللهو بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩] فإذا كان خلق الله للكون والإنسان ليس عبثا، وليس بهدف اللهو واللعب اللذين تعالى وتنزه وتقدس سبحانه عن فعلهما أو إستهدافهما من الخلق، فماذا يكون هدف الله أو غايته سبحانه وتعالى من الخلق؟

بالنسبة للفاعل العاقل من الناس هو حقيقة لا يفعل فعلا بلا هدف وبلا غاية، وكذلك لا تكون أفعاله اللائقة به اللهو واللعب، ولكنه لا يفعل الا لهدف أو غاية تعود عليه منهما فائدة إيجابية أو فائدة سلبية، الفائدة الإيجابية هى جلب نفع يساعد على استمرار حياته فردا ونوعا، والفائدة السلبية هى دفع ضرر يسهم فى إبعاد الموت عنه وكل ما يقرب الموت للفرد وللنوع أيضا.

فهل هذا جائز فى حق الله عز وجل؟ لا، إذ كيف يجوز فى حقه تعالى وهو الحى الذى لا يموت، وهو الغنى الذى لا يعوزه شيء من غيره، ولا يحتاج إلى سواه بل كل السوى من خلقه ومن عطائه وهم المحتاجون إليه وهو الغنى عنهم الغنى المطلق، وهم الفقراء اليه فقرا مطلقا، إذ كيف يعطى خلقه ليأخذ منهم؟! إذاً لا يجوز القول بأن الله سبحانه وتعالى يفعل فعلا أو يخلق خلقا لهدف أو لغاية، ومن ثم يكون هذا من القياس الفاسد ، وليس من قياس الأولى، لأنه هو الخالق القادر الغنى، إذاً لابد أن يكون خلقه وفعله لأمر آخر فما هو؟

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] إذاً هل يجوز القول أن الله تعالى يخلق الخلق لكى يعبدوه، ومن ثم تكون غايته من الخلق أن يعبدوه ويمجِّدوه ويعظِّموه؟ هذا القول أيضا ينسب حاجة الله تعالى إلى خلقه، وإن كانت حاجة نفسية إلا أنها لا تجوز عليه أيضا سبحانه لانها تتعارض مع الغنى المطلق. ومن ثم لابد أن يكون لهذه الآية فهما آخر لا يتعارض مع غنى الله عز وجل، بدليل أن الآية التى بعدها تنفى عن الذهن ما ينزغ به الشيْطان إليه بقوله: إن الله عز وجل فى حاجة إلى أن نعبده ونُمجِّده، إذ قال تعالى فى الآية التى بعدها مباشرة ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧ ـ ٥٨] فإذا كانت عبادة الجن والإنس لله عز وجل ليست لحاجة يريدها الخالق سبحانه منهم، بدليل أنه هو الذى يرزقهم ويطعمهم ويمدهم بأسباب ومقومات وجودهم، فان العبادة التى خلقهم من أجلها لابد ـ إن هم فَعَلُوها ـ أن تعود عليهم هم بالفوائد الايجابية والسلبية فى الدنيا والآخرة... كيف؟

خلق الله تعالى الإنسان وأسكنه هو وزوجه الجنة وقال لهما ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[البقرة: ٣٥] إذاً هو سبحانه قد خلق الإنسان ومَنَّ عليه بأعظم ما مَنَّ به على سائر خلقه من صفات الكمال المخلوقة ثم مَنَّ عليه أخرى حين أسكنه الجنة ينعم فيها بلا مقابل.

لكن هـذا العطاء الالهى للإنسان المتمثل حينئذ فى الجنة كان بلا مقابل باعتباره سكنا وليس باعتباره تمليكا له، قال تعالى ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ..﴾ [البقرة:٣٥] وما كـان على سبيل السكنى لم يكن على سبيل الملك الدائم، فدخـول آدم وزوجه الجنة لم يكن الا منًا من الله تعـالى عليه، ولكـن دوامه فيـها إقـتضى منه أن يثبت أنه جدير بهذا الملك الابدى. كيف يثبت جـدارته له؟ أن لا يقرب شجرة بعينها، إذا أكل منها فسوف يثبت جدارتـه للنزول إلى أرض الحياة الدنيا أى أن الأكل منها دليل على أنه ليس جديرا بالحـياة العليا فى الجنة، ومن ثم يتـرتب على أكله منها النُّزُول إلى دار الفناء، دار الابتلاء.

فإذا مـا نَزَلَ إلى دار الابتـلاء أى الامتـحان، فـإن من يفوز فى هذا الابتـلاء يكون جـديراً بالملك الابدى وبالحـيـاة العليـا فى الجنة يدخلهـا.. ليس على سبـيل السكن المؤقت ولكـن على سـبـيل المـلك الدائم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

والدليل على أن الله تعـالى خلق الإنسـان للابتـلاء بل خلق السمـاوات والأرض والحياة الدنيا للابتلاء قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧] وقوله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] وقـوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢] وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧ ـ ٨].

الدنيـا إذاً امتـحـان، والجن والإنس همـا المتـحنان، فـمنهم من يفـوز ومنهم من يخسر.

والفائز منهم هو الذى يستحق العودة إلى الحياة العليا على سبيل التمليك، وليس على سبـيل السكنى، أى إلى الجنة الباقية الدائمـة، والخاسر سيـخلد أيضا، ولكن فى الجحيم. إذاً الإجابة الدقيقة المباشرة على السؤال:

لماذا خلق الله الإنسان فى الحياة الدنيا هى: للإبتلاء .

على أى سؤال إذاً تكون الاجابة هى قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] على السؤال: ما الذى يجب على الجن والإنس أن يفعلوه ويعملوه فى حياتهم لكى يكونوا من الفائزين فى هذا الابتلاء. الاجابة هى أن يعبدوا الله تعالى ولا شيء غير عبادة الله عز وجل:

إذاً، فأمر الله الجن والإنس أن يعبدوه ليس لفائدة تَعُود عليه هو سبحانه، لأنه هو الغنى وهم الفقراء، وليس لهدف وليس لغاية، بل لأمر هام جاد وحدث خطير جلل هو نجاتهم من الجحيم وفوزهم بالجنة، فامر الله تعالى للإنس والجن بعبادته نصيحة لهم للحصول على الجنة.

إذاً، هل يقَال إن هذا هدف لله تعالى أو غاية له من فعله؟! بالقطع لا.

لقد ثبت لنا أن الله عز وجل منزه عن هذا كله، عن العبث واللهو وعن الهدف الجاد أو الغاية حتى ولو كانت عليا لوصفه بالغنى. فماذا إذاً يوصف خلق الله للإنس وللجن؟! يوصف بالحكمة، فيقال أن الله تعالى حكيم، ومن ثم لا يخلق خلقا ولا يفعل فعلا إلا لحكمة، فالحكمة هى الصفة الذاتية والصفة الفعْلية أيضا التى تنفى عن الحكيم العبث، كما تنفى عنه سبحانه الحاجة لـلفعْل أو طلب الهدف والغاية التى تعود عليه بنفع أو بدفع ضر، وهو سبحانه الغنى مطلقا، وإنما الذى يجوز ويصح فى حقه تعالى أنه خلق ويخلق وسيخلق إذا شاء دائما لحكمة، وقد تكون الحكمة من فعله أو خلقه جلب النفع ودفع الضر، ولكن للمخلوق أى لغيره وليس له، لذا نجد أن صفة الحكمة من الصفات العقلية التى يمكن إدراكها بالنظر فى الكون، وكذلك هى صفة ذاتية لله عز وجل بمعنى أنه حكيم فى ذاته فلا يفعل إلا أفعَالا حكيمة، ولا يخلق خلقا إلا لحكمة.

ومن ثم فهى أيضا من صفات الأفعال الإلهية. قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ

﴿فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١] والشاهد فى هذه الآية لموضوعنا هو أن النظر فى ملكوت السماوات والأرض وإختلاف الليل والنهار يوصل العبد المتفكر إلى آيات أى دلائل وبراهين لأولى الألباب أى لاصحاب القلوب الحية العامرة بالإيمان، فكلما تفكروا فى هذه الآيات وذكروا الخالق سبحانه قياما وقعودا وعلى جنوبهم، أى فى كل أحوالهم يتوصلوا إلى نتيجة واضحة جلية، وهى أن الله لم يخلق هذا كله باطلا أى عبثا أو لهوا أو لعبا، وإنما خلقه لأمر جد هو حق، وهو أيضاً حكيم، هذا الأمر ينتهى بالمؤمن إلى أن الله تعالى خلق كل هذا لابتلاء الناس؛ الأمر الذى يؤول ببعض الناس إلى الخسارة فيكون مصيرهم إلى النار، لذا يكون دعاؤهم ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

إذاً خلق الله تعالى الخلق بالحق ولأمر جد وليس بالهزل، فتعالى جد ربنا علوا عظيما. هذا الجد الذى نهاية الإنسان فيه إلى جنة أبداً أو إلى نار أبداً، فالحكمة من خلق الإنسان من شأن الخالق جل وعلا، ولذلك فهى من الأمور التى يستحيل على الإنسان أن يدركها بعقله أو بفكره أو بتأمله فى الكون، إذ أقصى ما يمكن للإنسان أن يدركه من التأمل فى ملكوت السماوات والأرض هو أن هذا الكون العظيم لم يخلقه خالقه عبثا أو لهوا أو لعبا، وأن هذا الإنسان المخلوق المتميز عن سائر الخلق فى الأرض لم يخلقه الله تعالى عبثا أو لهوا أو لأمر هزل أو لهدف مؤقت بل لابد ان يكون لامر جلل وشأن عظيم وحق، وليس بباطل أى لحكمة، لكن ما هو هذا الأمر الجلل أو هذه الحكمة التى من أجلها خلق الله تعالى السماوات والأرض؟ وهى الابتلاء، فيستحيل على الإنسان أن يدركها بالفعل أو الفكر أو التأمل، لأنها حقيقة خبرية فلابد من مخبر يخبر بها عن الله عز وجل، وهذا يثبت ضرورة النبوة فى الحياة الدنيا لِيَصِح الابتلاء بتوصيل رسالة الله تعالى للإنسان.

الباب الثانى

الإيمان بالنبوة والرسالة من اللوازم الضرورية للتوحيد الإسلامى الخالص

الفصل الأول: الموحد توحيدا صحيحا لابد أن يؤمن بالنبوة

الفصل الثانى: نفى المثلية عن الله واثبات استوائه على العرش وعلوه على كل الخلق يستلزم نفى تلقى البشر عنه مباشرة.

الفصل الثالث: لانه سبحانه رحيم ودود رؤوف بالعباد شاء إرسال الرسل.

الفصل الرابع: إنكار النبوة والرسالة كفر بالله تعالى وشرك به.

الفصل الأول

الموحد توحيدا صحيحا لابد أن يؤمن بالنبوة

ثبت لنا أن الإيمان بالله تعالى أمر لا يشكل قضية أو مشكلة فكرية، ولا يحتاج إلى أدلة عقلية بعد أن ثبت بالقرآن والسنة أنه مركوز فى النفس الإنسانية فطريا، كما أنه ثابت من حالات النفس الإنسانية وواقعها فى حالات الشدة، فالإيمان بوجود إله خالق للكون وللحياة وللإنسان أمر لا يحتاج إلى دليل لا من العقل ولا من النقل، وإن كانت الأدلة العقلية والآيات الكونية والنفسية لاتدل على وجود الإله فقط، بل تدل عليه خالقا قديرا عليما حكيما قويا جبارا عظيما مدبرا، وقبل كل هذا تدل الفطرة على أنه ليس كمثله شيء.

والاصول الإيمانية الخمسة تنبثق من الإيمان بالله عز وجل إنبثاقا مباشرا، سواء على مستوى التصديق القلبى للمؤمن، أم على مستوى الجانب الفكرى والإقتناع العقلى والبناء المنطقى للنسق الاعتقادى الإسلامى. بحيث يمكن القول أن من لوازم الإيمان بالله تعالى ـ حسب عقيدة التوحيد الإسلامية التى كان عليها السلف ـ الإيمان بسائر الأصول الأخرى بعامة وبالنبوة وبالرسالة بخاصة.

وقد علمنا أن عقيدة التوحيد الإسلامية توجب الإيمان بأن الله واحدٌ لا شريك له ولا ند له، وأنه عز وجل موصوف بصفات الكمال اللائقة بجلاله ومنزه عن كل

نقص وعيب ،هذه الصفات العليا التى وصف بها نفسه سبحانه فى القرآن الكريم، ووصفه بها رسوله ﷺ فى السنة الشريفة الصحيحة، كما توجب علينا تأسيس فهمنا لما ورد من صفات الله العليا وأسمائه الحسنى على قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] بلا تعطيل وبلا تشبيه وبلا تمثيل وبلا تكييف.

فاذا كان الإيمان بالله تعالى موجوداً فى نفس صاحبه بحسب ماذكرنا أى مطابقا للتوحيد الإسلامى الخالص، فإنه يؤدى بصاحبه إلى الإيمان بالملائكة وبالكتب وبالرسل فكريا وقلبيا، كما يؤدى كذلك إلى الإيمان باليوم الآخر والقدر.

فليس التوحيد هو مجرد التصريح بأن الاله واحد فقط، حيث أن هذا التصريح وحده تكاد تجمع عليه كل الأديان المخالفة للإسلام المنتشرة فى الأرض، وكلها شركية، بل يجب أن يكون توحيد العبد فطريا، فإذا كان على الفطرة التى خلقه الله عليها، فإنه ينبنى على هذه الحقيقة الفطرية فى نفسه الإيمان بالملائكة ثم بسائر الأركان.

ويتجلى لنا هذا البيان المنطقى للتوحيد بوضوح بمعرفة العقائد والملل المخالفة لعقيدة التوحيد الإسلامية، أى العقائد الشركية التى هى إنحراف عن الفطرة، إذ نجد أنها لا ينبنى عليها أركان الإيمان، أى لا تصلح لكى تكون أساساً فكريا ومنطقيا ومنهجيا تنبنى عليه هذه الأركان، فاليهود يزعمون أنهم لازالوا موحدين، بينما هم قد أشركوا بقولهم عُزير إبن الله، وكفروا بوقوعهم فى التشبيه والتجسيم، ولأنهم وصفوا الاله بصفات المخلوقين التى لا تليق بجلاله بعد تحريف نصوص التوراة. كما كفروا بتكذيبهم الرسل وقتلهم الأنبياء وتطاولهم على الملائكة، ولو صدقوا فى توحيدهم الله عز وجل لما حدث كل هذا منهم، فزعمهم بالتوحيد كذب وبهتان، استلزم منهم فساد فى عقيدتهم فى الملائكة والنبوة. فاتخذوا جبريل عليه السلام عدواً لهم وقتلوا بعض الأنبياء وعبدوا البعض.

والنصارى يزعمون أن الثالوث المعبود عندهم (الاب والابن والروح القدس) ليسوا ثلاثة بل إله واحد. ويعتبرون أنفسهم ـ مع هذا ـ موحدين، فهم يعبدون ثلاثة

ويُصِرُّون على اعتبارهم واحداً . كما جعلوا نبيَّهم المسيح بن مريم عليهما السلام إبنا لله عز وجل.

والهندوسية والبوذية من أديان وحدة الوجود تقوم على تصور إله واحد منبث فى كل شىء فى الكون فتجعل الخالق والمخلوق شيئا واحدا، فيصير - فى هذه العقيدة - الخالق هو المخلوق. ومن ثم يلحدون فى أسمائه وصفاته، ومع ذلك يزعمون أنهم موحدون.

والحقيقة أنَّهُم جميعا مشركون وكافرون وملحدون منحرفون عن الفطرة لأنهم ألحدوا فى صفات الله عز وجل وأسمائه، فمالوا عن الحق الذى أنزله الله تعالى من عنده فى الرسالات السماوية المتتابعة المبيِّنة للناس خلال القرون والأجيال، والموضحة لهم ما يليق بجلال الله تعالى من صفات وأسماء وأفعال، وما لا ينبغى أن يوصف به وما يجوز أن يطلق عليه عز وجل من أسماء، وما لا ينسب اليه من أفعال يتنزه سبحانه عنها.

والالتزام الدقيق بهذا المعتقد - حسب ما جاء فى القرآن الكريم والسنة الشريفة المحققة - هو الذى يعرفنا بربنا عز وجل حق المعرفة، وهو الذى يجعلنا على التوحيد الصحيح والدين الحق. ومن ثم ينتهى بالموحدين أى ذوى الفطر السوية، إلى الإيمان بسائر الأركان والاصول.

يتضح لنا هذا الأمر جليا إذا علمنا أن الهندوس والبوذيين وأصحاب عقائد وحدة الوجود لا يُفرقون بين الخالق والمخلوق، فلا يكون الاله - فى هذه العقائد - مباينا لخلقه، ولا مختلفا عنهم ولا مفارقا لهم بذاته، بل هو فى معتقدهم متحدا بالكون ككل وكأجزاء، بل هو الكون عندهم، ويتضح لنا أن مثل هذا التصور للألوهية يلزم أصحابه بإنكار الملائكة وإنكار الكتب وإنكار الرسل وإنكار اليوم الآخر.

فلتوضيح هذا الالزام الالحادى لعقيدة وحدة الوجود، نقول إن الإله - فى هذه العقيدة - حال فى كل شىء محرك لكل حى من داخله ومُسَكِّنٌ لكل جامد ساكن من داخله لاتحاده به. وهذا يمنع القول بضرورة ارسال الرسل إلى البشر، لأن الاله حال

فى نفس كل إنسان، ومن ثم فهو يحدثه من داخله وعن طريق فكره وقلبه، فلا يكون ثَمَّ موضع فى هذه العقيدة لوجود مخلوقات مثل الملائكة كرسل وجنود للاله، يبلغون رسالته للبشر وينَفِّذون مشيئته وقدره فى الكون.

أى أن منطق هذه العقيدة الفاسدة يقول: أليس الاله حالا فى كل شىء ومُتَّحداً به، بل هو كل شىء؟! فهو إذا المبلغ لرسالته إلى الناس عن طريق الفكر البشرى للعباقرة والمفكرين والعلماء، وهو أيضا المنفذ لقدره فى كل شىء من خلال تواجده فى كل مكان وكل شىء ولذلك فلا داعى للرسل والأنبياء والملائكة، وليس ثَمَّ كتب منزلة من السماء، لان ما يتوصل اليه العباقرة والمصلحون والمفكرون والزعماء من مبادىء ونصائح وقوانين إنما هو نتيجة لتجلِّى العلم الالهى على عقولهم وقلوبهم أكثر من غيرهم من الناس(*).

أما البعث واليوم الآخر، فمن المستحيل ـ حسب عقيدة وحدة الوجود ـ حدوثه أو مجيئة، أى يمتنع عند أصحاب هذه العقيدة قيام الساعة وإنتهاء أجل هذا العالم.

فقيام الساعة ـ حسب عقيدة الإسلام ـ تعنى هدم عمارة الكون القائمة منذ أن خلقها الله سبحانه وتعالى ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾(١). وهو عز وجل يهدمها ليُبَدِّلها بغيرها، قال تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾(٢). ولما كان أصحاب وحدة الوجود يقولون إن الاله متحد بالعالم أو هو العالم ولا شىء غيره، فالعالم إذاً عندهم أزلى أبدى لانه هو الاله، وإذْ لا يجوز على الاله الفناء، فبالتالى لا يجوز هدم العالم وتبديل هيئته أو عمارته، وإلا فنى الاله! وهذا محال فى حقه.

وبعض مذاهب وحدة الوجود التى تُعتبر من أكثرها تنزيها للاله كالمذهب الرواقى اليونانى يعتبر الاله هو النفس الكلية(٣) للكون أو هو العقل الكلى المنبث فى العالم،

(*) ومن يعلن من أصحاب وحدة الوجود تصديقهُ بالبنوة فإنه يفسرها على هذا النحو أى باعتبار النبى أو الرسول هو المفكر المصلح الذى تتجلى الرسالة الالهية فى انتاجه الفكرى وحكمته.

(١) سورة النبأ آية ١٢. (٢) سورة إبراهيم آية ٤٨.

(٣) راجع الفلسفة الرواقية فى كتاب الفلسفة اليونانية/ يوسف كرم. والجزء الثالث من القضاء والقدر للمؤلف.

وهذا يعنى أن القول باليوم الآخر يعنى فناء الاله وهذا يعارض الأزلية الابدية التى يؤمنون بها كصفة للعالم والاله معا باعتبارهما وحدة واحدة. والرواقيون يُثبتون دورات كونية يفنى فيها جسم العالم المادى وتبقى نفسه الكلية.

والنتيجة لكل هذا هى أن فساد تَصور الألوهية يؤدى بصاحبه إلى الكفر بالأصول الإيمانية المبنية على هذا التصور، فينكر بقية الأركان.

ويعنى هذا أيضا أنه لكى يتم التصديق بجميع أركان وشعَب الإيمان المؤسسة على الإيمان بالله تعالى ، ولكى يقوم النسق الاعتقادى الإيمانى فى نفس المؤمن واضحا جليا، ومقنعا، ومترابطا، ومتناسقا تناسقا منطقيا فى عقله، فإنه يلزم أن يكون الإيمان بالله عز وجل موافقا لعقيدة التوحيد الإسلامية المطابقة للفطرة الإنسانية السوية، ومن ثم لا يكون الإيمان به تعالى على سبيل الشرك، كما قال تعالى عن أكثر الناس ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(1) هذا بالرغم من تصريحهم بالتوحيد، مع الاصرار على نفى الشرك عن معتقداتهم وأنفسهم.

ويتحتم علينا الآن أن نَعْرف مبادىء التوحيد التى يلزم عن الإيمان بها الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، لكى يَتَبيَّن لنا كيف ينبنى الإيمان بهذه الاصول الإيمانية الثلاثة على الإيمان بالله تعالى واحدا لا شريك له، وكما وصف نفسه سبحانه فى كتابه وسنة نبيه وبحسب ما نزَّه نفسه عز وجل فى كتابه وسنة نبيه ﷺ.

---

(1) سورة يوسف آية: ١٠٦.

الفصل الثانى

نفى المثلية عن الله واثبات استوائه على العرش وعلوه على كل الخلق يستلزم نفى تلقى البشر عنه مباشرة

نعم، نفى المثلية عن الله عز وجل نفيا مطلقا ينفى تلقى الناس عن الله تعالى مباشرة، وبيان هذا أن الله تعالى كان ولا شىء قبله، فهو الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الآخر الذى ليس بعده شىء، وهذا يعنى أن الله عز وجل كان ولا شىء معه، ثم خلق سبحانه وتعالى كل ما سواه.

فهو الخالق وما سواه مخلوق، وينبنى على هذا أنه لا يماثله غيره ولايشبهه سواه، لأن الخالق لابد أن يكون مختلفا إختلافا مطلقا عن المخلوق، وحيث أن كل ما سوى الله سبحانه وتعالى مخلوق، فإنه يلزم عن هذا إختلاف الله عز وجل عن كل ما سواه، وهذا معنى قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١).

وتثبت هذه الآية الكريمة تنزه الله سبحانه وتعالى عن أن يكون له مثيل أو شبيه أو نظير أو ند أو ضد أو نقيض أو شريك كما اثبتنا هذا من قبل، ومن ثم ينفرد سبحانه فى الكون بذاته وصفاته وأفعاله. فيترتب على هذا أن أفعال الله سبحانه وتعالى مختلفة عن أفعال المخلوقين، وبالتالى تكون صلة الله تعالى بخلقه مغايرة أيضا لصلة الخلق بعضهم ببعض، كما أن إتصاله عز وجل بخلقه بعامة وبالناس بخاصة ليس

(١) سورة الشورى آية: ١١.

من جنس اتصَال الناس بعضهم ببعض، أو إتصَال أى مخلوق بأى مخلوق، كما أن إتصاله بخلقه فى السماء يختلف عن إتصاله بخلقه فى الأرض من الإنس والجن.

ومن ثم شاء سبحانه أن تصل رسالته، ويصل كلامه للناس عن طريق الملائكة والكتب والرسل على النحو التفصيلى الذى سنراه بعد. من حيث أن هذه الكيفية لاتصال الله بالإنس والجن هى التى تليق بجلاله سبحانه.

وأيضا فإن إستواء الله عز وجل على العرش وعلوه سبحانه عليهم علو مكانة وعلو وجود وعلو صفات وأفعال وهيمنة ألوهية وربوبية تمنع تلقى الانس والجن من الله تعالى تلقيا مباشرا.

فقد أثبت الله سبحانه وتعالى إستواءه عز وجل على العرش فى مواضع متعَددة من القرآن الكريم، نأخذ منها على سبيل المثال قوله جل وعلا ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

وقوله تعالى ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾(٢).

وكما هو مذهب السلف فى فهم آيات الصفات فإن الاستواء لغة معلوم، ولكن حقيقة أو كيفية استواء الله تعالى على العرش لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

ومن ثم نثبت لله عز وجل استواءاً يليق بجلاله ونثبت له العرش الذى يعلو السماوات العلى، وهذا يلزم باثبات العلو المطلق لله سبحانه وتعالى فهو الظاهر الذى ليس فوقه شىء ، وينفى عنه الجهة كونه سبحانه وتعالى أيضا الباطن الذى ليس دونه شىء. فهو بكل شىء محيط مع استوائه على عرشه. قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ [فصلت/ ٥٤] وقال تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء / ١٢٦].

(١) سورة الأعراف آية ٥٤. (٢) سورة طه من آية ١ ـ ٨.

وعلى هذا فإننا وإن كنا لا نخوض فى حقيقة إستوائه أو كيفيته سبحانه وتعالى. كما لا نشبِّه ولا نمثل إستواءه عز وجل باستواء المخلوقين، إلا أنه يلزم من إثبات إستواء لله يليق بجلاله، إثبات العلو المطلق لله عز وجل على الخلق أجمعين مع معيته لهم، أى على كل ما سواه فنؤمن أن الله تعالى على العرش، وأن العرش يعلو السماوات وأن السماوات تعلو الأرض وأنه استوى على عرشه وهو أيضا محيط بكل شيء ومعنا أينما كنا، ودليل العلو قوله جل وعلا ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾(١). فأثبت أنه كبير أى أكبر من الكون المخلوق، كما أثبت أنه متعال عن كل شيء أى عن كل مخلوق، حتى العرش قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾(٢). وهذا العلو ليس علوا مكانيا جهويا كما يتوهم البعض وإنما هو علو هيمنة وقوة وسيطرة وسطوة وتنزه وتقدس عن النقص والعيب والعجز وعن كل الدنايا.

إستواء الله على عرشه ومعيته لخلقه

من التوحيد الخالص الإيمان بعلو الله عز وجل وإستوائه على عرشه ومباينته لمخلوقاته وبتنزهه عن الحلول ووحدة الوجود، مع قربه منهم وثبوت معيته لهم بالغيب.

فكونه، جل وعلا، أعلى وأكبر من كل ما سواه، يفيد العلو مع نفى الجهة عنه، وقد ثبت أن الله تعالى يصف نفسه بهاتين الصفتين مقترنتين كما هو واضح من الآيتين السابقتين ومن قوله جل وعلا ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً﴾(٣) فالعلو علو كما لى وليس علو جهة، وعلو مكانة وليس علو مكان لان البعض يتوهم أن اثبات العلو لله عز وجل وإستوائه على عرشه يؤدى إلى القول بأن الله تعالى فى جهة، بحجة أن الفوقية جهة، ولكن هذا غير صحيح، لأنه إثباتٌ للعلو مع كونه سبحانه أكبر من كل شيء سواه، أى أكبر من كل الخلق، وهذا معنى الشعار الإسلامى «الله أكبر» حيث أن وصف الله تعالى بهذه الصيغة والأمر بتكرارها فى الآذان وفى الصلاة وفى كل مناسبة وفى الذكر، أقول: هذا الوصف يفيد اللانهائية

(١) سورة الرعد آية ٩.
(٢) سورة النساء آية ٣٤.
(٣) سورة الإسراء آية: ٤٣.

واللا محدودية فى الكبر، وتوحى هذه الصيغة بمنع التوقف عند حد فى وصف الله بالكبر. فكل ما يخطر على ذهن العبد فهو بخلافه وهو أكبر منه سبحانه، وهذا الوصف لله تعالى على سبيل الاطلاق لا يحده شيء. ومن ثم فلا شبهة نتيجة وصفه بالعلو على خلقه من وصفه بالمكانية المحدودة، لانه سبحانه وتعالى أكبر من كل مخلوق، والمكان من خلقه فهو ليس محصوراً فى جهة معينة ولا فى مكان محدود، لأنه الظاهر الذى ليس فوقه شيء فهو الأعلى، وهو أيضاً الباطن الذى ليس دونه شيء فهو الاقرب لكل شيء من جوهره، فهو ليس فى جهة ولا مكان، بل هو بكل شيء محيط فهو الأكبر وكونه الأكبر مطلقا وكونه الأعلى مطلقا وكونه بكل شيء محيط يستلزم أنه ليس حالا فى شيء مخلوق وليس متحدا بالعالم أو بالكون لا جزئيا ولا كليا. فلا حلول ولا وحده وجود، ولا تماس بين الله وخلقه ولا التصاق بينه وبينهم فى عقيدة الإسلام ،كل هذا بمقتضى آيات الاستواء والمعية مع العلو ومع كونه أكبر من الكون المخلوق كله وأكبر من كل شيء على حدة(*).

ومع أنه ليس حالا فى شيء من خلقه، وليس متحدا مع الكون المخلوق ـ كما يزعم أصحاب وحدة الوجود ـ ومع هذا فهو عز وجل قريب يجيب دعوة الداعى سميع لكل مسموع وبصير بكل مرئى ومُحْصى لكل معدود وعليم بكل معلوم قال تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

فهو عز وجل معهم بعلمه ورقابته وبتأييده ونصره للمؤمنين دون أن يكون حالا بشيء من مخلوقاته وهو على كل شيء قدير.

(*) نقصد بنفى الجهة عنه أنه سبحانه ليس متحيزا فى مكان محدود ولكن لا يمنع هذا ان نتوجه بالدعاء إلى القبلة ايمانا أنه أعلى من كل شيء. كما اننا ندعوه أثناء سجودنا له مؤمنين أنه يكون إلينا أقرب حين السجود كما أخبرنا النبى ﷺ.

(١) سورة المجادلة آية ٦، آية ٧.

ومع أنه سبحانه إستوى على عرشه فهو بائن عن خلقه ليس حالا فى شىء ولا فى أحد، فإنه عز وجل قدير على كل شىء، متحكم فى كل حدث، مهيمن على الكون كله، محى لكل حى، ومميت لكل ميت، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(١).

فهو سبحانه أقرب للمخلوق من غيره ، وهو بكل شىء محيط، فإذا أراد الله تعالى أن يبلغ رسالته للإنسان، فهل يتم الله هذا بالمخاطبة المباشرة؟

وبتعبير آخر هل يخاطب الله الإنسان باعتباره نوعا أى كل الناس برسالته مباشرة؟، أم هل يكلم الله تعالى كل فرد من أفراد البشر مبلغا رسالته له على حدة؟

لو شاء الله هذا أو ذاك لكان، لأنه على كل شىء قدير، ولكن ضعف البشر بالهيئة التى خُلقوا عليها فى الدنيا لا تمكنهم من التلقى المباشر من الله عز وجل من ناحية، ثم إن هذا يتعارض مع تحقيق الابتلاء، وهو الحكمة التى من أجلها خلق الله الإنسان من ناحية أخرى.

فليس لسائل أن يسأل: هل يكلم الله تعالى الناس جميعا فى وقت واحد مبلغا رسالته بنفسه سبحانه لهم لكى يؤمنوا به، ويعلموا منه ما يفوزون به فى إبتلاءاتهم؟.. فكيف يتحقق الابتلاء إذاً؟! وهم يسمعون مباشرة من الله عز وجل؟! إن هذا يتَعارَض مع حقيقة الابتلاء أيضا، إذ لابد أن يؤمنوا بالغيب.

ثم هل يمكن للناس أن يَروْا الله جهرة ويسمعوا منه سبحانه وتعالى من غير حجاب فى حياتهم الدنيا؟!

إن هذا غير جائز فى الحياة الدنيا، لأن الله تعالى خلق الدنيا للابتلاء، وكذلك خلق السماء والأرض وما فيهما من نواميس كونية أو سنن إلهية فى الطبيعة وفى مجال الحياة والموت وفى مجال القوانين الحاكمة لوجود كل شىء، أقول: جعلها كلها محققة لامتحان البشر واختبارهم، ومن ثم اقتضت حكمة الله تعالى ـ تحقيقا للابتلاء أن يؤمن من يريد الإيمان بالغيب.

(١) سورة الأنعام آية ٩٥، ٩٦.

عن أبى موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال (ان الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يُرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور - وفى رواية أبى بكر: النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما إنتهى إليه بصره من خلقه)(١) ومعنى سبحاتُ وجهه: نوره وجلاله، وبهاؤه.

وهذا ما حدث للجبل لما تجلى الله عز وجل له قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

قال ابن كثير فى تفسيره [«قال سبحانك» تنزيها وتعظيما واجلالا أن يراه أحد فى الدنيا إلاَّمات وقوله «تُبتُ اليك»، قال: مجاهد: أن أسألك الرؤية وقوله «وأنا أول المؤمنين»: أنه لا يراك أحد، قال أبو العالية: أنا أول من آمن بك أنه لايراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة، وهذا قول حسن له إتجاه](٣).

ومن ثم يمكن القول أنه تحقيقا للابتلاء فإن الله تعالى خلق البشر بطبيعة وكيفية تستحيل معها رؤيتهم لربهم عز وجل فى الحياة الدنيا، ولا يسمعون كلامه مباشرة، لكنه سبحانه وتعالى يتجلى لهم ويكلمهم فى الآخرة بدون حجاب لأنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان فى الآخرة لحكمة أخرى وهى النعيم للمؤمنين ومن ثم سيبعث الله تعالى المؤمنين بهيئة وكيفية وخصائص تمكنهم من رؤية ربهم عز وجل والتلقى المباشر منه. قال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٤).

لذلك كله أنزل الله تعالى رسالاته بإرسال الملائكة لرسل البشر، وهذه هى الكيفية

---

(١) كتاب الإيمان باب معنى قوله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى/ الجزء الثالث من شرح النووى لصحيح مسلم ص١٢ طبعة دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان - الطبعة الثانية.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى المجلد الثانى ص٤٨، ٤٩ طبعة دار القرآن الكريم بيروت.

(٤) سورة القيامة آية: ٢٣.

الأولى لا نزال الرسالة، أما الثانية فهى أن يكلم الله تعالى الرسول البشر من وراء حجاب، كما فعل عز وجل مع كليمه موسى عليه الصلاة والسلام، وليس هذا الحجاب إلاَّ لضعف البشر، وإنما الله على كل شىء قدير، أما الثالثة فهى أن يقذف المعنى فى روع النبى وحيالا شك فيه.

قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(١) أى أن البشر ليس فى مكنتهم التلقى من الله عز وجل إلا من خلال هذه الطرق، وقوله تعالى «وما كان لبشر» دليل على أن الله عز وجل قادر على أن يكلم من يريد كيف يشاء، إلا أنه سبحانه وتعالى، لأحوال وخصائص وصفات البشر فى الحياة الدنيا، يكلمهم بهذه الكيفيات الثلاث حيث لا يتحملون أو لا يستطيعون التلقى منه تعالى إلا بها: وحّيًا أو بكلام من الله تعالى مباشر ولكن من وراء حجاب أو عن طريق ملك الوحى جبريل عليه السلام. وهذا للأنبياء والرسل فقط.

جاء فى تفسير إبن كثير لهذه الآية الكريمة [هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا، فتارة يقذف فى روع النبى ﷺ وحيا لا يُتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب».

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أى كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحُجب عنها، وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبدالله رضى الله عنهما: «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً» كذا جاء فى الحديث وقد قُتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ والآية إنما هى فى الدار الدنيا.

أما قوله عز وجل ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه

(١) سورة الشورى آية ٥١.

الصلاة السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.(إنه عليّ حكيم) فهو عليٌّ عليم، خبير حكيم][(١)].

ومما لاريب فيه أن وصف الله عز وجل بالعلو والحكمة فى هذا المقام له صلته الوثيقة بالإيمان بالكتب والرسل، كما سبق أن ذكرنا أن الاستواء والعلو وإحتجاب الله عز وجل بذاته العلية عن خلقه بحجب من نور كما ورد فى الحديث. كل ذلك يوجب الإيمان والتصديق بالملائكة كرسل لله عز وجل لرسل البشر والتصديق برسل البشر كأفراد يصطفيهم الله عز وجل لينزل عليهم كتبه ورسالاته، لأنه وهو العلى خلق الخلق فى الدنيا لحكمة الابتلاء، والابتلاء يستتبع إحتجاب الله عز وجل عن الناس، حتى يعلم من يؤمن به بالغيب ممن هو فى شك من أمره.

فعن الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث غيبتهن عن عبادي، لو رآهن رجل ما عمل بسوء أبداً:

- لو كشفتُ غطائى فرآنى حتى إستيقن، ويعلم كيف أفعل بخلقِى إذا أَمتُّهم.
- وقبضت السماوات بيدي، ثم قبضتُ الأرضين ثم قلتُ: أنا الملك، من ذا الذى له الملك دونى، فأُريهم الجنة، وما لهم فيها فيستيقنوها وأريهم النار. وما أعددتُ لهم فيها من كل شر فَيَسْتَيْقِنُونَها ولكن عمداً غيبتُ ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون؟ وقد بينته لهم».[(٢)]

وبهذا ينتفى أن يكلم الله تعالى الناس جماعيا، كما ينتفى أن يكلمهم كل على حدة، وقد رد الله تعالى على المشركين المعاندين الذين كذبوا رسول الله ﷺ فى مكة بقوله عنهم ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]. أى يريد كل منهم أن يكون رسولا، ويتلقى الكتاب كما يتلقى النبى ﷺ وهذا ينافى الابتلاء، كما أنه لا يليق بجلاله سبحانه.

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى ص٢٨٣.
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير.

فكيفية وصول الرسالة الربانية إلى الناس لابد أن تكون مناسبة لقوى الناس وامكانياتهم البشرية الضعيفة، فهم فرادى وجماعات لا يصلحون للتلقى المباشر من الله عز وجل إلاَّ وحيا أو من وراء حجاب أو بارسال رسول واحد لكل أمة يكون هو واسطة بين الرسول الملاك جبريل وبين قومه أو بين الله عز وجل الذى يكلمه من وراء حجاب وبين قومه، أو أن يتلقى الرسالة بطريق الرؤيا المنامية الصادقة الواضحة الجلية ثم يبلغها بعد يقظته إلى قومه، ومن طرق الوحى أيضاً أن يكون بالنفث فى الروع.

فالرسول الواحد أو النبى الواحد، يرسله الله تعالى إلى قومه جميعاً، لأن مهمته التبليغ، وبيان التطبيق، ليكون لهم أسوة حسنة فى الفعل، ومن ثم لا يصلح لهم أن يؤتى كل منهم صحيفة منشرة تخصه وحده، كما طلب كفار قريش.

ومن ثم فَمَنْ آمن بالله تعالى وبصفاته العليا وأسمائه الحسنى كما وردت فى القرآن الكريم والسنة، إيمانه هذا يلزمه أن يؤمن بأن لله تعالى رسلا من البشر ينذر بهم ويبشر بهم ويهدى بهم أقوامهم.

وهذا يعنى أن إنكار النبوات وإنكار الملائكة يؤدى إلى نفى صفات الكمال والجلال التى وصف الله تعالى بها نفسه ولزم عنها ارسال الرسل والأنبياء.

كما أن نفى هذه الصفات أو تعطيلها يلزم عنه عقليا إنكار النبوات.

ومن ثم يكون الكافر بالملائكة وبالكتب وبالرسل كافراً بالله عز وجل.

الفصل الثالث

لأنه سبحانه رحيم ودود رؤوف بالعباد شاء إرسال الرسل

فمن عناية الله تعالى بخلقه ورحمته بهم ارسال الرسل وبعث الأنبياء، إذ من صفاته أنه رحمن رحيم ودود حنان منان. وأنه رؤوف بالعباد: وهو كريم يريد لعباده الخير، والخير فى فوزهم فى الابتلاء ليفوزوا بالجنة التى أعدها لهم متفضلا عليهم بها خالدين فيها أبدا، ولما كان الفوز فى الابتلاء لا يتحقق إلا بعبادة الله وحده لا شريك له فلابد إذاً من هداية ربانية تخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه.

فقد اقتضت رحمته وكرمه وتفضله على عباده، ورفعا للظلم عنهم، ومنعا لإحتجاجهم بالجهل والضلال، أن يرسل لهم الله تعالى الهدى الذى يهتدى به الذى يستجيب لربه ولعبادته وحده، فيفوز فى الابتلاء، وأن يضل من لا يستجيب للهدى الربانى فيخيب ويخسر دنياه وآخرته، وهذا هو جوهر معنى الابتلاء.

قال تعالى لآدم وزوجه بعد معصيتهما فى الجنة وَقَدْ بَدَا منهما - بهذه المعصية - أهليتهما وأهلية البشر للحياة بدار الإبتلاء ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]. فنزول الإنسان لدار الابتلاء تبعه - لكل ما تقدم - نزول الهدى الالهى، سيما وقد أصبح الإنسان مُستهدَفا لوسوسة وإضلال إبليس وجنوده مما جعله أشد إحتياجا للهدى المنزل من ربه، حيث

(١) البقرة آية ٣٨.

تكون غاية الابتلاء وحقيقته متمثلة فى إختيار الإنسان واتباعه للنور النازل إليه من ربه، أو رفضه للهدى الإلهى وإتباعه للطاغوت وسبيل الفجور قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

ومن ثم شاء الله عز وجل ـ رحمة منه بنا ـ أن تكون رسالته للإنسانية هادية مُبيِّنة مفصِّلَة لا قامة حجته البالغة علينا. وذلك بتوصيل قوله عز وجل لنا بلغتنا مفصلا واضحا ميسرا.

فأنزل سبحانه وتعالى رسالاته فى كتبه للإنسانية متتابعة منذ أول عهدها بالحياة الدنيا إلى آخر الكتب المنزلة وهو القرآن الكريم، فالإيمان بالكتب المنزلة قبل القرآن واجب على سبيل الاجمال أى أن يصدق المؤمن بأن سنة الله تعالى فى خلقه هى إنزال رسالاته وكتبه من السماء هداية لهم.

قال تعالى لآدم وزوجة بعد معصيته فى الجنة ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

فهدى الله تعالى ينزل من السماء دَوْماً منذ أول عهد البشرية بالأرض إلى آخر ما نزل وهو القرآن الكريم.

وكما أوجب القرآن الكريم الإيمان به وإتباعه للاهتداء أوجب الإيمان بما أنزل من قبله أيضا قال تعالى فى أول سورة البقرة وهى السورة الثانية بعد فاتحة الكتاب ﴿الم ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

أثبت سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم هو رسالته تعالى وكتابه للناس، فلا يهتدى منهم إلا من آمن به منزلا على رسوله ﷺ، وكذلك من آمن بما أنزل على رسل الله السابقين من قبله، أى الإيمان بما نزل من السماء من كتب جملة والإيمان بما نزل فى القرآن الكريم كله تفصيلا.

(١) البقرة آية: ٣٩. (٢) سورة البقرة آية ٣٨. (٣) سورة البقرة آية من ١ ـ ٥.

ومع هذا فإن الرسالة السماوية اختلفت فى كيفية نزولها. ووصولها إلى البشر على أوجه وبعدة طرق، حسب ما تقتضيه الحكمة الالهية فى النزول، وحسب ما يشاء الله تعالى تحقيقا لمراده وتوصيلاً لقوله وهديه للناس. ولعل ذلك لاختلاف ظروف الأمم وثقافتهم وأموالهم وأساليبهم فى التحصيل. وهذا من رحمة الله تعالى ورأفته بالعباد.

فسمّى ما أنزل على إبراهيم عليه السلام صحفا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾(١) وجاء فى تفسير الطبرى: أن الصحف جمع صحيفة، وانما اطلقت على كتب إبراهيم(٢) وسمى الكتاب الذى أنزله الله تعالى على موسى التوراة ومفردها بالعبرية «تورة» ومعناها شريعته ووحيه وجمعها بالعبرية ثورات ونوريات وهى أسفار موسى الخمسة أو العهد القديم(٣).

كذلك سماه الله تعالى الفرقان فى قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٤).

وأطلق الله تعالى على كتاب داود الزبور فقال: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] وأطلق على كتاب عيسى الانجيل فقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ.....﴾ [الحديد/ ٢٧]

وأنزل الله تعالى كتبا أخرى على بنى إسرائيل مثل سفر أشعياء وسفر أرمياء وحزقيال ودانيال وغيرهم كثير عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وهذه الكتب جميعا وعلى رأسها القرآن الكريم المهيمن عليها جميعا نزل كل منها باحدى الطرق الثلاث: إما وحيا أى بالرؤيا المنامية كفلق الصبح، وإما يكلم الله الرسول من وراء حجاب كما كلم موسى ﷺ وإما بإرسال الرسول الملك جبريل فيوحى باذن الله ما يشاء كما نزل القرآن الكريم.

(١) الأعلى: ١٨ ـ ١٩. (٢) تفسير الطبرى جـ١٥ ص١٥٩
(٣) المعلم بطرس البستانى محيط المحيط ص٤١٣ مكتبة لبنان ١٩٧٩م.
(٤) البقرة: ٥٣.

الفصل الرابع

انكار النبوة والرسالة كفر بالله تعالى وشرك به

الإيمان بالله تعالى واحدا لا شريك له فى صفاته وأفعاله وملكه وأمره يوجب الإيمان بالرسل، ومن ثم فإنكار الرسل كفر بالله عز وجل، وشرك به.

إذ مما سبق تبيَّن لنا أن الذين ينكرون النبوة، ويرفضون التصديق بأن الخالق جل وعلا قد شاء أن يرسل رسلا وأنبياء لعباده، هم في الحقيقة وفي واقع نفوسهم لا يؤمنون بالله الحق، وإنما يؤمنون بالخالق على سبيل الشرك فهم كافرون بالله تعالى، لان انكار عناية الله تعالى بخلقه والقول بأنه خلقهم ثم تركهم سُدَى هو وصف الله تعالى بما يجب أن يُنَزَّه عنه من العبث واللهو بالعباد.

قال تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾(١).

فالإيمان بالله تعالى حق الإيمان يستلزم الإيمان بالرسل والكتب، كما أن الكفر بالرسل والكتب كفر بالله تعالى ، أى أن التَّفْريق بين ركن الإيمان بالله وركن الإيمان بالرسل هو كفر بالله عز وجل، حتى لو صرح هذا المنكر للرسل بأنه مؤمن بالله سبحانه.

---

(١) الأنعام: ٩١.

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾(١).

فقوله تعالى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى يفرقوا بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل، وهذا الصنف من الناس موجود قديما وحديثا أمثال البراهمة الهندوس وأصحاب وحدة الوجود وبعض العلمانيّين المعاصرين.

فهؤلاء يثبتون الالوهية ويقرون بأن طبيعة الإنسان تقتضي الإيمان بالخالق، ولكنهم فى نفس الوقت لا يريدون الاستسلام لله تعالى والانقياد له بالطاعة، ومن ثم فهم ينكرون الرسل، لان الرسالة الالهية المنزلة من عند الله تعالى إلى البشر تلزمهم بالحياة وفق منهج العبودية الذى يرسمه لهم خالقهم، فهم يريدون ارضاء نزعة الإيمان الفطرية بالخالق فى نفوسهم من ناحية، مع الانفلات من منهج العبودية لله تعالى، هذا المنهج الذى يلُزمهم بترك حياة الهوى والفسق من ناحية أخرى، وهم يظنون أنهم بذلك قد اتخذوا بين سبيلىْ الإيمان والكفر سبيلا ثالثا.

ولكن الحقيقة أنهم لم يتعدوا نطاق الكفر، اذ هم فى حقيقة الكفر وعمقه. قال تعالى عنهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ قال القرطبى فى تفسير هذه الآية موضحا علة كفر هؤلاء [... وإنما كان كفراً لأن الله فَرضَ على الناس أن يعبدوه بما شرعه على السنة الرسل، فاذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من إلتزام العبودية التى أُمروا بالتزامها](٢). وهذا معناه إنكار ألوهية الخالق عز وجل وإنكار استحقاقه للعبادة، وهذا هو الكفر بعينه وهذا ما كان من البراهمة والعلمانيين وكل منكرى النبّوة بعامة.

(١) النساء: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) تفسير القرطبى/ جـ٦ ص٥.

الباب الثالث

الحكمة من إرسال الرسل وبعث الأنبياء

الفصل الأول: ابتلاء الناس بالنبيين وابتلاؤهم بالناس

الفصل الثاني: ليكونوا أسوة للمؤمنين فى جميع الأحوال والابتلاءات فى الحياة الدنيا

الفصل الثالث: لإبطال إحتجاج الكافرين والعصاة وإقامة الحجة البالغة عليهم يوم الدين

الفصل الأول

ابتلاء الناس بالنبيين وابتلاؤهم بالناس

علمنا مما سبق أن الله تعالى خلق الخلق والإنسان لحكمة عـالية لأنه سبحانه حكيم فخلقه لحكمة جليلة. وهى ابتلاؤه أى إمتحانه وإختباره قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(١).

وقال تعـالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٢) وقال تعـالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٣) وقال تعـالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(٤) .

وهذا يعنى أن الله تعالى خلق الإنسـان فى الحياة الدنيا للابتلاء والإختبار وأعطاه حرية وإختـياراً، ومن ثم يترتب على هذا كله أن الله عزوجل لن يتـرك الإنسان سدى بدون مرشد ومعلم وهادى يدله على طريق الفوز فى الابتلاء، لأنه سيجازى المحسن بالجنة والمسيء بالنار فى الآخرة التى هى دار الجزاء والقرار.

(١) سورة الأنبياء آية ١٦، ١٧.
(٢) سورة هود آية ٧.
(٣) سورة الملك آية ٢.
(٤) سورة الإنسان آية ٢.

وتعتبر حقيقة الابتلاء هى الحكمة العليا والأعم التى تندرج تحتها جميع التعليلات الفرعية، إذ تنبثق منها الحكمة من خلق كل نوع من أنواع المخلوقات، وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(١) فالابتلاء هو التعليل الأعم الأشمل لخلق الكون كله. السماوات والأرض لأنهن مخلوقات لإبتلاء الإنسان، حسب آية سورة هود آنفة الذكر، لذلك شاء الله تعالى أن يرسل الرسل ويبعث الأنبياء للناس فى كل جيل وكل أمة ليبتلى العباد بهم ويبتليهم بالعباد.

ذلك أن جوهر الابتلاء يكمن فى حقيقة التكليف امتحانا وإختبارا بما يتضمنه التكليف من أوامر ونواهى شرعية ليميز الله تعالى الخبيث من الطيب، ومن ثم فإن الله تعالى يبتلى الأنبياء والرسل كما يبتلى الناس.

[عن الصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أى الناس أشد بلاءً؟

قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فان كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة](٢).

وعن أبى سعيد الخُدْرى أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو يوعك فوضع يده على رسول الله ﷺ فوجد حَرَّهُ بين يديه فوق اللحاف فقال: يا رسول الله ما أشدها عليك قال: «إنَّا كذلك يُضَعَّف علينا البلاء ويضعف لنا الأجر». قلت: يا رسول الله، أى الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة التى يحويها وإن كان أحدهم ليفَرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء»](٣).

---

(١) هود/ ٧.

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح، ورواه أحمد فى مسنده. ورواه ابن ماجة. وذكره الألبانى فى الصحيحة برقم ١٤٣.

(٣) رواه ابن ماجة. ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى. وذكره الألبانى فى الصحيحة برقم ١٤٤.

والدليل على أن الله تعالى بعث الأنبياء ليبتلى بهم كما بعثهم ليبتليهم بأقوامهم قول الله عز وجل فى الحديث القدسى لرسوله ﷺ «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك»(١).

ولذلك يجد المتأمل فى سيَر الأنبياء والرسل أنهم نماذج للابتلاءات بأنواعها، ابتلى الله تعالى كل نبى بأنواعٍ شتى من الابتلاء وفى نفس الوقت تميَّز كل نبى بنوع معيَّن من أنواع الابتلاءات ليصير حجة لله عزوجل على كل من أُبتلى فى هذا النوع بالاضافة إلى كونه حجة وشاهداً لله تعالى على قومه.

(١) رواه مسلم فى صحيحه . باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار حديث رقم ٢٨٦٥.

الفصل الثانى

ليكونوا أسوة للمؤمنين فى جميع الأحوال والابتلاءات فى الحياة الدنيا

الحكمة الثانية الجليلة من إرسال الله تعالى للرسل وبعث الأنبياء تتجلى لنا إذا طرحنا هذا السؤال:

لماذا لم يشأ الله تعالى أن ينزل كتابه أو رسالته للناس فى قرطاس أى فى صحف مكتوبة على كل قوم بلغتهم فينقلونه بأيديهم ويعلموا بهذا أنه من عندالله عز وجل فيأخذوه ويعتقدوا بما فيه من أصول وأركان الإيمان ويقيموا ما فيه من شرائع وأنظمة ويتخلقوا بما فيه من أخلاق؟!

الإجابة: أن الله تعالى لم يشأ ابلاغ رسالته للناس بهذه الكيفية البشرية لأنها لا تحقق الحكمة من إرسال الرسل ولا ينتفع بها الناس، ولن تكون فى نفس الوقت سببا فى إيمانهم، على عكس المتوقع، وقد طلب مشركو قريش من رسول الله ﷺ بالفعل أن ينزل عليهم كتاباً من السماء يقرأونه، فقالوا له لن نؤمن لك حتى نراك وأنت تصعد إلى السماء وترقى إليها، وحتى لو رأيناك ترقى إليها لن نؤمن لرقيك حتى تُنَزِّل علينا كتَابا من السماء نقرأه، أى لن نؤمن أنك ارتقيْتَ إلى السماء ونزلتَ منها إلينا ثانية إلا إذا جئتَ إلينا من السماء بكتاب نقرأه وهذا واضح من سياق سورة الإسراء بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ

لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٠ـ٩٤].

وسنعود إلى هذه الآيات أكثر من مرة فى أكثر من موضع، ولكن الذى يهمنا لموضوعنا الحالى من هذا السياق هو قولهم (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) فأمر سبحانه وتعالى النبى ﷺ أن يرد عليهم قائلا (قل سبحان ربى هل كنت إلاَّ بشرا رسولا) أى فكيف وأنا بشر مثلكم تطلبون أن أحقق لكم هذه المطالب كلها وهى جميعا ليست من مهام النبوة ولا وظائف الرسل الذين أرسلهم الله تعالى للناس لحكمة أخرى وأهداف مختلفة عن هذا الذى تريدونه. وهل تؤمنوا بالله جل جلاله وبما جئت لكم به إذا أنزل الله تعالى عليكم كتابا فى قرطاس، أى مكتوبا فى صحف من السماء وتلقيتموه بأيديكم ولمستموه بأصابعكم وتحسستموه؟!

الإجابة أيضا: إنهم لن يؤمنوا وإنما سيقولون عن الكتاب المنزل من السماء وهم يلمسوه: هذا سحر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] بالرغم من أن السحر يؤثر فى المخيلة والبصر ولا يؤثر فى حقائق الأشياء التى ندركها باللمس وبالإحساس لكنهم مع هذا، سيقولون أنه سحر مبين.

إذاً: البشر لا يكفيهم الكتاب المنزل لكى يعلموا الحق والحقيقة ويتبعوا الشريعة المنزلة بل الذى يحتاجون إليه مع الكتاب الرسول البشرى ليبلغهم الكتاب ولا يحتاجون الرسول لكى يبلغهم الكتاب فحسب، بل يحتاجونه أيضا ليعلِّم ويفسر الكتاب ويطبق التعاليم على نفسه وعلى مجتمعه، فيكون نموذجا ومثلا حسنا فى الإسلام لله تعالى، ويكون لهم أسوة حسنة فى عبادته للخالق جل وعلا، ومن ثم يجب عليهم بعد ذلك أن يتأسوا به. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]. والأسوة الحسنة هو النموذج الأمثل الذى يجب أن يُحْتَذَى، ورسول الله هو الأسوة الحسنة المطلقة، أى للبشرية والإنسانية كلها، ومعنى أنه الأسوة الحسنة أى الذى إذا اتبعناه فى جميع مواقف حياته وجميع اختياراته وجميع أحواله بلا إستثناء فإننا نصيب السلوك الخلقى والاجتماعى والسياسى والقضائى والاقتصادى والعسكرى والتربوى والأسرى الكامل الصحيح الذى يعتبر من أعمال البر، وكذلك كل نبى لأمته، وكل نبى مع صحابته هم أسوة حسنة للمجتمع المسلم قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ④ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑤ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٦].

فسيدنا الخليل إبراهيم ﷺ قد تبرأ هو والذين آمنوا معه من قومهم حتى يؤمنوا بالله وحده؛ فجعله الله عزوجل هو والذين آمنوا معه أسوة لبعض صحابة سيدنا محمد ﷺ لما أخطأوا وأسَرُّوا بالمودة لبعض الكافرين من ذوى أرحامهم، فأنزل الله تعالى معاتبا وموجها ومحذرا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ② لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٣]. فلما أخطأ بعض الصحابة هذا الخطأ فأبدوا وُدَّهم لبعض ذوى الأرحام من المشركين

عاتبهم الله تعالى بهذا وذكر لهم مـا كان من إبراهيم والذين آمنوا معه حين تبرؤوا من أعداء الله تعالى من ذوى أرحامهم حـتى تبرأ إبراهيم ﷺ من أبيه. ومن ثم نبَّه الله جل جلاله الصحابة رضوان الله عليهم لكى يتـخذوا سيدنا إبراهيم والذين آمنوا معه أسوة حسـنة فى مبـدأ الولاء ومبـدأ البراء. وكـان هذا فى مقـام تربية الله تعـالى للصحـابة رضوان الله عليـهم، لكى يكونوا أسوة لمن بعدهم من أجـيال الأمة فى مـوقفى الولاء والبراء وكل الابتلاءات الجماعية.

كمـا سبق بيـان أن رسول الله ﷺ هو الأسـوة الحسنة بالمعنى الـتام والمطلق لجـميع المؤمنين فى كل زمان ومكان.

الفصل الثالث

لإبطال إحتجاج الكافرين والعصاة وإقامة الحجة البالغة عليهم يوم الدين

وهذا ثابت من تنزه الله عزوجل عن الظلم وورود اسم العدل من أسمائه الحسنى:

فمع أن الله عزوجل هو وحده مالك السماوات والأرض، وكل من وما سواه هم خلقه وعبيده، وهو قادر على أن يفعل بهم ما يشاء، إلا أنه عزوجل كما أخبرنا قد حرَّم الظلم على نفسه كما ورد فى الحديث القدسى الذى جاء فيه قوله تعالى: (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا...)(١).

كذلك أخبرنا الله تعالى بذلك فى القرآن الكريم فنفى عن نفسه ظلم العباد فقال تعالى: ﴿...وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(٢) وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٣) وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٥) وحيث أن الأمانة ثقيلة والمسئولية خطيرة والعاقبة وخيمة فإن الله عزوجل بعدله المطلق يقيم الموازين القسط للحساب يوم القيامة ويزن الأعمال بميزان ذرى ولا يظلم أحدا، فلا يبخس

(١) رواه مسلم فى صحيحه باب تحريم الظلم حديث رقم ٢٥٧٧.

(٢) [الكهف: ٤٩]. (٣) [فصلت: ٤٦].

(٤) [يونس: ٤٤]. (٥) [النساء: ٤٠].

أحداً خيرا عمله ويجازى السيئة بمثلها ويعفو عن كثير ويضاعف الحسنات فهو عزوجل يعامل الناس ويحاسبهم بالفضل والإحسان والرحمة، ولا يغفر أن يشرك به، فينفذ وعيده للمشركين بالخلود فى النار.

لذا فإن كل نفس ستجادل عن نفسها يوم القيامة ولو بالباطل خوفا من العذاب الأليم ورجاء فى النجاة ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾(١).

ولا شك أن الحجة التى يمكن أن يحتج بها الكافرون والمشركون يوم القيامة هى الجهل والتذرع بأن هذا المصير الأخروى فى العذاب الأليم كان غائبا عنهم فى الحياة الدنيا. كما أن حجتهم فى إرتكاب الشرور والآثام وسفك الدماء والإفساد فى الأرض هى أنهم فعلوا ما فعلوه لجهلهم بالحق والعدل والخير والبر.

فإذا لم يكن لهم فى الحياة الدنيا مصدر لمعرفة ما ينتظرهم فى الآخرة من حساب وعقاب أو نعيم كل حسب عمله، وإذَا لَمْ يكن لهم فى الحياة الدنيا مصدر لمعرفة السبيل للفوز بالنعيم والنجاة من العذاب الأليم، فإنه تكون لهم حجة يحتجون بها.

ولكن الله عزوجل الرحيم الذى لا يظلم له الحجة البالغة عليهم وليس لأحد من أصحاب النار حجة عليه، وذلك لأنه لم يترك الإنسان سدى وهملا فى حياة الدنيا بل شاء أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٢).

فإرسال الرسل والأنبياء سنة الله تعالى العامة فى تاريخ البشرية من أوله إلى آخره إختتمها بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ حتى لا يكون للناس على الله سبحانه حجة يوم القيامة، وما كان الله تعالى ليعذب الكافرين والعصاة، إلا بعد أن يرسل إليهم الرسل ليقيموا عليهم الحجة البالغة قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(٣) فلو لم يرسل الله تعالى الرسل لقال الكافرون يوم القيامة إنما كان كفرنا بسبب الجهل، ولو أرسلتَ إلينا رسلا يعلموننا لما كفرنا وقد أخبرنا الله تعالى

(١) النحل: ١١١]. (٢) [النساء: ١٦٥].
(٣) [الإسراء: ١٥].

بأن هذا سيكون منهم لو لم يرسل الرسل قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾(١) وهذا هو إحتجاج الكافرين بعدم إرسال الرسل إليهم، إذا ما أصابهم الله تعالى بعذاب فى الدنيا، ومن ثم فإن وقوع إحتجاجهم به يوم القيامة أولى، ولكنه احتجاج مرفوض لأن الله تعالى أرسل الرسل.

قال تعالى عن أهل جهنم من الكافرين ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(٢).

وذلك لأنهم لم يسمعوا ولم يعقلوا ما بلغهم به الأنبياء والرسل، وهذه مقالة الكافرين بعد إنتهاء الحساب ودخولهم جهنم فالأنبياء والرسل حجج الله وشهوده على أقوالهم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾(٣).

وقال تعالى أيضا فى هذا المعنى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾(٤).

لذا فقد شاء الله تعالى أن ينزّل هديه منعا للاحتجاج عليه يوم القيامة وحيث أن المسئولية فردية وجماعية، فقد شاء الله تعالى أن يوصل هديه للإنسان مجملا ومفصلا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٦).

---

(١) [طه: ١٣٤].
(٢) [الملك: ٩ ـ ١١].
(٣) [النحل: ٨٩].
(٤) [النساء: ٤١ ـ ٤٢].
(٥) [القصص: ٥١].
(٦) [الأعراف: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١) كما كان وصول الهدى الإلهى والرسالة المنزلة من عنده للناس خلال تاريخ البشرية كله ولكل الأقوام والأمم قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢).

ومن ثم فإن من مبادىء عقيدة النبوة فى الإسلام التصديق بأن لله عزوجل سنة فى حياة البشر هى إرسال الرسل والأنبياء لتوصيل وتفصيل هديه للناس جيلا بعد جيل منذ آدم إلى خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله وسلم عليهم جميعا، حتى يدخل النار من يدخلها عن بيِّنة، فلا يكون له عذر عند الله تعالى يوم القيامة قال تعالى مبيِّناً رفض اعتذار الكافرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾(٤).

فالحكمة من إرسال الرسل وبعث الأنبياء هى الابتلاء بهم فى الدنيا وليكونوا أسوة ولابطال إحتجاج الكفار يوم القيامة.

---

(١) [الروم: ٢٨].
(٢) [فاطر: ٢٤].
(٣) [التحريم: ٧].
(٤) [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦].

الباب الرابع

وظيفة الأنبياء والرسل

الفـــصل الأول: البلاغ

الفـصل الثـانى: الإبانة

الفـصل الثـالث: الامتثال والتطبيق

الفـــصل الرابع: الجهاد بالكلمة ثم بالسيف لاقامة دين الله عز وجل

الفصل الأول

البلاغ

ترتبط المهمة والوظيفة الموكولة للأنبياء والرسل بالحكمة من بعثهم فى الناس وإرسالهم إليهم، حتى ليظن بعض المتوهمين أنهما أى الوظيفة والحكمة أمرا واحدا، وهما ليسا كذلك، لأن الحكمة من بعثهم وإرسالهم مَنْسُوبة لله عزوجل باعتبار أن بعثهم وإرسالهم من أفعال الربوبية، أما الوظيفة أو المهمة أو الهد ف المنوط بهم تحقيقه فهذا كله يخص فعل الأنبياء والرسل صلى الله عليهم جميعا وسلم، وقد علمنا الحكمة الإلهية من إرسال الرسل وبعث الأنبياء، فما هى وظيفة الأنبياء أو مهام الرسل التى سيحاسبهم الله تعالى عليها يوم القيامة.؟

أول ذلك كله البلاغ، فهو أول وأهم واجبات النبوة والرسالة معا، فالبلاغ مسئولية الرسل والأنبياء، وهم مسئولون عنه، لأن الله عزوجل قد أرسلهم ليقيم بهم الحجة على الناس يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ النحل: ٣٥] فتدبر قوله تعالى ردا على المجادلين بالباطل: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ يعنى أن الرسل ليسوا مسئولين عن أقوال ومعتقدات هؤلاء الكفرة وعن رفضهم الإيمان بالله تعالى، وإنما تتوقف

مسئوليتهم أمام ربهم عز وجل بإزاء الكافرين على البلاغ المبين، فما داموا قد أدَّوْه كما أمرهم الله سبحانه وتعالى، فقد أدَّوْا واجبهم نحو أقوامهم، ولن يُسألوا عما يفعل أقوامهم وعما يعتقدوا ما داموا قد أدَّوْا البلاغ المبين، والجدير بالتدبر فى هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ﴾ إذ لم يقل (فهل للرسل...).

إذ أن قوله تعالى «على» تدل على أن موضوع الآية هو الواجب الذى سيسأل الله تعالى الرسل عنه، ويحاسبهم عليه، وليس موضوع الآية ما جعله الله تعالى للرسل من أجر ومن كرامة ومن خوارق ومن خصائص عُليا. يتميزون بها عن سائر المؤمنين. فالآية تتحدث عن الذى عليهم ولا تتحدث عن الذى لهم.

وكذلك جميع الآيات التى تثبت البلاغ المبين بإعتبار أنه الواجب الرئيسى والأول على الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم جميعا. فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢١ - ٢٣] ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] وقوله تعالى أيضا: ﴿...فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢] أى ليس عليه أى مسئولية ما دام قد أدى البلاغ المبين وقوله تعالى لهم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ شهادة للنبى ﷺ بأنه قد أدى هذا البلاغ المبين، ومثلها قوله تعالى: ﴿...فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢] فالآية تثبت براءة النبى من أى مسئولية عن تولى من يتولى من قومه، حيث تثبت له أنه قد أدى البلاغ المبين الذى عليه، لأن تولى من تَوَلَّى لم يحدث إلا بعد البلاغ المبين. ومثلها قوله تعالى: ﴿... فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ...﴾ [الشورى: ٤٨]، فالبلاغ المبين هو واجب الرسل وهذا الواجب الأول ليس على رسول الله الخاتم فقط، وأنما هو على كل الرسل بدليل قول المرسلين إلى القرية التى ورد ذكرها فى سورة ياسين: ﴿...قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ

الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [ياسين: ١٦ ـ ١٧].

وهذا هو الذى فعله رسول الله ﷺ الذى بلَّغ رسالات الله تعالى المنزلة فى القرآن الكريم والسنة فبلغها بلاغا مبينا لقومه وأنذرهم به وقد قامت أمته من بعده بتبليغ القرآن لشعوب وقبائل أخرى قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩] وقد بلَّغ رسول الله ﷺ القرآن الكريم وبلَّغ السنة معه وكل ما أمره الله تعالى بتبليغه كاملا غير منقوص. لأنه ولو كان المنتقص من رسالات الله حرفا واحدا لم يُبَلِّغْهُ النبى أو الرسول فإنه يكون قد قَصَّر فى أداء وظيفته، ودليل هذا قول الله عزوجل للنبى الخاتم ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] أى إن لم تبلغ كل ما أنزل إليك من ربك غير منقوص فما بلغت رسالته، ومن ثم فما أديتَ الواجب الذى عليك، وقد بلغ رسول الله ﷺ رسالات ربه بشهادة ربه عز وجل حيث يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. ويقول تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ ـ ٣] أى أنك قد أديت الأمانة وبلَّغت الرسالة ونصحت الأمة وكشفت الغمة ولم يبق من الرسالة شىء ومن ثم فقد قرب لقاء ربك.

وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين أبلغوا أقوامهم وذكروا خشيتهم من الله تعالى، إن هم قَصَّرُوا فى البلاغ، قالها نوح لقومه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١ ـ ٦٢]، وقالها هود لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال تعالى عن النبى الخاتم وعن جميع الأنبياء صلى الله عليهم جميعا وسلم ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٨ ـ ٣٩] أى لا يخشون أحدا فى معرض التبليغ إلا الله عز وجل ، فيبلغون رسالات ربهم كاملة حتى ولو كان فيما يبلغونه حرج عليهم، وليس عليهم من حرج فيما فرض الله عز وجل.

وكل رسول يبرىء نفسه من مسئولية تولى قومه عن الحق بإعلان بلاغه المبين لهم كما قال صالح ﷺ بعد هلاك قومه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨ ـ ٧٩] وكذلك قالها شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه بعد هلاكهم مبرئا نفسه بأنه قد أبلغهم رسالات ربهم قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩١ ـ ٩٣].

وحيث أن الأنبياء والرسل محاسبون على التبليغ المبين لرسالات الله عزوجل فإنه سبحانه يرصد لهم حراسا من الملائكة يحرسونهم وليسجلوا عليهم أيضا بلاغهم لأقوامهم قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨] والمعنى أن الله تعالى جعل هؤلاء الحرس من الملائكة كما جعل منهم هذه الرقابة على الرسل، ليعلم سبحانه علم ظهور، أن الرسل قد بَلَّغوا، لأنه من المسلم به أن الله تعالى يعلم أنهم سيُبَلِّغوا حتى قبل أن يخلق الخلق، ولأنه سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، أى لا يجعلها إلا بين الذين يخشونه ويبلغون رسالاته سبحانه وتعالى فقوله سبحانه: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا﴾

علم ظهور وليس علـما محدثا لـم يكن من قبل حاشى لله عـز وجل، وهؤلاء الرصد من الملائكة علـى الرسل نظراء للحـفظة وللملائكة الحـسنات والسيـئـات على سـائر الناس. والخلاصة أن البلاغ هو المهمة الرئيسية والأولى للأنبياء والرسل وهو منصب على رسالات الله عزوجل أى ما يتلقاه النبى أو الرسول من الوحى لتبليغه لقومه كما تلقاه.

الفصل الثانى

الإبانة

الواجب الثانى على الرسل والأنبياء بعدالبلاغ هو الإبانة، ولهذا جاء وصف الله عزوجل للبلاغ «بالمبين» فى أكثر آيات البلاغ، أى أن مجرد البلاغ بدون بيان ما يبلغونه لأقوامهم لا يكفى لاقامة الحجة عليهم، إذ قد يتعللون يوم القيامة بعدم الفهم وبغموض البلاغ والنصوص المنزلة. ومن ثم وجب عليهم أيضا أن يُبيِّنوا للناس ما يبلغون.

قال تعالى مخاطبا رسوله الخاتم ﷺ ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩] وهذا تصريح بأن بيانه بعد جمعه وقرآنه من واجبات النبوة ومن الوظائف الرئيسية للنبى ﷺ ليس رسوله الخاتم فحسب بل وكل نبى قبله.

فالبلاغ هو توصيل القرآن إلى من يحفظه فى صدره، ويكتبه وهذا هو جمعه، وبتعلمه: تلاوة وتجويدا وقراءة ودراسة وتفسيرا وهذا هو بيانه، وكذا الحال بالنسبة للتوراة والزبور والإنجيل وسائر الكتب السماوية.

وقد بين رسول الله ﷺ ما فى كتاب الله من رسالات إلهية: رسالة التوحيد ورسالة العبادات ورسالة الشرائع المنظمة لحياة المؤمنين ورسالة اليوم الآخر ورسالة أحداث

الأمم السابقة والأحداث اللاحقة التى تسبق الساعة والتى هى أشراط وعلامات وأمارات وآيات لها وأحوال أهل الخلدين ببيان نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار والعياذ بالله تعالى.

لقد بين رسول الله ﷺ كل هذا فى السنة المطهرة فالسنة المطهرة بيان للقرآن الكريم بتفصيل ما أجمله ورد متشابهه إلى محكمة. فالقرآن الكريم هو فى ذاته بيان للناس بما يتضمنه من حقائق محكمات واضحات فى مجالات العقيدة والشريعة والعبادات، بَيْدَ أن بعض آياته قد تضمنت حقائق مجملة ففصلتها السُّنَّة. كالأمر بالصلاة والزكاة والصوم جاء مجملا ففصلته السنة فبيانه تفصيله قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال تعالى عن الرسل بعامة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ...﴾ [إبراهيم: ٤] وقال عن موسى ﷺ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.... ﴾ [إبراهيم:٥]. وهذا الانتقال من الظلمات إلى النور لا يكون إلا بما نزل من التوراة التى فيها النور وبيانها.

والبيان للناس لكى يتذكروا ولكى يتفكروا ولكى يعقلوا ولكى يهتدوا ولكى يتقوا الله عزوجل.

فلكى يتذكروا بدليل قوله تعالى: ﴿...وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١] ولكى يتفكروا بدليل قوله تعالى: ﴿....كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩] فإذا تفكروا عقلوا قال تعالى: ﴿...كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢] فإذا عقلوا اهتدوا بالبيان قال تعالى: ﴿...كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وكذلك يبين الله لنا حتى لا نضل ﴿... يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]. ونتيجة هذا كله تقوى الله عزوجل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فبيان الآيات من الله تعالى وكذلك من رسل الله ﷺ قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وقال تعالى أيضا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]. وقال تعالى أيضا: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩] وذلك لأن هذا البيان الذى يتذكر به الإنسان ويتفكر فيه، ويعقل به الحق، ويهتدى به إلى الخير والبر فيتقى الله عز وجل، هو من أعظم نعم الله تعالى وجدير بأن يشكر المتقون ربهم عليه فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وذلك لأن الله خلق الإنسان للابتلاء كما علمنا، وهذه الحقيقة لا تتحقق إلا إذا كان الإنسان مختارا اختيارا حقيقيا، والاختيار الحقيقى لا يتحقق إلا إذا تبيّن للمختار الرشد من الغى قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أى بعد نزول القرآن وبيان الرسول ﷺ لآياته بالسنة الشريفة.

فمن كفر بالله تعالى بعد التّبيين بين الرشد والغى يضله الله عز وجل ويختم على قلبه، لأنه هو الذى إختار الغى والضلال بعد البيان قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

ومن ثم وصف الله تعالى كتابه بأنه آياتٌ بيّناتٌ فى صدور العلماء الصالحين فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨ ـ ٤٩].

وخلاصة هذا الفصل أن البلاغ وحده لا يكفى، إذ لابد معه من بيان للرسالة المبلّغة حتى تصير واضحة مفهومه للأذهان وطيّعه مقبولة للقلوب السليمة، ومن ثمّ تكون صالحة ومساعدة ودافعة على التنفيذ والتطبيق فى واقع الحياة البشرية.

وحيث أن أعمار الأنبياء محدودة وأعمار الأمم ممتدة فقد شاء الله تعالى أن يرسل العديد من النَّبيِّين بعد الرسول الذى تلقى الكتاب صاحب الشريعة وهذا ما حدث لبنى إسرائيل حيث أرسل الله تعالى لبنى إسرائيل مئات الأنبياء على مئات الأعوام لكى يُبيِّنوا لهم، فكانت مهمة هؤلاء الأنبياء تجديد دين بنى إسرائيل وبيان التطبيقات الصحيحة لشريعة التوراة.

أما بالنسبة للأمة القرآنية المحمدية حيث لا نُبُوَّة بعد خاتم النَّبيِّين صلى الله تعالى عليهم جميعاً وسلم، فإن العلماء هم الموكول إليهم مهمة البيان بالشرح والتفسير لنصوص الوحى قرآنا وسنة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران / ١٨٧] فهذا هو الميثاق الذى أخذه الله تعالى على العلماء بإبراز حكم الله تعالى فيما يحدث للأمة حاملة الرسالة من أحداث محذرا من كتمانه، فالبيان بعد العهد النبوى أصبح من مسئولية العلماء إلى يوم القيامة.

الفصل الثالث

الإمتثال والتطبيق

علمنا أن البلاغ لا يكفى بدون البيان، ومن ثم أمر الله تعالى الأنبياء بالبلاغ والإبانة معا، وكذلك قد لا يكفى البلاغ المبين بالنسبة للعامة، أو لبعض ذوى العقول الضعيفة أو القلوب غير السليمة، فلا تتحقق حجية وشهادة الأنبياء على الناس يوم القيامة بالبلاغ والابانة فقط.

إذ قد يقول بعض المشركين والكافرين والفاسقين والعصاة أن التكليف الذى كلفنا الله تعالى به، أو الحد الأدنى من هذا التكليف فوق طاقة البشر، وليس فى وسع النفس الإنسانية، ومن ثم فلكى تقوم الحجة بالأنبياء على الناس، لابد أن يتم تطبيق كل نبى أوامر الله والانتهاء عن نواهيه، والإمتثال التام والتطبيق العملى الكامل، والتنفيذ النموذجى المثالى للشريعة فى جميع فروعها على نفسه وعلى أسرته وعلى عشيرته وعلى قومه، ما داموا قد استجابوا له. وبدون هذا الامتثال والتطبيق من النبى فى حده النموذجى الأعلى لا يتم تحقيق الهدف من بعث النبى، أى نبى. فإذا ما قام النبى بذلك بين عشيرته وقومه صار هذا التطبيق بيانا عمليا واقعيا محسوسا ومشاهدا لهم، فلا تبقى بعد ذلك حجة لمعاند ولا يبقى بعده عذر لمعتذر بالجهل أو عدم فهم النصوص، لأن النصوص مع التطبيق النبوى لها تتحول إلى واقع محسوس مشاهد، وحياة كاملة معاشة، ومن ثم يكون مأخذ عامة المؤمنين من السلوك النبوى التطبيقى،

أمَّا مـأخذ العلماء المتخصصين فى الدين للشـريعة، فيكون مـن النصوص المنزلة مع بيانهـا وتفسيرها وشـرحها من التطبيق العـملى للنبى فى جميع أحـواله الفردية، بينه وبين ربه، وبينه وبين أسرته، وبينه وبين سائر الناس فى جـميع أحوالهم فى السلم أو فى الحرب.

قال تعالى لنبـيه المصطفى ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] كتب السيوطى فى الدر المنثور في مـعرض تفسير هذه الآية (وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضى الله عنه فى قـوله فاستقم كما أُمرت الآية قال: أمـر الله نبيه ﷺ أن يستـقيم على أمره ولا يطغى فى نعمـته، وأخرج أبو الشيخ عن سـفيان رضى الله عنه فى قـوله «فاستـقم كما أمـرت ومن تاب معك» قال: شمِّروا شمِّروا، فـما رؤى ضاحكا، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج: ومن تاب مـعك، قال: آمن. وأخـرَج ابن أبى حاتم وأبو الشـيخ عن العـلاء بن عبـدالله بن بدر رضى الله عنه فى قـوله «ولا تَطْغَوْا إنه بمـا تعملون بصـير» قـال: لم يرد به أصحـاب محمد ﷺ، إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم)(١).

والمستـفاد من الآية ومـن أقوال السلف فـيها أن رسـول الله ﷺ ومن آمن معـه من الجيل الأول ، خير الأجيال رضى الله عنهم وأرضاهم جـميعا، قد أمرهـم الله تعالى أن يأتوا بالتطبيق الأمـثل لشرعه فى درجتـه العليا، هذا طبعـا بالنسبة للنبى ﷺ باعـتباره فرداً، وباعتباره أسوة حسنة، وباعتباره أفـضل من حقق عبوديته لله عز وجل وباعتباره داعيا ومعلما وقاضيا وحاكمـا وقائدا وزوجا وأبا وجدا ، وجاراً وبائعاً ومشترياً وفى جـميع أحـواله الإنسـانية والبـشـرية. وبالنسـبة للصـحـابة باعتـبـار أنهم يمثلون فى مجمـوعهم أفضل مجتـمع نموذجى ظهر على وجه الأرض منذ آدم علـيه السلام إلى قيام الساعة. ومن ثم صدر لهم الأمر الإلهى بالاستقامة مع النبى ﷺ.

أما قـول الحسن رضى الله عنه أنه مـا رؤى ﷺ ضاحكا بعـد نزول هذه الآية، وأنه قال لأصـحابه «شمِّروا شـمِّروا »أى لبلوغ الغاية العليـا فى التطبيق والتنفيـذ والعمل

(١) السيوطى/ الدر المنثور جـ٣ ص٣٨١.

بشرع الله تعالى، لأنه ﷺ قد فهم من أمر الله تعالى له ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أنه غير مأذون له أن يتدنَّى فى التطبيق عن النموذَج الأعلى، ولو قيد أنملة مما أشعره ﷺ بالخشية أن يحدث منه هذه المخالفة اليسيرة جدا فى التطبيق، أما قول الله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي وصحابتك الذين آمنوا معك، فهم مطالبون أن يحققوا فيما بينهم بقيادتك النموذج الأعلى للمجتمع الإسلامى فى تاريخ البشرية، وليس كل واحد منهم مطالبا بأن يكون باعتباره فردا نموذجا مثلك فى التطبيق فهذه لا يطيقها إلا رسول الله ﷺ، ومن ثم صدر له هو وحده الأمر أولا ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ثم لهم باعتبارهم جماعة أو مجتمع ثانيا ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فاستقامة الرسول ﷺ كما أمره الله تعالى أمر عجيب، إذ تحول شخصه بالفعل إلى نموذج كامل صحيح دقيق لتطبيق العبودية لله تعالى فى أجلى وأوضح وأتم وأكمل حالاتها أى بصورة لم تتحقق من قبل فى شخص ولى ولا حتى نبى أو رسول، حتى صار قرآنا يمشى على الأرض، وعبرت عن هذا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بقولها عنه: «كان خلقه القرآن».

ومثلها قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٣- ١٥].

فقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ أى إلى الدين المنزل إليك من ربك الذى وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم جميعاً أى إلى التوحيد أى ادع إلى التوحيد واستقم كما أمرت، ثم طبق أنت الشريعة كما نزلت بحذافيرها لتكون حجة على أهل الكتاب الذين حرفوا دينهم، وقد أمرهم الله تعالى أن يقيموه فى أنفسهم ومجتمعهم فبيَّن أن ما وصى به هؤلاء الرسل قبله هو ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ

ولا تتفرقوا فيه﴾ فليس من دلالة لقوله تعالى: ﴿واستقم كما أمرت﴾ إلا الامتثال الدقيق الكامل والتطبيق الصحيح التام لكل ما أمرك الله تعالى به.

ومثلها قوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ [فصلت: ٣٠] فقولهم (ربنا الله): التوحيد، وقوله عنهم (ثم استقاموا) تطبيق الشريعة بالنسبة للمجتمع الإسلامى فى العهد النبوى المبارك.

وقد أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام ايضا بالاستقامة قال تعالى: ﴿قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ [يونس: ٨٩].

فالاستقامة لا تكون إلا بإقامة الدين بعد الإيمان بالله واحدا لا شريك له. الإيمان بالقلب وإقامة الدين فى واقع الحياة النفسية والاجتماعية بالجوارح والأعمال قال تعالى: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين﴾[يونس: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [الروم: ٣٠] فإقامة الوجه للدين هو التوجه القلبى لله تعالى وحده مقصودا ومعبودا، ومن ثم قال بعدها فى نفس السورة ﴿فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون (٤٣) من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون (٤٤) ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين﴾ [الروم: ٤٣ ـ ٤٤] ففى هذا السياق أمر بالتوحيد بقوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ ثم أمر بالعمل الصالح بعد هذا فى بقية السياق أى التطبيق.

فالاستقامة التى أمر الله تعالى بها الأنبياء والرسل جميعا هى كمال الامتثال لشرعه وتمام التطبيق له، ومن ثم يكون البلاغ للرسالة مصحوبا بالبيان القولى والبيان التطبيقى العملى معا الأمر الذى يقضى على فرص المشركين فى الاحتجاج بالجهل وتعذر فهمهم لنصوص الوحى المنزلة.

الفصل الرابع

الجهـاد بالكلمـة لإقـامـة دين الله عز وجل ثم بالسيف إذا اقتضى الأمر

من وظائف النبوة ومهام الرسل جهاد الكافرين بالكلمة أولا، ثم بالسيف إن تحققت شروطه وأحواله، أما عن الجهاد بالكلمة، أى بالكلمة الربانية، وهى الرسالة المنزلة أو الكتاب المنزل وهى القرآن الكريم بالنسبة لخاتم النَّبيِّين صلى الله عليهم جميعا وسلم فقد قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۞ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٠ ـ ٥٢] أى جاهدهم بالقرآن الكريم جهادا كبيرا، لأنه بالقرآن يتم غزو النور للقلوب وطرد الظلمات منها، أما عن الجهاد بالسيف فيكون بجهاد الأجساد وغزو البلدان، فالأصل فى الجهاد الإسلامى هو الجهاد بالقرآن الكريم.

فإذا استخدم الكفار والمنافقون الكبر والقوة للقضاء على الإسلام، أى تحولوا من مقاومة الإسلام باللسان والأفواه إلى محاولة القضاء عليه بالقوة والسيف، وجب على الأنبياء جهادهم بالقوة والسيف، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩] وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (١٩١) فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم (١٩٢) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٣].

وكذلك كان القتال فى سبيل الله تعالى واجبا على كل أمة بقيادة رسولها، إذا تحققت فيهم شروط الجهاد بالسيف، قال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين (٢٠) يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (٢٤) قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٥) قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

أى أن بنى إسرائيل لما رفضوا القتال مع موسى وهارون عليهما السلام حكم الله تعالى عليهم بالتيه أربعين سنة فى سيناء حتى يخرج جيل يقبل على الجهاد بالسيف، ويذهب هذا الجيل الذى رفض القتال مع موسى وهارون عليهما السلام.

فلما انتهى هذا الجيل الفاسق وشبّ جيل جديد وقبل القتال فقاتلوا مع نبى لهم وتحت قيادة الملك طالوت وخرج منهم داود الذى فتح الله تعالى فى عهده بلاداً كثيرة صارت مسلمة نتيجة للجهاد تحت قيادة داود ثم سليمان عليهما السلام. قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين (٢٤٦) وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك

عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦: ٢٥١].

أما الرسل الذين لم يقاتلوا الكافرين من أقوامهم فهم الذين لم يستجب لهم من أقوامهم العدد الكافى الذين يمكنهم أن يقاتلوا بهم الكافرين مثل سيدنا نوح وسيدنا هود وسيدنا صالح وسيدنا لوط وسيدنا شعيب عليهم جميعا الصلاة والسلام، فهم لم يمتنعوا عن الجهاد بالسيف ، ولكن مرحلة الجهاد بالكلمة التى تسبق مرحلة الجهاد بالسيف لم تؤت ثمرتها ، ولم يستجب لهم العدد الكافى للقتال، ومن ثم استأصل الله تعالى أقوامهم ونجى المؤمنين منهم مع رسلهم.

وعلى هذا فالجهاد من مهام الرسل ولكنه بمرحلتين.

الأولى: بالكلمة وبالحجة وباللسان وبما نزل عليهم من الحق، فإذا أثمر الجهاد بهذه المرحلة واستجاب قوم النبى أو أكثرهم أو العدد الذى يكفى لقتال أعداء الدعوة، انتقلت الدعوة للجهاد بالسيف.

الثانية: إذا استجاب للرسل العدد الكافى للقتال وبدأ الكافرون فى استخدام القوة المسلحة ضدهم فإن الله تعالى يأذن لهم بمرحلة الجهاد بالسيف وبقتال المشركين المعتدين دفاعا عن أهل الإيمان ونشرا له.

الباب الخامس

أحكام الإيمان بالنبوة فى الإسلام

الفصل الأول: وجوب الإيمان بالرسل والنَّبِيِّين جميعا وعدم التفريق بينهم

الفصل الثانى: وجوب الإيمان بالتفاضل بين الأنبياء والرسل

الفصل الثالث: وجوب الإيمان بأن الله تعالى ختم النبوة والرسالة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

الفصل الرابع: وجوب حب الرسل والنَّبِيِّين بعامة وحب رسول الله صلى الله عليه وعليهم جميعا بخاصة

الفصل الخامس: وجوب موالاة الرسل والنبيّين بعامة وموالاة رسول الله صلى الله عليه وصحابته وأمته بخاصة

الفصل السادس: الاعتقاد بوجوب طاعة الرسل والنَّبِيِّين بعامة وطاعة رسول الله صلى الله عليهم جميعا بخاصة

الفصل السابع: وجوب توقير الرسل ونصرتهم بعامة وتوقير ونصرة رسول الله صلى الله عليهم جميعا بخاصة

الفصل الأول

وجـــوب الإيمان بالرسل والنَّبِـــيـِّين جـمـيـعـا وعـدم الـتـفـريق بينهم

للنبوة أحكام يجب على الموحد الإيمان بها أهمها الأحكام السبعة التى سنعرضها فى الفصول السبعة لهذا الباب.

لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تتضمن الأصول الإيمانية جميعا، كما تتضمن الإيمان بجميع الرسل والأنبياء والكتب المنزلة عليهم جميعا.

بناء على ما تقدم يكون حكم المقر بالشهادة الأولى «لا إله إلا الله» والمنكر للشهادة الثانية «محمد رسول الله» أنه كافر بالله عزوجل، حيث أن الكفر والتكذيب برسالة محمد ﷺ كفر وشرك بالله جلا وعلا، لأن من آمن بالله تعالى مقرا بوحدانيته بمنهج مخالف لما أتى به رسول الله ﷺ ورفض التوحيد الذى نزل عليه، ليس موحداً على الحقيقة، وإن صرح بأن الله واحد بلا شريك، وليس بعد الحق الذى أنزل على رسول الله ﷺ إلا الضلال، وليس بعد التوحيد الذى كان عليه النبى ﷺ وأصحابه إلا الشرك وليس بعد الإيمان الذى كانوا عليه إلا الكفر.

وكما سبق القول، فإن اليهود والنصارى والبوذيِّين والبراهمة، وكثير من الفلاسفة أصحاب العقائد الوضعية، وكذا أصحاب مذاهب وحدة الوجود من الفلاسفة يعلنون وحدانية الإله، لكن دينهم وتوحيدهم غير مقبول عند الله تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ

غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١) وقال تعالى أيضا: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾(٢).

والإسلام هو الدين المنزل من الله على رسله، فلا يقبل إلا التوحيد الذى أتى به الرسل.

وليس من منهج منزل من السماء، ولا زال صحيحا، إلا منهج سيدنا محمد ﷺ، وسيظل صحيحا إلى قيام الساعة بإذن الله تعالى، ومن ثم لزم ـ لكى يكون العبد مسلما لله، مقرا بالتوحيد الصحيح ـ أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

والإيمان والتصديق بالرسول الخاتم، وبالرسالة الخاتمة، هو إيمان وتصديق بكل رسل الله عزوجل، وبالكتب السماوية المنزلة عليهم، وبالملائكة المرسلة بها من قبل الرحمن جل وعلا، كما أنه إيمان وتصديق باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره لأن كل هذه الأصول متضمنة جملة وتفصيلا فى كتاب الله عزوجل وفى سنة رسول الله ﷺ.

ومن ثم فإن شهادتى الإسلام: الأولى والثانية، تتضمنان التصديق بجميع أصول الإيمان.

والإيمان بالقرآن الكريم تصديق وإيمان بكل الكتب. ومن ثم وجب الإيمان به جملة أى وجب على كل مسلم أن يصدق بكل ما جاء به سواء علمه تفصيلا أم لم يعلمه.

والتصديق والإيمان بما ورد فى القرآن والسنة تَفْصيلا واجب على كل مسلم قد علم منهما هذا العلم المفصل.

وقد تضمن القرآن الكريم وجوب الإيمان بالنبوة كحقيقة إيمانية عامة، أى الإيمان بها جملة. ثم بوجوب الإيمان بالذين سَمَّاهم القرآن الكريم من الأنبياء والرسل والكتب، والتصديق أن كتبهم من عند الله تعالى، وأن ما جاء بها حق، والتصديق بأن هؤلاء الذين سمَّاهم القرآن الكريم رسلا وأنبياء صادقين فيما بلغوه عن ربهم.

لهذا صح القول أن الإيمان برسول الله ﷺ وتصديقه هو إيمان بجميع الرسل والكتب المنزلة عليهم والإيمان بالأنبياء جميعا وكذا بكل ما ورد فى القرآن الكريم.

(١) [آل عمران: ٨٥]. (٢) [آل عمران: ١٩].

والإيمان بالنبوات يقتضى الإيمان بجميع الرسل بلا تفرقة بينهم، حتى أن المكذب لرسول واحد أو لكتاب واحد ـ ورد ذكره فى القرآن الكريم ـ مكذب للنبوات بعامة ومكذب للقرآن الكريم، ومن ثم فهو كافر بالله عز وجل. قال تعالى: ﴿...لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾(١) وهذا من أهم أحكام عقيدة النبوة فى الإسلام.

لأن الإيمان بالنبوة ركن من أركان الإسلام، وليس بمؤمن من يكذب بأحد هذه الأصول.

والتكذيب ببعض الرسل أو بأحدهم يستلزم التكذيب بالرسل جميعا، بل هو تكذيب لهم جميعا، من ذلك قول الله عزوجل عن عاد عندما كذبوا رسولهم هود ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢) ومعلوم أنه لم يرسل لهم إلا هود، لكن جعل الله تعالى تكذيبهم لهود عليه السلام تكذيبا لكل المرسلين. وكذلك قوله ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾(٣) لأن تكذيبهم لرسولهم صالح تكذيب لكل الرسل. وقال أيضا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(٤).

ولعل المعنى يتضح لنا بجلاء من قوله جلا وعلا ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(٥) حيث من المعلوم أن نوح عليه السلام أول رسول بعد آدم عليه السلام، ومن ثم فالمكذبون لرسولهم فى زمانهم مكذبون لكل الرسل فى كل الأزمان والعصور من قبلهم ومن بعدهم(*).

ننتهى من هذا كله إلى أن النبوة فى عقيدة الإسلام وحدة واحدة لا تتجزأ، وكأنها بناء واحد كامل تام تعهده الله عز وجل بحكمته وبرحمته منذ آدم حتى آخرهم سيدنا محمد صلى الله تعالى عليهم وسلم أجمعين.

وهى سلسلة واحدة ،لأن اللاحق منهم يؤمن بالسابق عليه ، وكذلك السابق منهم يبشر باللاحق له، ويأمر قومه بأن يصدقوا به ويتبعوه إذا بُعث بعده.

---

(١) [البقرة: ٢٨٥].
(٢) [الشعراء: ١٢١].
(٣) الشعراء: ١٤١].
(٤) [الشعراء: ١٦٠].
(٥) [الشعراء: ١٠٥].
(*) راجع كتاب دراسات قرآنية للأستاذمحمد قطب.

وجميعهم منذ آدم يبشرون بمحمد ﷺ ويُوصُون أقوامهم بالإيمان به وبالتصديق به وبإتباعه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

وقد قيل في معنى الآية أن الله تعالى أخذ من كل نبي العهد والميثاق أن يؤمن ويصدق بمن يأتي بعده ويأمر قومه ويوصيهم بأن يصدقوه ويتبعوه إن أدركوه هم أو أبناؤهم وأحفادهم ومن بعدهم من نسلهم. فالرسالة أمانة يسلمها كل رسول لمن يأتي بعده من الرسل.

كما قيل في معنى هذه الآية أيضا أن الله أخذ العهد على كل الرسل والأنبياء السابقين أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأمرهم أن يأخذوا العهد والميثاق من أُمَمِهم باتباع الرسول ﷺ ونصرته إذا بعث فيهم.

ويرى ابن كثير رحمه الله تعالى أن الآية تفيد المعنَيَيْن(٢).

من هذا ذكر الرسول ﷺ في التوراة والزبور والإنجيل، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾(٣).

ومعنى هذا أن كل رسول يأتي مصدقا لمن قبله من الكتب والرسل، ولمن بعده من الكتب والرسل بعامة وبرسول الله ﷺ بخاصة. وداعيا إلى عبادة الله عزوجل واحدا لا شريك له ، إذ هو الذى لا معبود بحق غيره، وهى دعوى السابقين واللاحقين منهم عليهم جميعا صلوات الله عزوجل وسلامه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ

(١) [آل عمران: ٨١].

(٢) مختصر تفسير ابن كثير/ للصابونى المجلد الأول ص٢٩٦.

(٣) [الأعراف: ١٥٧].

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(١) فصدق التوراة وأقرها، وبشر بأحمد ﷺ رسولا خاتما للرسالات.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى (هذه الآية تصور حلقات الرسالة المترابطة يُسَلِّم بعضها إلى بعض، وهى متماسكة، فى حقيقتها، واحدة فى إتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة فى السلسلة الطويلة المتَّصلة)(٢).

وهذا الذى ذكره شهيد الإسلام رحمه الله تعالى يوضح بجلاء ما نقصده بوحدة الرسالة الإلهية للبشرية جمعاء بدأها الله تعالى بآدم وإختتمها بأحمد صلى الله تعالى وسلم عليهم جميعا.

فكما أن المنكر للنبوة مع تصريحه الإيمان بالله تعالى كافر، كما سبق أن وضحنا، فإن المؤمن ببعض الأنبياء والمكذب للبعض منهم كافر أيضا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(٣).

ولا شك أن ما قصدناه وأثبتناه آنفا واضح من قوله تعالى: ﴿﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ حيث فسر علة كفرهم بالله ورسله بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى «أى فى الإيمان» فهم يؤمنون بالله تعالى وينكرون الرسالة السماوية جملة. (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) وكذلك التفريق بين الرسل فى الإيمان بحيث يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، كل هذا يعتبر كفر بالله عزوجل ورسله ولا ينفعهم إيمانهم بالله تعالى مع إنكار الرسالة ولا ينفعهم إيمانهم بالله تعالى وبالرسل إذا كفروا ببعضهم أو كفروا بخاتمهم ﷺ.

---

(١) [الصف: ٦].

(٢) فى ظلال القرآن/ شهيد الإسلام سيد قطب جـ٦ ص٣٥٥٦.

(٣) [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

فالإيمان بالله عزوجل مع التكذيب بالرسل وبالكتب إيمان به جل وعلا على غير ما جاءت به الرسل، وهذا ليس إيمانا صحيحا بالله تعالى، ومن ثم فهو كفر به. وكذلك الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض وقد كفر اليهود لأنهم كذبوا عيسى ومحمدا عليهما الصلاة والسلام وكفر النصارى لإنكارهم نبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

لذلك أثبت الله تعالى للرسول والذين معه الإيمان حيث لم يفرقوا بين أحد من رسله، قال عزَّ من قائل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(١).

ولا شك أن إثبات النبوة بإعتبار إنها إحدى الحقائق الإنسانية وسلسلة متصلة تبدأ بآدم وتنتهي بمحمد عليهما الصلاة والسلام تعني أننا أمام العامل الأول والأهم في تفسير التاريخ البشري.

إذ ترتبط عقيدة النبوة بعقيدة اليوم الآخر من خلال انتهاء سلسلة الأنبياء والرسل بواحد منهم يكون خاتما لهم، كما يكون بعثه علامة من علامات قرب الساعة وانتهاء أجل البشرية.

لذا كان من مبادىء عقيدة النبوة في الإسلام عقيدة ختم النبوة بسيد ولد آدم وإمام المرسلين وشاهد الله تعالى عليهم جميعا وهو سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(١) [البقرة: ٢٨٥].

الفصل الثاني

وجوب الإيمان بالتفاضل بين الأنبياء والرسل

لا يمنع النهى عن التفريق بين الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه من اعتقاد المسلم بالتفاضل بينهم، بل من العقائد الواجبة فى حق الأنبياء والرسل الإيمان بأن الله تعالى رفع بعضهم على بعض درجات، ولم يجعلهم فى مكانة واحدة من القرب منه عز وجل لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] وليس ثم تعارض بين هذه العقيدة وتلك، لأن المراد من النهى عن التفريق بين الرسل هو أن يؤمن العبد ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما حدث هذا من أهل الكتاب، حيث آمن النصارى برسالة موسى وعيسى عليهما السلام وكفروا برسالة محمد ﷺ، وآمن اليهود برسالة موسى، وكفروا برسالتىْ عيسى ومحمد صلى الله عليهم جميعا وسلم، والصحيح الإيمان بكل ما صح عن كل الرسل وهذا التفريق فى الإيمان بين الرسل كفر صريح بواح.

فالتفاضل قائم بين الأنبياء وأيضا بين الرسل، بل هو سنة الله تعالى فى الكون كله وعلى مستوى الخلق جميعا. قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن

كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ.....﴾ [البقرة/ ٢٥٣].

فأفضل الرسل والنبيِّين جميعا الخمسة أولوا العزم منهم قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وأفضل الخمسة سيدنا محمد ﷺ. وسنعود إلى هذا تفصيلا فى مواضع لاحقة من هذه الموسوعة بإذن الله تعالى وفضله ومنه وكرمه وفتحه.

الفصل الثالث

وجوب الإيمان بأن الله تعالى ختم النبُوة والرسالة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

ترتكز عقيدة ختم النبوة وتبنى فى النسق الاعتقادى الإسلامى على الحكمة من خلق السماوات والأرض والإنسان بعامة وعلى الحكمة من إرسال الرسل بخاصة ألا وهى حقيقة الابتلاء.

فحقيقة الابتلاء تستتبع بالضرورة الجزاء، وحيث أن هذه الحياة دار للابتلاء وليست للجزاء، فإن هذا يستلزم إنتهاء الحياة الدنيا، وإنتهاء الحياة الدنيا يستتبع بالضرورة إنتهاء سلسلة النبوة التى بدأها الله تعالى بآدم ثم بنُوح وبالنبيِّين وبالرسل من بعده.

ومن ثم فلابد أن تنتهى وتتوقف النبوة فى تاريخ البشرية بنبىٍّ رسول خاتم للأنبياء والرسل جميعا، يكون مبعثه إيذانا بقرب انتهاء البشرية وعلامة من علامات الساعة.

وهكذا نجد عقيدة ختم النبوة متوافقة مع مبادىء عقيدة النبوة الأخرى من ناحية، ومع سائر أركان الإيمان، وبصفة خاصة ركن الإيمان باليوم الآخر من ناحية أخرى، وعلى هذا فالمكذب بختم النُّبوة بالنبوة المحمدية مُكَذِّبٌ بالنبوة المحمدية، ولا تصح شهادة محمد رسول الله إلا مع الإعتقاد بأنه خاتم الرسل والأنبياء، فلا نبى بعده. وحيث أنه لم يثبت أن أحدا من الأنبياء والرسل السابقين على سيدنا محمد ﷺ

صرح أو ذكر أنه آخر الأنبياء أو خاتم المرسلين، بل على العكس من هذا نجد أن كل واحد منهم كـان يبشر بمن يجيء بعـده من الرسل والأنبياء كـما كان يبشـر بالرسول الخاتم ﷺ. فـإن هذا يُعتبـر دليلا نقليا بشـهادة الأمم السابقـة على صحة خـتم النبوة بسيدنـا محمد ﷺ ، خاصـة أن التوراة وأسفار العـهد القديم، التى يؤمن بهـا اليهود، وبالرغم من تحـريف اليـهود لهـا، لم تتـضمـن إشارة بختـم النبـوة بأحد أنـبيـاء بنى إسرائـيل. كذلك يثبت التاريخ أنه بعـد انتقـال رسول الله ﷺ إلى الرفـيق الأعلى لم يظهر فيه نبى صادق مؤيد بالأدلة والمعجـزات سوى دجالون يزعمون النبُوة وقد ثبت كذبهم بالأدلة(*).

فلاشك أن هذا كله يكون مـوافقا لما جاء كـأدلة نقلية صريحـة فى القرآن الكريم والسنة على ختم النبوة المحمـدية؛ هذه الأدلة التى تكفينا نحن المسلمين للإيمان بختم النبوة بِنَبِيِّنَا ﷺ بل وتلـزمنا به. وبناء على هذه الأدلة التى سنوردها بعد، يكون الإيمان بختم النبوة والرسـالة بسيدنا محمد ﷺ من مبـادىء الإيمان بالنبوة فى الإسلام، ومن مقتضيات النطق بالشهادتين بحيث يعتـبر التكذيب بختم النبوة بالنبوة المحمدية نقضا للشهادتين مخرجا عن الملة(**).

وبناء عليه فمن يصدق مـدعيا يزعم أنه نبى بعد رسول الله ﷺ فهـو كافر حتى لو أعلن تمسكه بالإيمان بنبوة الرسول ﷺ.

أما الأدلة على ختم النبوة بِنَبِيِّنَا محمد ﷺ من الكتاب والسنة فهى:

(١) قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾(١) قال ابن كـثير رحمـه الله تعالى (فهذه الآية نَصٌّ فى أنه لا نبى بعـده، وإذا كان لا

(*) أخبر رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن الـنبى ﷺ قال (لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله) رواه البخارى فى صحيحه جـ٤ ص٢٤٣ مطبعة دار التراث العربى، ورواه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص٢٢٤٠ طبعة عيسى البابى الحلبى.

(**) من هؤلاء البهـائية والقـاديانية الذين زعمـوا أنهم يصدقـون بنبوة محـمد ﷺ مع ادعـائهم النبوة وتصديق اتباعهم لهم بذلك فخرجوا بهذا عن الملة، لكفرهم بعقيدة ختم النبوة بسيدنا محمد ﷺ.

(١) [الأحزاب: ٤٠].

نبى بعده فلا رسول بالطريقة الأولَى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبى ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضى الله عنهم)[(١)].

وقال القرطبى رحمه الله «وخاتم النَّبيِّين» قال ابن عطية: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفا وسلفا متلقاة على العموم التام مقتضية نصا أنه لا نبى بعده ﷺ)[(٢)].

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى وأنه لا نبى بعدى وسيكون خلفاء فيكثرون)[(٣)]. أى أن الخلفاء فى الأمة المحمدية سيقومون بمهمة الأنبياء فى قيادة الأمة كما أن العلماء يقومون بمهمة الأنبياء فى البيان والتبليغ.

(٣) عن جابر بن عبدالله أن النبى ﷺ قال: (أنا قائد المرسلين ولا فخر وأنا خاتم النبيِّين ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر)[(٤)].

(٤) وأخرج الحاكم قوله ﷺ (أن الرسالة والنبوة قد إنقطعت، فلا رسول بعدى ولا نبى، ولكن المبشرات رؤيا الرجل المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة)[(٥)].

(٥) عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ (إن الله زوى لى الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها...) إلى أن قال (وأنه سيكون فى أمتى كذابون كلهم يزعم أنه نبى وأنا خاتم النبيِّين لا نبى بعدى)[(٦)]. وقد أثبت العلماء: المحدِّثون منهم والمفسرون

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣ ص٤٩٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى/ جـ١٤ ص١٩٦.

(٣) رواه البخارى فى الصحيح جـ٥ ص٢٠٦ ومسلم فى الصحيح جـ٣ ص١٤٧١.

(٤) رواه أحمد جـ٤ ص٢٧ عن المصدر السابق.

(٥) أورده السيوطى فى صحيح الجامع برقم ١٦٣١ وقد عزاه لمسند الإمام أحمد وسنن الترمذى والحاكم.

(٦) رواه أبو داود فى سننه جـ٤ ص١٣٨ والترمذى جـ٦ ص٤٦٦ وقال حديث صحيح وأحمد فى مسنده جـ٥ ص٢٧٨.

التواتر القطعى لأحاديث انتهـاء النبوة وختمها بنبوّة المصطفى ﷺ قـال ابن كثير رحمه الله (وقد صح عن رسول الله ﷺ بنقل الكواف التى نقلت نبوته وكتابه أنه أخبر أنه «لا نبى بعده»)(١).

ومن ثم فعـقيدة خـتم النبوة والرسالات بـنبوة ورسالة سـيدنا محـمد ﷺ هى من الأصول الإيمانية ومن المبادىء الرئيـسيَّة لعقيدة النبـوة فى الإسلام التى يكفر ويخرج من الملة من يكذب بها.

(١) ابن كثير. التفسير جـ٣ ص٤٩٣.

الفصل الرابع

وجوب حب الرسل والأنبياء صلى الله عليهم وسلم بعامة وحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بخاصة

الإيمان بالله عز وجل من أعمال القلوب، فقد قال رسول الله ﷺ «الإسلام علانية والإيمان فى القلب» وقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الإيمان باعتباره عملا قلبيا بأنه يتمثل فى حب الله والخشية منه والرجاء فى رحمته سبحانه.

ولا يكفى أن يحب العبد ربه سبحانه ليكون مؤمنا، بل يجب أن يكون حبه لله عزوجل أشد من حبه لكل ما ومن سواه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(1) فمن أحب أحدا أو شيئا أشد من حبه لله تعالى أو مثل قدر حبه لله تعالى فقد جعله ندا لله عزوجل وهذا ليس من المؤمنين، لأن المؤمن يكون حبه لله عزوجل أشد من حبه لسواه، وهذا من أصول التوحيد.

والحكم فى حب رسول الله عز وجل كالحكم فى حب الله تعالى، إذ يجب أن يكون حب المؤمن لرسول الله تعالى أشد من حبه لغيره من الخلق قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ

(1) [البقرة: 165].

كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١) وهكذا حكَمَ الله تعـالى بالفسق على من كان حبه للأهل والعشيرة والمال أشد من حبـه لله تعالى ورسوله ﷺ ومن جـهاد فى سبيله .

وكذلـك جعل رسـول الله ﷺ حقـيقـة الإيمان وجوهره فى حب المؤمن لله تعـالى ولرسـوله ﷺ أشد من حب العبـد لنفسـه إذ قال (لا يـؤمن أحدكم حـتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)(٢).

فالحكم بالنسـبة لحب رسول الله ﷺ هو نفس الحكم بالنسبة لحب الله تعالى، إذ لا يصح إيمان المؤمن إلا بأن يكون الله تعـالى ورسـولهﷺ أحب إليه من كل شيء حتى من نفسه.

وحيـث أن من مبـادىء ومقـتضيات الإيمان بالرسل والأنبـياء عـدم التفـريق بين الرسل، فـإنه يلزم من هذا أن يكون من مقـتضـيات ومبـادىء الإيمان بالرسل حـبهم جـميـعا، فكمـا لا نفرق بينـهم فى التصـديق برسالاتهـم، كذلك لا نفـرق بينهم فى حـبهم، وهذا لا يمنع أن يكـون حب المسلمين لرسول الله ﷺ أشـد من حـبهم لسـائر الرسل لمكانته الفريدة بينهم عليهم جميعا الصلاة والسلام، ولكونه نبيَّهم وهم أمته.

ويمكن صيـاغة هذا المبدأ بالقول بأن من مـقتضيات الإيمـان بالرسل حبهم جمـيعا بعامة وحب رسول الله ﷺ بخاصة.

وهذا معناه أن من يكـره الأنبياء والرسل كـافر بالله عز وجل وبرسله، كـما أن من يكره بعض الأنبياء ويحب بعضهم يكون كـافرا أيضا بمقتضى المبدأ الأول الذى يُلزم بعدم التفريق بينهم.

كذلك يكون كافـرا بالله تعالى ومكذبا برسله جميعـا من يكره الرسول الخاتم ﷺ كاليهود والنصارى حتى لو زعموا إيمانهم بإبراهيم وبموسى وعيسى عليهم السلام.

(١) [التوبة: ٢٤].

(٢)رواه البخارى: فتح البارى مجلد (١) ص٥٨ حديث رقم ١٤.

الفصل الخامس

وجوب موالاة الرسل والأنبياء صلى الله عليهم وسلم وأتباعهم بعامة وموالاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وأمته بخاصة

المحبة والولاء قريبان، فكما أن من أصول الإيمان بالله تعالى ورسله ومن لوازمه ومقتضياته حب الله تعالى ورسله، فإن من هذه الأصول ومن هذه المبادىء أيضا موالاة الله عز وجل ورسله، وموالاة أصحاب الرسل ومن إتبعهم بإحسان وموالاة المؤمنين بالله تعالى ورسله.

وجوهر معنى الموالاة هو الإنتماء.

والإنتماء شعور الفرد بأنه واحد من أمة يتمسك بها تمسكه بحياته، ويشعر أنه جزء لا يتجزأ من هذه الجماعة، يرتبط معهم برباط العقيدة والهدف والمصير، يهمه أمرهم، ويوقن بأن نصرهم نصر له وهزيمتهم هزيمة له، وعزهم عزٌّ لَه، وذلهم ذل له. يفرح إذا كانت الأمة فى سراء ورخاء وخير، ويحزن إذا أصابها ضراء أو شر.

ومن ثم يكون مستعدا للتضحية بماله ونفسه وأبنائه فى سبيل عزة أمته ونصرها ودفع الضر والذل عنها.

ويصاحب هذا الشعور فى نفسه شعور آخر بالكراهية والعداء والبراء من كل أمة أو جماعة تعادى أمته التى ينتمى إليها.

فالولاء والبراء أحد الأصول الإيمانية التى تقوم عليها وحدة الأمة الإسلامية، وهما وجهان لحالة نفسية واحدة هى الإنتماء، ولا يصح إيمان المسلم إلا إذا كان ولاؤه لله ولرسوله ولإمته، وكذلك لا يصح إيمانه إلا إذا تبرأ من كل أعداء أمته ومن كل الطواغيت المعبودة من هذه الأمم المعادية.

وبالنسبة لأصل الولاء للرسل نقول أنه لا تصح عقيدة المسلم فى الرسل إلا إذا كان فى قلبه إنتماء لرسل الله تعالى وللأتباع الصادقين لهم بعامة وللرسول الخاتم ﷺ وصحابته ومن إتبعهم بإحسان بخاصة.

ويتمثل إنتماء المسلم للرسل والأنبياء بعامة فى شعُوره بأنه ينتمى إلى جماعة الحق وحزب الله الذى بدأ بآدم ثم شيث ثم نوح عليهم السلام ثم من جاء بعد نوح من الأنبياء والرسل والمؤمنين حتى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليهم جميعا وسلم، أى يكون عنده الوعى بأنه ينتمى لأمة الإسلام الممتدة خلال الزمان، والتى قادتها وزعماؤها الأنبياء والرسل بدءاً بآدم ونوح عليهما السلام، والتى تصارع الكفر والشرك والشر والباطل فى الأرض على مر الزمان، والتى تتمثل الآن فى الشعوب الإسلامية التى فقدت وحدتها كأمة بعد سقوط الخلافة، ومن ثم أصبحوا مُستضعَفين فى الأرض تتكالب عليهم الأمم من الكفار والمشركين المستكبرين فى الأرض.

ولهذا فالمسلم المنتمى لأمته حزين ومتألم لحال الأمة المتردى، يجاهد بكل الوسائل المشروعة والممكنة لكى تعود للأمة وحدتها أى خلافتها، لتعود عزيزة كما كانت، موقنا بأنه من حزب الله الذى كان على رأسه دوما الأنبياء فى كل زمان ومكان.

فالولاء للرسل يعنى أن المؤمن بهم لايقبل زعامة من غيرهم أو من غير أتباعهم الصادقين.

إن مبدأ أو أصل عدم التفريق بين الرسل ينسحب على مبدأ الولاء للرسل أيضا كما إنسحب على مبدأ حب الرسل عليهم السلام جميعا.

ومن ثم يكون من صحة إعتقاد المسلم فى الرسل عدم التفريق بينهم فى الولاء، وحيث أن اتباع الرسل الحقيقيِّين هم المسلمون الذين ينتمون إلى الرسول الخاتم ﷺ،

فإن موالاة الرسول الخاتم ﷺ هى موالاة لكل الرسل، كما أن التبرأ من رسول الله الخاتم ﷺ هو تبرأ ومعاداة لكل الرسل والأنبياء، وذلك لأنه قائد المرسلين وخاتم الأنبياء، حسب ما رواه عنه جابر بن عبدالله قال: إن النبى ﷺ قال (أنا قائد المرسلين ولا فخر وأنا خاتم النَّبيِّين ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر)[1] فقيادته عليه الصلاة والسلام للمرسلين قيادة لأمة الإسلام خلال الزمان ومن ثم فموالاته موالاة لجميع الرسل والأنبياء.

وعلى هذا فمن مبادىء وشروط الإيمان بالنبوة فى عقيدة الإسلام موالاة الرسل والأنبياء السابقين على رسول الله ﷺ بعامة ومن ورد ذكر أسمائهم وقصصهم فى القرآن الكريم والسنة بخاصة. والدليل على أن موالاة الرسول ﷺ وموالاة المؤمنين بعد موالاة الله عزوجل أصل ومبدأ من أصول عقيدة النبوة فى الإسلام بحيث يخرج من الملة من يخرج على هذه المولاة، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

وهكذا نجد فى الآية الأولى إقتران حب الله تعالى بالإنتماء للمؤمنين. هذا الانتماء المتمثل فى أن يكون العبد ليِّناً خاضعا للأمة قيادة وأفرادا خافضا لهم جناح الذل مجاهدا فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله وعزة الأمة الإسلامية.

فحزب الله تعالى هم المؤمنون الذين ولاؤهم لله تعالى وللرسولﷺ وللذين آمنوا.

وتضمنت الآية الثالثة نهى المؤمنين عن أن يجعلوا من الكفار ومن مشركى أهل

(١) رواه أحمد فى مسنده جـ١ ص٢٧.

(٢) [المائدة: ٥٤ ـ ٥٧]

الكتاب أولياء، فلا يكون انتماؤهم لهم بأى وجه من الوجوه، بل لا يكون لهم إلا العداء لأنهم ليسوا من حزب الله تعالى المتمثل فى أمة الإسلام، ومن ثم فهم من حزب الشيطان وهم أعداء الأمة.

ولذلك يعتبر المنتمى بقلبه إلى أمة مخالفة لأمة الإسلام فى العقيدة والدين، هذا الذى يتخذ أبناءها وزعماءها أولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين، يعتبر كافرا كفرا مُخرجًا له من الملة الحنيفيَّة، مُدْخلاً له فى الملة التى ينتمى إليها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

أما أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم أتباع موسى وعيسى فقد أثبت الله تعالى كفرهم الاعتقادى بالغلو فى الدين وتأليه الأنبياء، وأثبت أيضا كفرهم المتمثل فى ولائهم للطاغوت وعدائهم لله عز وجل ولرسول الله ﷺ الذى هو عداء لكل رسل الله عز وجل وأنبيائه صلوات الله عليهم جميعا. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٢).

فقد أخبرنا ربنا عز وجل ببراءة داود وعيسى بن مريم عليهما السلام من الذين كفروا من بنى إسرائيل، وهذا يفيد براءة سائر أنبياء بنى إسرائيل منهم، وتَبَرُّؤ داود وعيسى بن مريم عليهما السلام قد تمثل فى لعنهم أولئك الذين كفروا من بنى إسرائيل، لأن اللعن أوضح صور التبرؤ، وأصرح تعبير عنه.

---

(١)[المائدة: ٥١]. (٢) [المائدة: ٧٧ ـ ٨١].

وفى الآية الأخيرة من هذا السياق جاء الكلام عن المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء ، فأثبت الله تعالى كفرهم بالله تعالى والنبى ﷺ بدليل اتخاذهم اليهود أولياء، وإنما هم منُافقون لإعلانهم الإيمان بألسنتهم، ولكن جاء اتخاذهم اليهود أولياء دليلاً ساطعا على نفاقهم ونفيا لإيمانهم بالله تعالى وبنبيه ﷺ وبأن أكثرهم فاسقون. وعلى هذا فولاء من يدعى الإيمان لأعداء الله تعالى دليل على كذبه وهو دليل واضح على الكفر ويثبت نفاق هذا المدعى، إن كان ممن يعلنون الإسلام ويزعمون الانتماء لأمته.

جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية الأخيرة من السياق [قال مجاهد: يعنى بذلك المنافقين](1) أى لو كان المنافقون يؤمنون بالله والنبى ما اتخذوا أهل الكتاب الذين كفروا أولياء، أى لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما إرتكبوا موالاة الكافرين فى الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبى وما أنزل إليه، وذلك لأن موالاة الكافرين لا تكون إلا بمعاداة المؤمنين ومعاداة المؤمنين ليست سوى الوجه الآخر من موالاة الكافرين.

ومن ثم تكون موالاة الله تعالى ورسوله الخاتم ﷺ لكل رسله ومعاداة نبى أو رسول من الرسل معادة لكل الرسل والأنبياء.

إن الولاء الأول الذى يكتسبه الإنسان فى طفولته إنما يكون لوالديْه ثم لأسرته، ثم لقبيلته أو عشيرته، ثم لقومه وأهل وطنه أو شعبه، وقد شاء الله تعالى هذا ليبتلى العباد، إذ يقتضى الإيمان بالله ورسله أن يجعل العبد المؤمن ولاءه لله تعالى ولرسله، هذا الذى يتمثل فى الولاء للرسول الخاتم صلى الله عليهم جميعا وللمؤمنين به، أى لأمة الإسلام ومن ثم جعل الله تعالى إبراهيم أبا للمؤمنين المسلمين وأوجب على كل مسلم أن يجعل ولاءه الأول له باعتبار أنه أبٌ لكل المسلمين وبإعتبار كونه أبا لكل الأنبياء والمرسلين من بعده لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام صاحب الملة قال تعالى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾(2).

---

(1) ابن كثير. (2) [الحج: ٧٨].

إن وصف المولى عــز وجل خليله إبراهيم عليـه الصلاة والســلام بالأبوة لكل المسلمين منذ عهـده إلى يوم القيامـة يقتضى من كل مـسلم أن يجعل إنتمـاءه لأسرة المؤمنين التى جـعل الله تعالى خليله إبراهيم أبا لـها قبل إنتـمائه لأسـرته أو قبـيلته أو شعبه أو قوميـته التى ينتمى إليـها، فإن كانت أسـرته أو قبيلتـه أو شعبه أو قـومه من المسلمين مـثله، فانتـمـاء الجمـيع كأبناء لأبيـهم إبراهيم هو إنتـماء الإيمان فـهم أبناء إبراهيم عليه السلام فى الإيمـان وتحت قيادة وزعامة رسول الله الخـاتم ﷺ قائد حزب الله تعالى.

أما إذا كـانت أسرته أو قبيلته أو قومـه غير مـسلمين فيجب أن يكـون بريئا منهم منتميا لأمة الإسلام التى أبوها إبراهيم الخليل ورسول الله الخاتم ﷺ رسولها وزعيمها وقائدها. قـال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾(١). وقال تعـالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(٣).

---

(١) [الزخرف: ٢٦]. (٢) [التوبة: ١١٤]. (٣) [الممتحنة: ١ ـ ٦].

وهكذا بيَّن الله تعالى لنا فى هذا السياق الكريم تَبَرُّؤ إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه من آبائهم وعشيرتهم وقومهم بعد أن تبيَّن لهم أنهم أعداء لله عزوجل وجعلوا ولاءهم لله تعالى ولأنفسهم أى للأمة الإسلامية المتمثلة فيهم ومن ثم صار إبراهيم عليه السلام أبا لكل مسلم إلى يوم الدين.

ولذلك جعله الله تعالى ومن معه أسوة حسنة لكل جماعة مسلمة فى عبادة الله تعالى بعامة وفى التبرؤ من الكافرين ولو كانوا الأهل والعشيرة واتخاذ المؤمنين أولياء بخاصة.

وجاء هذا السياق توضيحا بالمثل وبالأسوة للنهى الإلهى الذى بدأ به متمثلا فى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

إن رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة على الإطلاق لكل مسلم ومن معه من الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين هم الأسوة لكل جماعة مسلمة مؤمنة، وهم الجماعة المؤمنة المسلمة التى لا يجوز الانتماء لغيرها إلى يوم القيامة، ومن ثم لا يجوز للمسلم أن يجعل ولاءه لأحد إلا لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، وبذلك يكون ولاؤه للرسل والأنبياء أجمعين بقيادة رسول الله صلى الله عليهم جميعا وسلم الأمر الذى لا تصح عقيدة المسلم فى النبوة إلاَّ بِه. وبالتالى لا تصح عقيدته فى سائر الأركان إلا به أيضا.

الفصل السادس

الإعتقاد بوجوب طاعة الرسل صلى الله عليهم وسلم بعامة وطاعة رسول الله الخاتم صلى الله عليه وسلم بخاصة

إن الأحكام أو الأصـول السابقة لـلإيمان بالرسل والأنـبياء تقـتضى جميـعا أصلا رئيسا وهاما لا تصح عقيدة المسلم فى النبوة إلا به، ومن ثم يؤدى رفض الإقرار بهذا الأصل إلى الكفر بالنبوة، وهذا بدوره يعنى الكفر البواح والخروج عن الملة.

ذلك الأصل الرئيسى والهام هو الإعتقاد بوجوب طاعة الرسل والأنبياء.

فمن لوازم التصديق بأن الأنبياء والرسل مُبَلِّغُون أوامر ونواهى ربِّهم عز وجل أن يعتقد المسلم بوجوب طاعة من أرسله الله تعالى بشرعه إلى الناس، لأن طاعة الرسول أو النـبى فيـما يُبَلِّـغ عن ربه هـى طاعة لله عـز وجل، فمن زعـم أنه صدَّق وآمـن بأن محمداً بن عبدالله بن عبدالمطلب الـهاشمى ﷺ هو رسول الله عزوجل، وهو يعتقد أن طاعته غير واجبة عليه، فهو كاذب فى زعـمه، وليس هذا الزعم أو الشهادة التى نطق بها إلا نفاقا.

ويجب أن نمـيِّز ونفرق بـين عبارة «الاعتقـاد بوجوب طاعة الـرسل بعامـة وطاعة رسول الله الخاتم ﷺ بخاصـة» وبين عبارة «طاعة الرسل وطاعـة الرسول ﷺ واجبة» من حيث أن الأولى عنصر رئيسى من عنـاصر العقيدة الإسلامية لا تتم ولا تصح إلا

بها[١] . أما الثانية فهى حكم تطبيقى تنفيذى لا يتساوى فى القيام به المسلمون. فمن إعتقد بوجوب طاعة الرسول ﷺ، ثم قصَّر فى الطاعة فخالف أمراً أو ارتكب محرَّما فهو مسلم مؤمن أصاب ذنوبا ولو كانت كبائر.

أما من إعتقد بأن طاعة الرسول ﷺ ليست واجبة، وأنه مخيَّرٌ بين أن يأخذ ببعض ما أمر به أو أن يترك البعض الآخر، وبين أن يَنْتَهِى عن بعض ما نهى عنه وبين أن يفعل البعض الآخر، فهو غير مسلم وغير مؤمن.

وبتعبير آخر نقول: إنَّ من جعل لنفسه الاختيار بين الأوامر وبين النواهى مُعتقداً أن من حقة هذا الإختيار، وأن شرع الله تعالى الذى بلَّغه رسُول الله ﷺ غير واجب التنفيذ والتطبيق فى واقع الحياة، فهو كافر كفرا بواحا مخرجا له من الملة، حتى لو كانت أكثر أفعاله موافقة لما أمر به الرسول ﷺ.

فالإعتقاد بوجوب طاعة الرسل أمر إعتقادى قلبى، فهو من جوهر التوحيد فى الإسلام.

والأفعال الموافقة للطاعات - إذا صدَرْتْ عن العبد بغير نية الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ - فهى ليست عبادة ومن هنا كانت الأعمال بالنيات.

أما السلوك الصادر عن المؤمن الذى يأتى مرة موافقا لشرع الله تعالى ولما أمر رسوله ﷺ فيكون طاعة، ويأتى مرة أخرى مخالفا، فيكون معصية، فإنه يكون فى الحالة الأولى عبادة ما دام قد صدر عن العبد بنِيَّة الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، ويكون فى الحالة الثانية مجرد معصية، إذا صدرت عن العبد وهو مقر بقلبه أنه معصية، وأنه كان يجب عليه أن يَتَجنبَّه، أما إذا فعله وهويستحسنه ولا يقر بتحريمه وقُبحه، رغم علمه بتحريم وبتقبيح الشرع له، فإنه يكون كافرا بالرسول ﷺ غير صادق فى زعمه بأنه يشهد بصدق رسالته، ومن ثم فهو كافر بالله تعالى خارج عن الملة.

---

(١) لأنها اعتقاد قلبى ومن ثم يتساوى فيها كل من ينطق بالشهادتين لأن هذا الاعتقاد القلبى واحد لا يتجزأ ولا يتبعض ولا يزيد ولا ينقص ،وإنما الذى يزيد وينقص هو الحكم التطبيقى التنفيذى، حيث يزيد بقدر الطاعات وينقص الإيمان بمقتضى هذا الحكم بقدر المعاصى أو التقصير فى الطاعات.

بينما العبد العاصى المقر بمعصيته مسلم يغفر له الله تعالى معصيته بالتوبة، وإن كانت من الكبائر، وإن مات بدون توبة، فأمره إلى الله تعالى، إن شاء عذبه عليها عذابا مؤقتا ، ثم يكون مصيره الأخير إلى الجنة، وإن شاء غفر الله تعالى له وأدخله الجنة بدون عذاب. ويتساوى فى هذا الحكم صاحب الذنوب الصغيرة ومرتكب أكبر الكبائر عدا الشرك بالله عزوجل.

ومرجع هذا كله فى عقيدة الإسلام أن الله تعالى لم يرسل رسولا إلاَّ ليطاع بإذنه تعالى. فطاعة الرسل طاعة لله تعالى، ومعصيتهم معصية لله عزوجل قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(1).

ومن ثم فإن الاعتقاد بوجوب طاعة الرسل أصل رئيسى وهام من أصول الإيمان بالرسل، بل هو الثمرة الرئيسة لهذا الإيمان، وبدون هذه الطاعة لا يتم توحيد الألوهية وإفراد الله تعالى بالعبادة، إذ لا تتم تقوى الله عزوجل وعبادته إلا بطاعتهم، وقد أمر الله تعالى كل قوم بطاعة رسوله تعالى إليهم وبلغ كل رسول قومه بهذا الأمر، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(2). إذ أن تقوى الله تعالى لا تتم إلاَّ بطاعة رسله.

وقال تعالى أيضا ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(3) وقال تعالى أيضا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(4) وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(5) وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(6).

---

(1) [النساء: ٦٤].
(2) [الشعراء: ١٠٥ ـ ١١٠].
(3) [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٦].
(4) [الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٤].
(5) [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٣].
(6) [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٩].

وقد تكرر أمر الله تعالى فى القرآن الكريم بطاعة رسوله المصطفى الخاتم ﷺ مقرونا بأمره تعالى بطاعته هو سبحانه قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(١) أى فمن يرفض الإقرار بوجوب طاعة الرسول ﷺ فهو من الكافرين الذين لا يحبهم الله عزوجل ، ومن ثم فهو لا ينال رحمته سبحانه قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٢) فلا سبيل إلى رحمة الله عزوجل إلا بطاعة الرسول ﷺ.

إن أمر الله تعالى باتباع الرسول هو أمر بالطاعة الدائمة فى كل ما أمر وكل ما نهى وكل ما فعل إقتداءً به عليه الصلاة والسلام، فالطاعة والاتباع لازمان للحب والمولاة قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(٣) فطاعة رسوله لابد أن تكون مقرونة بحبه وموالاته والرضا بما حكم به رسوله فى أية خصومة أو أية قضية أو فتوى بحيث لا يكون فى نفس المسلم المؤمن حرجًا من حكمه أو فتواه ﷺ قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٤).

فحب الله تعالى وموالاته يقتضيان طاعته وكذا حب رسوله وموالاته يقتضيان طاعته والرضا بحكمه، وحب المؤمنين وموالاتهم يقتضيان طاعة أولى الأمر منهم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(٥) فمن لم يقر بوجوب طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ليس بمؤمن ومن رضى بطاعة غير الله تعالى رافضا طاعة الله أو رَضىَ بطاعة غير رسوله زاعما أنها طاعة لله تعالى فهو منافق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ

(١) [آل عمران: ٣٢].
(٢) [آل عمران:١٣٢].
(٣) [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢].
(٤) [النساء: ٦٥].
(٥) [النساء: ٥٩].

إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٥] فالتحاكم إلى غير حكم الله ورسوله ينفى الإيمان عن فاعليه، والذى يجد فى نفسه غضاضة وعدم رضا أو سخط على حكم رسول الله ﷺ فى خصومة بينه وبين غيره أو فى حكم عام عديم الإيمان حتى لو كان خصمه يهوديا وقد حكم القاضى لليهودى ضده. فتكون علامة إيمان هذا المسلم المحكوم عليه لصالح اليهودى الرضا التام بهذا الحكم والتسليم التام به وتنفيذ هذا الحكم طاعة لرسول الله ﷺ لأن طاعته من طاعة الله عز وجل والمسلم هو الذى يسلم بحكمه ويؤمن بأن طاعته واجبة.

الفصل السابع

وجوب توقير الرسل عليهم السلام ونصرتهم بعامة وتوقير ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخاصة

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(١) .

والشاهد لموضوعنا فى هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى: «وعزرتموهم» أى نصرتموهم ووقرتموهم قال ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة:

[عزر: العين والزاى والراء كلمتان: إحداهما التعظيم والنصر، والكلمة الأخرى جنس من الضرب فالأولى: النصر والتوقير كقوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ والأصل الآخر: التعزير وهو الضرب دون الحد](٢).

فمعنى قوله تعالى: ﴿آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أى صدقتموهم فيما يأتونكم به من الوحى، وعزرتموهم أى نصرتموهم وآزرتموهم ووقرتموهم. إذ النصر والمآزرة للرسل لا تكون إلا مع تعظيم أمرهم وتوقيرهم وتفخيمهم.

---

(١) [المائدة: ١٢].

(٢) ابن فارس/ معجم مقاييس اللغة جـ٤ ص٣١١.

وهذا من أصول الإيمان ولا تخلو نفس مؤمنة بالله تعالى ورسله من إكبارهم وتوقيرهم، ومن خلت نفسه من هذا، فهو غير مؤمن، والدليل على صحة هذا الحكم هو إقتران تعزيرهم فى الآية بالإيمان بهم فى قوله تعالى ﴿آمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فمن لم يصدق الرسل ومن لم يعزرهم أى يوقرهم ويعظمهم وينصرهم فهو كافر بهم وكافر بالله عزوجل.

وتنص الآية الكريمة على أن الله تعالى أخذ الميثاق على بنى إسرائيل بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل جميعا وتوقيرهم ونصرتهم، فنقضوا هذا العهد وقتلوا الأنبياء وآذوا الرسل بالسب وبنسبة مالا يليق بهم من الأوصاف والأفعال، وهذا من كفرهم. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة/ ٧٠]

وإذا كان هذا الحكم واجبا بالنسبة لرسل الله تعالى بعامة فهو أوجب بالنسبة لرسول الله ﷺ بخاصة. قال تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

وما يمكن إستنباطه من معانى وأحكام من هاتين الآيتين الكريمتين ما يلى:

١ ـ إن الذين اتبعوا رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى هم الذين فازوا برحمة الله تعالى فى الآخرة وبتحريرهم من الأغلال التى كانت عليهم فى الدنيا.

(١) [المائدة: ١٣]. (٢) [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

٢ـ إن الذين آمنوا من اليهود والنصارى وكذلك كل من آمن برسول الله ﷺ فى كل زمان ومكان إلى قيام الساعة هم المفلحون.

٣ ـ الإيمان بالرسول الخاتم ﷺ يتبعه ويصاحبه ويلزم عنه بالضرورة.

أ ـ تعزيره أى توقيره وتعْظيم أمره.

ب ـ نصرته بالنفس والولد والمال.

جـ ـ إتباع النور الذى أنزل معه أى الاعتقاد بوجوب طاعته، فهذه أمور ثلاثة إذا وجد أحدها فى النفس وجدت الأخرى، فهى متلازمة فى نفس العبد، ولا تنفصل: التصديق بأن سيدنا محمداً بن عبدالله بن عبدالمطلب هو رسول الله الخاتم ﷺ وأن ما نزل عليه هو كتاب الله تعالى. وهذا التصديق يلزم عنه توقيره وتعظيم أمره وتفخيمه ﷺ.

كما يلزم عنه نصرته والجهاد لاقامة دينه أو على الأقل الاعتقاد بوجوب الجهاد لنصرة شرعه وإعلاء كلمة الله تعالى التى نزلتْ عليه بتنفيذ حكمه سبحانه وتعالى.

ثم الاعتقاد بوجوب طاعته واتباعه بناء على الاعتقاد بأن ما جاء به هو النور الذى نزل عليه من ربه لهداية الناس، وأن ما يخالفه هو الظلام والباطل والضلال.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ⑧ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(١). وهنا أيضا ورد الأمر بالإيمان بالله ورسوله مع التعزير والتوقير والتسبيح لله عزوجل، وقد اختلفت أقوال المفسرين فى هذه الآية إلى قولين قول الضحاك: أن الضمير فى قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ عائد على رسوله ﷺ، والضمير فى قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ عائد على لفظ الجلالة، وقد إختار الطبرى هذا القول.

والثانى: ان الضمائر كلها فى قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ عائدة على لفظ الجلالة أى على الله عزوجل. وقد اختار هذا القول البيضاوى وأبو السعود.

(١) [الفتح: ٨، ٩].

وسواء رجح القول الأول أم رجح الثاني فإن الأمر بتوقير وتعظيم الرسل بعامة ورسول الله ﷺ بخاصة ثابت بالنَّصَّين السابقين على هذا النص.

وحسب القول الأول فإن معنى قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تفخموه وتعظموه ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تحترموه وتجلوه وتحترموا أمره مع التعظيم والتكريم ، وهذا واضح بيِّن ثابت من جمع الأمر بتعزيره مع الأمر بتوقيره مع أن التوقير داخل فى معنى التعزير كما دلت على ذلك معاجم اللغة العربية.

وعلى هذا فتوقير الرسل ونصرتهم وتفخيمهم وتعظيمهم من أصول الإيمان بهم، ويكفر ويخرج عن الملة من ينقضه، أو يفعل ما يخالفه أيَ يحاول التقليل من شأنه وشأن الرسل والأنبياء صلى الله عليهم جميعاً وسلم.

فمن قال قولا أو أبدى فعلا فيه سخرية من رسل الله تعالى أو حتى مجرد أذى بالقول أو بالفعل على رسول الله ﷺ فهو كافر كفراً بواحا مخرجا له من الملة. أما إذا كان ممَّن يعيشون بين المسلمين ويعلن إسلامه وبدر منه شيءٌ من ذلك فهو منافق ودلَّ ما بدر منه على النفاق الذى فى قلبه.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

وتفسير الآية: ومنهم أى من المنافقين من تلفظ بقول فيه أذى للنبى ﷺ ألا وهو قولهم أنه ﷺ يُصَدِّقُ ما يقال له عنا، ويصدق كل من يحدثه، فإذا جئناه وحلفنا له صدَّقَنَا، قال تعالى ردًا على قولهم هذا ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أى هو أُذن خَير يميز بين الصدق والكذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى يصدق المؤمنين ولا يكذب أحدا منهم، أى من المنافقين، بلا دليل على كذبه.

والحكم الذى نريد أن نصل إليه فى موضوعنا هو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذاب المنافقين.

(١) [التوبة: ٦١].

فمن يؤذى رسول الله ﷺ فهو كافر أو منافق. ودليل ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(١). روى ابن كثير رحمه الله فى تفسيره قول ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآية نزلت فى الذين طعنوا على النبى ﷺ فى تزوجه من صفية بنت حى بن أخطب رضى الله عنها(٢) ولكن الآية عامة فى كل من آذاه بشىء حسب قاعدة التفسير الشهيرة التى تقول: العبرة بعموم المعنى لا بخصوص السبب.

ومع أن سبب نزول الآية كان فى أذى النبى، إلاَّ أن أى أذى للنبى هو أذى لله تعالى بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾ فمن أذاه فقد أذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله. كما قال رسول الله ﷺ [الله الله فى أصحابى لاتتخذوهم عَرَضا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبَّهم، ومن أبغضهم فبيغضى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه](٣).

فالأذى القولى للرسول أو للرسل صلى الله عليهم جميعا هو ما يناقض التعزير والتوقير والاحترام. وسواء أكان سخرية أم شتما وسبًّا فهو كفر ونفاق.

---

(١) [الأحزاب: ٥٧].
(٢) ابن كثير/ التفسير.
(٣) أخرجه أحمد والترمذى/ عن تفسير ابن كثير.

الباب السادس

النبوة والتفسير الإسلامى للتاريخ

الفصل الأول: تفسير التاريخ بين الإسلام والجاهلية.

الفصل الثانى: مجمل تاريخ البشرية فى ست آيات بينات.

الفصل الثالث: الخطوط العريضة لتاريخ البشرية من خلال سير الأنبياء والمرسلين.

الفصل الرابع: النبوة فى القرآن الكريم وتقدير عمر البشرية.

الفصل الأول

تفسير التاريخ بين الإسلام والجاهلية

الإيمان الحق بالكتب والرسل فى الإسلام يقتضى الإيمان بالنبوة كحقيقة إنسانية بدأت بآدم وآنتهت بمحمد عليهما الصلاة والسلام، والتصديق بأن بينهما كثيراً من الرسل والانبياء خلال عمر البشرية الطويل، مع التصديق بكل ماورد فى الكتاب والسنة من أخبار وحقائق وتفسير لتاريخ البشر عن طريق النبوات والرسالات السماوية كأعظم مؤثر فى الأحداث التاريخية وكعوامل رئيسية وفعالة فى بناء الحضارة الانسانية.

بعد العلم بهذه الحقيقة الواضحة عن تخلل الرسالة السماوية فى التاريخ البشرى منذ نشأته إلى نهايته، فإنه لا يصح تفسير التاريخ الإنسانى، مالم يقم أساسا على حقيقة النبوة كعامل أول ورئيسى وفعّال فى توجيه الاحداث التاريخية.

ويختلف فلاسفة التاريخ والمؤرخون فى مناهج تدوين وتفسير التاريخ باختلاف عقائدهم ومذاهبهم.

فالملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يفسرون التاريخ من منطلقات مادية صرفة. ومن أمثلة هذه التفسيرات «المادية التاريخية» لكارل ماركس، إذ يعلل ماركس أحداث التاريخ بالصراع بين الطبقات فى داخل المجتمع الواحد سعيا من

الطبقات الكادحة المظلومة إلى إسترداد حقوقها المسلوبة من الطبقات الاقطاعية أو الرأسمالية والحكام الظالمين.

كما يعلل أحداث الصراع بين الدول والمجتمعات وما يحدث من حروب محلية وعالمية بسبب الصراع بين الاشتراكية وبين الاستعمار والرأسمالية. أى أنه ـ حسب عقيدته فى الكون والحياة والإنسان ـ يفسر تاريخ الإنسانية بأنه تاريخ البحث عن الطعام، ويجعل المحرك الرئيسى للتاريخ وسائل الإنتاج الاقتصادى. والصراع عنده من أجل متطلبات الحياة المادية، وليس عنده متطلبات للحياة الإنسانية سوى العناصر المادية، وما سواها تابع لها ومنبثق منها حتى الاخلاق والدين.

ويرى مؤرخو القرن الثامن عشر والتاسع عشر الاوربيون أن العامل الرئيسى لتحريك الاحداث التاريخية هو الصراع بين القوميات حيث أن اختلاف الناس الى أقوام يجعل منهم قوميات متصارعة، كل قومية تسعى الى الغلبة والسيادة وإخضاع القوميات الأخرى. ولعل تفسيرهم هذا بسبب نشوب الصراع بين القوميات الاوربية خلال هذين القرنين، مما سبب فى كثير من الاحيان الحروب بين الدول الاوربية .

إلا أنه من الواضح والمعلوم الآن أن هذا العامل قد ضعف ـ كسبب للصراع ـ فى العصر الحالى أو بالتحديد بعد الحرب العالمية ـ حيث وصلت القوميات الأوربية إلى صيغة للتفاهم والتعاون فيما بينها بل إلى وجه من وجوه الوحدة فيما بينهم، فيما يعرف بالسوق الاوربية المشتركة والإتحاد الاوربى بالرغم من إختلاف اللغات والعادات والتقاليد وكل المقومات القومية بين شعوب اوربا .

ويرى أرنولد توينبى المؤرخ الإنجليزى الشهير أن تاريخ البشرية هو تاريخ حضارات تنبثق من أديان. ويعلل نشأة وإندثار الحضارة أو سقوطها فى التاريخ بالمحافظة على دينها الذى تأسست عليه أو بالتفريط فيه. ويعلل الاحداث التاريخية بالصراع بين الحضارات المتنافسة على السيادة.

ويعلل النهضة الحضارية للمجتمع بأنها تنشأ وترتفع بسبب إستجابة هذا المجتمع لما يتعرض له من تحديات داخلية وخارجية إستجابة ناجحة، أى أنه إذا ما إستجابت

الامة للتحدى تلو التحدى بنجاح، فإن سلسلة الاستجابات الناجحة للتحديات المختلفة تؤدى إلى إرتقاء هذا المجتمع أو نهضة هذه الامة حضاريا.

وبالمثل تندثر الحضارة أو تفنى عند أمة من الامم بسبب عوامل داخلية وخارجية أهمها تفريط هذه الامة فى دينها مما يجعلها تفشل فى تحقيق الاستجابة الناجحة للتحديات التى تواجهها.

هذا وبالرغم من أنه ـ يجعل الدين أساسا للحضارة، ويثبت لكل حضارة دينها الذى نشأت بسببه ـ إلا أن مفهوم الدين عنده يختلف عن مفهوم الدين السماوى حتى المحرف منها حيث هو قريب من مفهوم الدين بالمعنى اللغوى الواسع إذ يصبح معناه أقرب الى مفهوم الفلسفة مع المنهج والنظام العام. فتكون الماركسية والعلمانية أدياناً بهذا المفهوم عنده، فهو مفهوم لا يتفق مع مفهوم الدين فى الإسلام.

كما أنه يعطى النبى أو الرسول صورة المصلح الإجتماعى أو الفيلسوف أو الزعيم، وليس المفهوم الإسلامى للنبى والرسول. من ثم ينتهى توينبى أيضا ـ فى نظريته لتفسير التاريخ ـ إلى العوامل المادية البحتة كسائر العلمانيين فى الغرب الحديث.

أما تفسير التاريخ فى الإسلام فهو يقوم أساسا على عقيدة التوحيد الإسلامى بعامة وعلى أصول الايمان الستة بصفة خاصة وتحتل عقيدة الإسلام فى الكتب والرسل الصدارة فى هذا التفسير، لأن الاحداث التاريخية ما هى إلا أقدار إلهية نازلة من السماء بمشيئة الله تعالى بناءاً على أفعال بشرية مرفوعة لله عز وجل من الأرض. وقيام حضارة أو إندثارها، انما هو بقدر ألله تعالىّ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١) ذلك أن الله تعالى يقدر للامة الخير والسيادة والنهضة والرقى أو يقدر السوء والضراء والسقوط والفناء بناء على أعمال هذه الأمة من طاعة وايمان أو من كفر ومعصية.

وحتى تقوم الحجة على كل أمة يوم القيامة فإن الله تعالى يرسل اليهم رسله وكتبه بيانا وهدى وحجة. ولذلك عقَّب عز وجل بعد تحديد أجل لكل أمة فى الآية السابقة

(١) الاعراف: ٣٤

بقوله تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١) فإن إستجابوا لرسلهم بالايمان كان هذا إيذانا لهم من الله تعالى بقيادة البشرية والسيادة فى الأرض وتحقيق النهضة الحضارية الكبرى بين الامم.

وإذا لم يستجيبوا كان هذا إيذاناً لهم بالاندحار والاندثار بين الامم، وربما وقعوا تحت سنة الله فى الاستئصال من الأرض، كما حدث لقوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح ، وكما حدث لقوم لوط وقوم شعيب عليهم الصلاة والسلام.

فقيادة البشرية أو وراثة الحكم مرتبطة بالتمسك بالكتاب والتَّصديق بالنبوة. قال تعالى مقرنا الكتاب والحكم والنبوة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾(٢) وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾(٣) فلما تمسكوا بالكتاب واقتدوا بالنبوة وأطاعوها تمكنوا فى الارض بفضل الله فى عهد داود وسليمان عليهما السلام وإستمرت دولتهم قائدة وحاكمة للامم الأخرى، حتى فرَّطوا فى الكتاب وكذبوا الأنبياء وقتلوهم، فلعنهم الله تعالى وشتتهم فى الأرض وبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة وإنتهى بذلك وجودهم كقيادة حضارية للبشر(*).

ومن ثم فالتاريخ البشرى - حسب عقيدة الإسلام - هو تاريخ نُبُوَّات فى المقام الاول.

---

(١) الاعراف : ٣٥ - ٣٦.

(*) لعل قائلا يقول إن اليهود الأن قد ارتفعوا إلى سطح الاحداث كما أن لهم الجذور المحركة لها فى الاعماق بعد أن أصبح لهم التأثير الاكبر فى أمريكا (عن طريق اللوبى الصهيونى) وفى روسيا كذلك وأوربا وهذا مخالف للقول بذلتهم ، وهذا صحيح إلى حد ما، وقد إستثنى الله عز وجل حالة الذلة والمسكنه التى حكم عليهم بها بقوله ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ وحبل الله هو فى تسليط اليهود الملاعين على المسلمين بسبب ترك المسلمين لكتابهم وحبل من الناس بما نراه من عون من الامم القوية الكافرة لهم، أمريكا وروسيا وبريطانيا وغيرهم.

(٢) الإنعام: ٨٩.

(٣) الجاثية : ١٦.

والعلة الرئيسية للاحداث البشرية أو أهم العوامل الرئيسية لتفسير التاريخ هى الصراع بين أهل الحق والإيمان أتباع الرسل فى كل مكان وزمان وبين أهل الباطل والكفر أعداء الرسل فى كل زمان ومكان. فليس العامل الرئيسى هو الصراع بين الطبقات ، كما يرغم الماركسيون، وليس هو الصراع بين القوميات كما يزعم القوميون، وليس هو كذلك صراع - فى المقام الأول - بين حضارات وثقافات كما يزعم بعض العلمانيين وعلى رأسهم أرنولد توينبى، وإنما هو فى المقام الأول صراع بين أتباع الرسل المؤمنين أهل الحق والإيمان، وبين أعداء الرسل الكافرين أهل الباطل أتباع الشيطان. هذا وإن كنا لا ننكر آثاراً أو أدواراً للعوامل الأخرى، إلا أنها آثار جانبية وأدوار ثانوية ربما تظهر فى الفترات التى تسود فيها الجاهلية، لكنها لا ترقى إلى مستوى العامل الرئيسى، عامل الصراع بين الايمان والكفر باعتباره العامل الأهم والفعال دائما.

إن تاريخ البشرية فى الفكر المادى بدأ - حسب زعم أصحاب هذا الفكر - بالتحول من مرحلة الحيوانية (القردة العليا) إلى مرحلة البشرية كما يزعم التطوريون ثم مر بعصور بدائية كعصر الالتقاط والعصر الحجرى والبرونزى وغير ذلك مما لا دليل علمى عليه.

وهم يفترضون - حسب هذا الكلام - أن الإنسان فى رقى دائم لانكسة فيه إلى مراحل سابقة، ويجعلون الارتقاء إلى مرحلة الحضارة الاوربية فى العصر الحديث قمة هذا التطور، وهذا كله باطل لانه مخالف للتاريخ العام للانسانية كما ورد فى القرآن الكريم والسنة الشريفة.

فالإنسان بدأ أول عهده فى الأرض بقمة حضارية عليا تمثلت فى أول البشر وأبيهم آدم عليه السلام، وهو نبى علمه الله الأسماء وأمده بالهدى بعد توبته وندمه على معصيته ونزوله للأرض.

ثم بعد ذلك بعث الله تعالى الانبياء والرسل تترى إلى الناس خلال عهد البشرية الطويل الذى لا يعلم حقبه إلا الله تعالى، قال عز وجل ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الاسراء: ١٧] إن الفتره بين آدم ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويلة

جدا قد تصل إلى عشرات الألوف من الأعوام وربما أكثر، والله أعلم، إذ أن عدد الأنبياء مائة ألف وعشرون الف نبياً، وعدد الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولا أرسلهم الله جميعا للبشر خلال الحقب التاريخية، فإذا علمنا أن المدة الزمنية بين سيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام تصل قريبا من ستة قرون، فكم تكون المدة الزمنية التى تخللها هذا العدد من الأنبياء والرسل ؟!.

وهل يمكن لمؤرخ أو مفسر للإحداث التاريخية أن يتجاهل الرسل والكتب السماوية وأثرها فى رقى الإنسان وتحضره، وأثرها فى الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل؟

إن الله عز وجل لم يترك البشرية بدون عناية ورعاية ورحمة منه وفضل فأنزل إليهم رسله تترى بالهدى والنور يوجهون الناس للخير ويغيرون بهذا كله من مسار التاريخ الإنسانى بحسب إستجابة الناس لهم.

ورحمة من الله تعالى بالأجيال المتعاقبة من البشر كان يستأصل الفاسدين من الأمم الذين أصبح شرهم وفسادهم يشكل خطرا على مستقبل البشرية.

وأثر النبوات فى التاريخ البشرى عام لكل الأمم حتى الذين لايُوجد فى تاريخهم المكتوب أثر للنبوات والرسالات السماوية، قال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(١).

فتاريخ البوذية فى الصين والهند وشرق آسيا الذى يخلو من ذكر النبوة، وكذا تاريخ الفرس، كل هؤلاء لا شك أن الله عز وجل قد أرسل اليهم رسلا ينذرونهم لكنهم حرفوا صورة الرسل حتى أصبحوا مفكرين ومصلحين وحكماء وقضوا على الآثار التى تثبت نبوتهم وطمسوها، ثم أنكروا النبوات جملة. وهذا هو الرأى الارجح بناء على الآية السابقة.

ولعل كونفشيوس كان نبى الصين ،ولعل برهمن الأكبر كان نبى الهنود، وكذا بوذا، ولعل زراد شت كان نبى الله إلى الفرس كما صرح بهذا المسعودى فى مروج الذهب اعتمادا على الآية المذكورة، ولعل أوزوريس معبود المصريِّين القدماء فى

(١) فاطر : ٢٤.

عهد الفراعنة الأولين كان هو نبى الله ادريس كما يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله تعالى فى كتابه «فى ظلال القرآن الكريم». وهكذا نجد أثرا للنبوة: إما صريحاً ولكن محرفا، كما هو الحال عند اليهود والنصارى، وإما مطموساً تماما كما هو عند الصين والهند والفرس قبل الإسلام.

كل هذا يؤكد أن تاريخ البشرية هو تاريخ النبوات، فكل تاريخ يُكتب ويفسر بعيدا عن آثار النبوات وتأثير الرسالات السماوية هو تاريخ غير صحيح.

وكل تفسير للتاريخ لايقوم على أساس الصراع بين المؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر وبين الكافرين بالله ورسله أو الكافرين ببعض رسله فهو تفسير بعيد عن الحق والصواب. ليس هذا بالنسبة للتاريخ القديم السابق على رسالة الرسول صلى الله على وسلم واللاحق له فقط، بل إيضا بالنسبة للتاريخ المعاصر حتى أيامنا هذه، سواء بالنسبة للمسلمين أم لغير المسلمين، لان الصراع قائم ومستمر بين المسلمين وغير المسلمين. وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، باعتبار المسلمين حزب الله وغيرهم من حزب الشيطان، والصراع دائرٌ ومستمر بين الحزبين إلى يوم القيامة.

والعداء مستمر بين الرسل واتباعهم وبين حزب الشيطان منذ آدم إلى يوم القيامة قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام: ١١٢] فالأنبياء وأتباعهم على مدار التاريخ يحاربون أعداءهم من شياطين الجن والإنس، وسيظل هذا العداء والصراع المبنى عليه قائما بادارة الطاغوت لحزبه ضد حزب الله عز وجل إلى يوم الوقت المعلوم الذى فيه نهاية ابليس الجنى وإبليس الانسى(١) وجنودهما من شياطين الجن والإنس.

وليست أحداث التاريخ البشرى شيئا آخر سوى هذا الصراع. وليست الحضارات التى سجلها التاريخ الإنسانى سوى نوعين من الحضارة: حضارة إسلامية أو حضارة جاهلية طاغوتية.

(١) هذان الإبليسان المنظران هما الطاغوت الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ثمانى مرات وهما منظران إلى يوم الوقت المعلوم والطاغوت الوارد ذكره عند أهل الكتاب باسم التِّنِّين. راجع الجزء الخامس من موسوعة أشراط الساعة للمؤلف بعنوان «المسيح الدجال بين الجبت والطاغوت».

الفصل الثانى

مجمل تاريخ البشرية فى ست آيات بينات

بناء على ما تقدم نستطيع أن نقرر مطمئنين أن تاريخ الرسل والأنبياء هو تاريخ البشرية. حيث هم - عليهم الصلاة والسلام أجمعين - قادة أهل الحق والإيمان والصلاح والعدل والخير فى الصراع الدائر بينهم وبين أهل الباطل والضلال والكفر والفساد والظلم والشر.

فهذا الصراع الذى هو العامل الرئيسى فى تحريك وتوجيه أحداث تاريخ الإنسانية منذ بدأ بخلق آدم إلى نهايته بقيام الساعة.

والحق أن تاريخ الإنسانية لايبدأ فى الأرض ولا ينتهى فيها، بل بدأ فى السماء وفى الجنة، ثم هو لاينتهى أيضا فى الأرض بإنتهاء الحياة الدنيا، بل يمتد إلى الدار الآخرة أبداً، وما مرحلة الوجود الأرضى فى تاريخ الإنسانية الا مرحلة مؤقتة للإبتلاء، وهى مرحلة قصيرة مهما طالت إذا قيست بالوجود الدائم فى الآخرة قال تعالى ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

ولقد شاء الله عز وجل قيام الصراع تحقيقًا للابتلاء وحيث يختلف الناس نتيجة

الابتلاء، ومن ثم يصبحوا أعداءاً متصارعين، ويكون هذا الحال الجديد إبتلاءاً للأجيال التى بعد ذلك، أى يصبح هذا الاختلاف والصراع موضوعا لابتلاء جيل آخر وهكذا.

إصطفى الله تعالى آدم على سائر خلقه، وهذا اصطفاء ليس لآدم من حيث كونه فرداً، بل من حيث كونه نوعا، فهوا اصطفاء للإنسان على سائر انواع الخلق الأخرى(١)، ولقد تجلى هذا الاصطفاء فى المكرمات التالية:

خلقه الله عزوجل بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الإسماء، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته. قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٣٤- ٣٩].

ويتضح لنا من هذه الآيات البينات الآتى:-

١ - إن الله عز و جل إبتلى إبليس بالسجود لآدم، أى بتفضيل آدم عليه، فخسر ابليس بفعله الإختيارى فى هذا الابتلاء، عندما رفض السجود زاعما أنه أفضل من آدم، ومن ثم أصبح عدوا له ولزوجه وذريته، راغبا فى الايقاع بهم واسقاطهم معه فى الهاوية التى تردى فيها والمصير الأليم الذى سينتهى إليه.

٢ - أسكن الله تعالى آدم وزوجه الجنة، وابتلاهما بالشجرة المحرمة، فأزلهما الشيطان عنها وأكلا منها فأنزلهما الله تعالى إلى الأرض، دار الابتلاء، إستمراراً لحياة

---

(١) وإن كان آدم من المُصطفيْنَ على سائر البشر بإعتباره نبيا مُكلّماً قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

الابتلاء التى بدأها بالاكل من الشجرة والاقدام على المعصية وقد غفر الله تعالى لهما.

٣ ـ بيَّن الله عزوجل لهما أن الوجود الإنسانى فى الأرض مؤقت ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وأن الصراع سيكون أساسا للاحداث الإنسانية والمعاملات البشرية خلال هذا الوجود كله لتفرقهم إلى فرق متعادية ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وهذا نتيجة ضرورية للإبتلاء الذى يكون فيه الإنسان الذى يبتليه الله تعالى مختارا، ومن ثم يختلف المبتلَوْنَ باختلاف اختياراتهم فيظل فريق منهم على الايمان والهدى باتباعهم الرسل، ويصبح الفريق الآخر على الكفر باتباعهم ابليس وجنوده.

٤ ـ ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وهذا يعنى إن تاريخ البشرية بدأ بآدم تائبا مغفوراً له وليس لذنبه أى أثر على تاريخ الأحداث بعد ذلك. حتى أن نزوله ونزول أبنائه إلى الأرض لم يكن عقوبة على معصيته ـ كما يظن كثير من الناس ـ لان الله عز وجل لا يعاقب على ذنب غفره لصاحبه وتاب عليه، وان كان النزول إلى الأرض مترتبا ولاحقا للمعصية وبسببها أيضا، لأن النزول ـ والله أعلم ـ كان استمراراً وإمتدادا لنوع الحياة التى دخلها آدم وزوجه وهى حياة الابتلاء بارتكاب المعصية، حيث أن الأرض هى الدار المسموح فيها بارتكاب المعاصى، ومن ثم أنزلهما الله تعالى اليها لاستكمال مرحلة الابتلاء. وليس عقوبة على الذنب المغفور.

٥ ـ الصراع بين أهل الإيمان وأهل الكفر فى الأرض والداعين للكفر بزعامة الطاغوت لاضلال الناس وغوايتهم، يجعل الناس وأهل الخير فى حاجة ضرورية لمن يهديهم من قبل الله عز وجل للهدى والإيمان والخير فى صراعهم الطويل مع الطاغوت وجنوده من الجن والإنس، حتى يحققوا عبوديتهم لله عز وجل وحده على رجاء العودة لموطنهم الأصلى الذى أسكن الله تعالى فيه أباهم وأمهم، أى الجنة، ولكن ليس كساكنين هذه المرة، بل كمالكين لها ووارثين لها خالدين فيها أبدا.

ويُعد هذا وجه من أوجه الضرورة فى الرسالة السماوية قال تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا

مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة : ٣٨].

أ - فالهدى لا يكون الامن الله تعالى، ومن ألتمسه من عند غير الله ضل.

ب - ومن ثم فالهدى لاحق لنزول الإنسان إلى الأرض مستمر خلال الاجيال الطويلة من عمر البشرية لا تخلو منه حياة الامم والشعوب.

جـ - ولا نجاة من سوء المصير فى الدنيا والآخرة، إلا لمن إتبع الهدْىَ المنزَّل من عند الله تعالى.

د - والذين يلتمسون الهُدَى من عند غير الله عزوجل، هم فى الحقيقة والواقع يتَّبعون أعداء الله عز وجل وأعداء الإنسانية : الطاغوت وجنوده من الجن والإنس، فهم أعداء المهتدين وهم المتصارعون مع المؤمنين فى الأرض خلال تاريخ البشرية كله.

هـ - يتحدد مصير الناس فى الآخرة إما فى الجنة خالدين فيها فضلا ونعمة من الله تعالى ، وإما فى النار خالدين فيها بعملهم عدلا من الله عز وجل أى بناء على ولائهم وإنتمائهم فى الدنيا.

فمن كان ولاؤه لله ولرسله، وانتماؤه لجماعة المؤمنين مصطفًّا معهم داخل صفوفهم فى صراعهم وحربهم ضد أولياء الشيطان، فهو من أهل الجنة بإذن الله تعالى حسب وعده خالدا فيها مع الانبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

ومن كان ولاؤه وانتماؤه للطاغوت وجنوده وفرقه وأفكاره ودعواته، مصطفا معهم فى صفوفهم فى مواجهة أولياء الرحمن ومحارباً لأهل الايمان، فهو من أهل النار خالدا فيها مع من أحبهم من الشياطين والكفرة والطغاة والمشركين وساء أولئك رفيقا قال تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[الاعراف: ٣٦].

وأولياء الرحمن ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَيَوْمَ

يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فالكافرون ا لـذين ينكرون الرسل والرسالات السماوية فى الدنيا يشهدون على أنفسهم أنهم قد بُلِّغُوا الحق والهدى عن طريقهم، ولكنهم لم يقبلوا هدى الله تعالى وحَادوا عن الحق وعن الصراط المستقيم.

وبهذا يتضح لنا أن الرسل والانبياء هم العامل الأهم والأخطر فى تاريخ البشرية ومصيرها فى الآخرة.

ولا يتجاهل دور النبوة فى التاريخ الاملحد كـافر بالله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام وبكتـابه وبرسوله ﷺ أو جاهل شديد الجهل قال تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقـرة : ٣٨- ٣٩] فذكر سبحانه فى هاتيْن الآيتين النبوة ثم ذكر انقسام الناس حيال الهدى المنزل بالنبوة إلى فريقين، فريق فى الجنة وفريق فى السعير. وذلك هو ملخص تاريخ البشرية فى آيتيْن كريمتيْن.

الفصل الثالث

الخطوط العريضة لتاريخ البشرية من خلال سِيَر الانبياء والمرسلين، صلى الله وسلم عليهم جميعا

لا يتضمن القرآن الكريم تفصيلا كاملا لتاريخ البشرية، هذا التاريخ الذى أجمله الله تعالى فى الآيات البينات منذ بدئه إلى إنتهائه إلى دارين: دار للنعيم ودار للجحيم.

وذلك لان الله عز وجل لم ينزله كتابا فى التاريخ، أو فى أى علم من العلوم الإنسانية أو الكونية، وإن كان القرآن الكريم يتضمن أسس هذه العلوم ومناهجها ومبادئها وقواعدها العامة وقوانينها الكلية.

إنما فَصَّل الله عز وجل لنا فى القرآن الكريم والسنة العقيدة والشريعة لأنهما الهدى الذى يحتاج إليه الإنسان ، ولا يستطيع أن يدركه وحده، فمعرفة الله عز وجل باسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحكيمة المحكمة. ومعرفة عالم الغيب ومصير الإنسان فى الآخرة وغير ذلك، ثم الحكمة من خلق الإنسان والتشريع الذى يحقق له فوزه فى الابتلاء، و من ثم يحقق سعادته فى الدنيا والآخرة، وحتى ما قصَّهُ علينا الله عز وجل فى القرآن الكريم من مبادئ وتفسيرات للظواهر الكونية وحقائق الحياة ، فإنما يقصه علينا كدلالات وعلامات على قدرته المطلقة سبحانه وتعالى،

وعلى حكمته من الخلق، وقصص الأنبياء فى القرآن الكريم مع أعدائهم ماهى إلا تطبيقات لسنن الله عز وجل فى الاحداث التاريخية.

وما قَصَّهُ الله تعالى علينا من قصص الأنبياء والمرسلين ليس مقصودا منه تفصيل الأحداث التاريخية التى وقعت بين المؤمنين بقيادة رسلهم وبين الكافرين بقيادة المتألهين منهم، بل القصد منها ـ والله أعلم ـ بيان مواقف الصراع وإصرار أولياء الرحمن على الايمان بالله عز وجل واحدا لا شريك له، بالرغم مما كان ينتظرهم من عذاب وتنكيل وقتل من الكافرين، وصبرهم على ذلك وإيثارهم للآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

وكذلك بيان مواقف أولياء الشيطان فى استجابتهم له وإيثارهم الدنيا على الآخرة وما آل اليه حالهم فى الدنيا من هبوط وخزى وشقاء وما سيؤول اليه حالهم فى الآخرة من عذاب أليم مقيم.

وما قَصَّهُ لنا الله عز وجل عن مراحل الصراع، إنما هو عبرة للمؤمنين وتثبيت لافئدتهم كما أنه تعليم لهم وابراز لسنن الله تعالى الحاكمة والموجهة للتاريخ البشرى قال تعالى ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

ومـمَّا أصبح مؤكدا الآن، أن أكثر التاريخ البشرى المدون بأيدى المؤرخين والمسجل على الآثار القديمة ليس صحيحا كله، بل يعتوره التزوير والتحريف إما بتدبير الحكام، وإما بجهل المؤرخين بحقيقة الاحداث او بكتابتها من وجهة نظرهم مما يؤثر فى تدوين الاحداث ويبعدها عن حقيقتها الواقعية.

أمَّا ما عرضه الله عز وجل فى كتابه الكريم من أحداث تاريخية من خلال قصص الأنبياء والرسل فى القرآن الكريم، فهى جميعا حق لايأتيه الباطل من بين يدية ولا من خلفه ،لأنها رواية الله عز وجل لهذه الأحداث، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١١١].

لذلك كله نجد أن ماتضمنه القرآن الكريم عن التاريخ البشرى ليس سوى خطوطا عريضة لهذا التاريخ من خلال قصص الأنبياء والمرسلين.

فكل نبى يُرسل إلى قومه فيدعوهم إلى عبادة الله تعالى الواحد الاحد الفرد الصمد، واتباع شرعه المنزل عليه وترك عبادة الاصنام وتنحية شريعة الطاغوت، فلا تُقَابلَ دعوتُه الا بالتكذيب، ولا تُعامل القلة المؤمنة من الكثرة الغالبة والسلطان الجائر المشرك إلا بأشد أنواع التنكيل والعذاب، فإن ظلوا هكذا يحاربون رسولهم، وإذا تجرأوا ومكروا مكرا يسئ للرسول والقلة المؤمنة معه بقصد إبادتهم جاءهم عذاب الاستئصال فلا ينجو منهم إلا القلة المؤمنة مع رسولهم.

أما إذا استجاب قوم الرسول لدعوته وآمنوا به وصدقوه، فإن هذا يكون ايذانا بعلو قومه بإنتشار دعوته فى الشعوب المجاورة وإقامة خلافة الله تعالى فى الأرض عزيزة منيعة قوية ،ما داموا يقيمون شرعه سبحانه وتعالى ومنهاجه.، فإذا ما بدأوا فى تغيير ما بأنفسهم من إيمان وصبر وشكر لله تعالى إلى كفر وفسق وجحود بنعمته سبحانه غَيرَّ الله تعالى ما بهم من النعمة إلى النقمة لعلهم يرجعون. فإذا لم يعودوا إلى الله عز وجل ولم يتركوا ما هم فيه من كفر وجحود، أصابهم بالبأسأة مرة، بعد مرة، ماداموا موحدين، حتى يرجعوا إلى الله عز وجل.

أما إذا اشركوا وكفروا فإن الله تعالى يملى لهم فى النعمة والعطاء حتى يفتح عليهم أبواب كل شئ فيزدادوا جحودا وكفرا فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

تلك بعض السنن الرئيسية التى يعامل الله تعالى بها عباده بناءً على موقفهم من دعوة الرسل، وبناء على ما يحدثونه فى أنفسهم من تغيير من إيمان إلى كفر ومن توحيد إلى شرك ، أو العكس، فلكل إستجابة من الأقوام إلى رسلهم، أو لكل رفض لهم، سنته الربانية فى نواميس الاقدار الإلاهية.

ولقد أجمل الله عز وجل فى الذكر الحكيم كل سِيَر الرسل الذين كذبتهم أقوامهم، وتجرأوا على التدبير لقتلهم وقتل القلة المؤمنة، فاستأصلهم الله تعالى قبل أن

يستأصل هؤلاء الكفار أولياءه، وهؤلاء الرسل الذين أستاصل الله تعالى أقوامهم ونجاهم مع القلة المؤمنة كثيرون جدا ،لا يعلم عددهم وأسماءهم وأسماء أقوامهم إلا الله عز وجل، بيد أن الله عز وجل قص علينا سير بعض منهم كنماذج فقط منهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وغيرهم صلى الله عليهم وسلم، وقصصهم معلومة ومشهورة.

ومن ثم أجمل الله تعالى قَصَص هؤلاء المذكورين آنفا صلوات الله وسلامه عليهم ضمن مجمل القصة العامة التي تَصْدُق على عشرات وربما على مئات من الرسل الذين أستأصل الله أقوامهم ونجاهم مع القلة المؤمنة من العذاب، فقال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾[٩-١٨ ابراهيم].

وليس كل الرسل أو الأنبياء قد إستاصل الله تعالى أقوامهم، بل هناك رسلا حققوا نجاحا مع أقوامهم، أو مع غير أقوامهم فلم يستأصلهم الله عز وجل. مثل قوم

ابراهيم ﷺ لم يستأصلهم الله تعالى بالرغم من أنهم لم يستجيبوا لدعوته، ذلك أن الله تعالى لا يستأصل إلا القوم الذين علم أنهم لن يؤمن منهم أحد، ولن يؤمن من ذريتهم أحد، وكذلك لم يستأصل الله تعالى قوم فرعون، وأستأصله هو وجيشه وملأه، لأنه قد علم أن قومه يحملون فى ظهورهم ذرية سيكون من شأنها أن تؤمن به سبحانه وتوحده عز وجل.

كذلك إستجاب لموسى ذرية من قومه وأسلموا وجاهدوا وقاتلوا مع طالوت ثم داود ثم سليمان فنشروا الإسلام فى الأرض المقدسة وما حولها، وقدم لنا الله عز وجل فى القرآن نموذج المجتمع الذى كذب نبيّه يونس حتى نزل عليه العذاب فتضرع الناس الى الله عزوجل وآمنوا فأوقف العذاب بعد أن صار كالظلة فوق رؤوسهم.

وأيضا نجد فى القرآن الكريم نماذج لعذاب أقل من الاستئصال لمن بدلوا وغيروا ما فى قلوبهم من إيمان إلى جحود وكفر للنعمة، فأزال الله عنهم النعمة مثل قوم سبأ الذين حرمهم الله تعالى من جنّتيْهم، فكان عذابهم فى الفقر والجوع بعد أن كانوا أغنياء.

وهكذا نجد الاحداث التاريخية فى القرآن الكريم نماذج لسنن الله فى التاريخ البشرى وليس تفصيلا لتاريخ البشرية.

الفصل الرابع

النبوة وتقدير عمر البشرية

لقد تخللت قصصُ الأنبياء والاحداثُ التاريخية سور القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، حتى نجد كثيرا من السور تحمل أسماء رسل كرام جاء ذكرهم ضمن أحداث هذه السور، كسورة يونس وسورة هود وسورة يوسف وسورة ابراهيم وسورة محمد وسورة نوح عليهم جميعا الصلاة والسلام(*).

وسورة مريم التى إصطفاها الله تعالى على نساء العالمين وجعلها أما للمسيح عليهما السلام، ولم يرد فى القرآن الكريم سورة باسم إمرأه، كما لم يرد فى القرآن الكريم ذكر لأمرأة بإسمها إلا مريم عليها الصلاة والسلام، وهذا الشرف الذى لم تنله إمرأة أو أنثى أخرى فى القرآن الكريم، متوافق مع قوله تعالى وإذ قالت الملائكه ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٤٢].

كما جاءت أسماء بعض السور مشيرة إلى أحداث وقعت فى حياة بعض الرسل مثل سورة البقرة حيث أمر موسى عليه السلام قومه أن يذبحوا بقرة.... إلخ.

وسورة المائدة باسم المائدة التى أنزلها الله تعالى على عيسى والحواريِّين عليهم السلام.

(*) مرتبة حسب ترتيبها فى المصحف الشريف.

وسورة النمل حيث إستمع سليمان عليه السلام الى مقالة النملة لشعبها(*).

وسور الفيل والعلق والمزمل والمدثر والضحى و عبس والجن والإسراء والحجرات والفتح ثم سورة النصر حيث تتحدث بعض آيات من هذه السور عن أحداث وقعت فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم (**).

كذلك قصّ الله عز وجل علينا من قصص الرسل فى سورة الأنبياء وسورة القصص.

فمعرفة قصص الرسل والأنبياء لا نأخذها من سورة دون سورة، ولا من جزء دون جزء، إنما نأخذها من القرآن الكريم كله ومن سنة رسول الله ﷺ كلها.

كذلك لانأخذها أيضا من السور سالفة الذكر فقط، ومنها سورة الأنبياء. وذلك لأن منهج القرآن الكريم فى العرض ليس كمنهج الكتب الأخرى، فهو ليس كمنهج توراة اليهود المحرفة التى جاءت أسفارها حاملة لموضوعات محددة مثل سفر صموئيل الأول وسفر صموئيل الثانى وسفر الملوك الأول و سفر الملوك الثانى وهكذا، فلا تجد ذكر لصموئيل الاول مثلا الا فى هذا السفر كما أنك تجد هذا السفر لا يحتوى الا على أخبار صموئيل الأول وهكذا.

أما منهج القرآن الكريم فليس كمنهج أناجيل النصارى كما أنه ليس كمنهج أسفار أنبياء بنى اسرائيل.

كما أن منهجه ليس كمنهج كتب المؤرخين من البشر كذلك، لأنه كلام الله عز وجل الذى ليس كمثله شئ من كلام المخلوقين، ومن ثم فهو الكتاب الذى ليس كمثله كتاب فى تاريخ الإنسانية، بل فى الوجود كله.

وهذا المنهج يستوجب من الباحث العودة إلى القرآن الكريم كله لمعرفة التاريخ البشرى بعامة.

عدة الأنبياء والرسل فى تاريخ الإنسانية:

وهنا يثور فى أذهاننا سؤال هام وهو : هل قص الله عز وجل علينا فى القرآن

(*) مرتبة حسب ترتيبها فى المصحف الشريف.

(**) مرتبة حسب وقوع هذه الاحداث فى حياة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم.

الكريم أخبار كل الرسل والأ نبياء منذ آدم إلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليهم جميعا وسلم؟! والإجابة القطعية هى أن الله عز وجل لم يذكر فى القرآن الكريم بالاسم والتعيين سوى خمسة وعشرين رسولا ونبيا، ولم يقص علينا أخبار بقية الرسل والأنبياء ،كما لم يذكر إلا أسماء هؤلاء الرسل الكرام. قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨].

وقال تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٤].

والرسل المذكورين بأسمائهم فى القرآن الكريم والذين يجب الايمان بهم والتصديق برسالاتهم وأشخاصهم وأخبارهم كما وردت فى القرآن الكريم هم:

آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، اسماعيل، اسحق ، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، شعيب، موسى ، هارون، يونس، إلياس، اليسع، ذو الكفل، ذكريا، يحيى ، عيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإمامهم سيدنا محمد ﷺ.

أما بالنسبة للرسل والأنبياء الذين يجب الإيمان بهم إجمالا دون معرفة أسمائهم أى يجب على المسلم أن يصدق بأن هناك أنبياء ورسلاً غير هؤلاء الذين ذكروا فى الكتاب الكريم فعدتهم مائة وأربعة وعشرون الفا ونيِّف، منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولا ذكر الله عز وجل لنا منهم فى القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين فقط.

روى الامام أحمد عن أبى ذر الفغارى رضى ا لله عنه أنه [قال : قلت يا رسول الله أى الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله: ونبٌى كان؟ قال: نعم،

نبـى مُكلَّـم. قلت يـا رسول الله: كم المـرسلون؟ قال ثـلاثمائـة وبضعـة عشر، جـما غفيرا](١).

وفى رواية أبى أمامة (قال أبو ذر قلت يا رسول الله: كم وفاء عدة الأنبياء قال مائة ألف وعشرون ألفا الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جَماً غفيرا)(٢).

النبوة وتقدير عمر البشرية:

إذا كان عـدد الرسل مـنهـم ثلاثمـائة وبضـعة عـشر، فكـم عاماً يـا ترى عـاشت الإنسانـية منذ آدم إلى مـبعث خاتم الأنبـياء والمرسلـين سيدنا مـحمد صلى الله عـليه وعليهم وسلم؟

وما الحكمة فى أن الله عز وجل لم يخبرنا الا بهذا العدد المحدود من الرسل فى القرآن الكريم؟!

إن القرون الأولى والامم السابقة فى كتاب عند الله عز وجل وهو سبحانه وتعالى الذى لا يضل ولا ينسى.

إن توراة اليهود المحرفة تقدر عمر الإنسان فى الأرض بحوالىْ ستة آلاف عام. أى أن آدم عاش قرابـة الف سنة ومات مـنذ حوالىْ خمـسة آلاف عام حسب هـذا الزعم الباطل.

ومن المؤكد أن عـمر البشرية هـو ربما بعشرات الألوف مـن السنين وليـس بآحاد الألوف وذلك ما يمكن إستنباطه مما يلى:

١ ـ أن الله عز وجـل لم يقص عـلينـا فى القرآن سـوى أبرز رسل وأنـبياء الحقـبة الأخيرة من تاريخ الإنسـانية والتى بدأت بإبراهيم عليه السـلام حيث أن كل منْ جاء بعده من الرسل والأنبياءهم من أبنائه وذريته وحيث أن تاريخ البشرية إلى يوم القيامة مرتبط بذريته الصالحة وغير الصالحة أيضا. فإذا ضَمَّتْ هذه الحقبة من الرسل عشرين رسولا هم إبراهيم وأبناؤه من الرسل، فيصبح بقية الرسل من غير ذريته أقل قليلا من مئتيـن وتسعين رسولاً، ذكـر القرآن منهم خـمسة رسل فقط هـم آدم وإدريس ونوح

(١) رواه أحمد فى مسنده من حديث أبى ذر.
(٢) نفس المصدر.

وهود وصالح عليهم الصلاة والسلام. يضاف إليهم لوط ابن أخيه صلى الله عليهما وسلم.

فإذا كانت العصور بين ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام تقدر ببضعة آلاف من السنين[1] أرسل الله تعالى فيها عشرين رسولا فكم تكون المدة التى أرسل الله تعالى فيها أقل قليلا من ثلاثمائة رسول؟!

٢ ـ وإذا كانت المدة الزمنية بين سيدنا عيسى عليه السلام وبين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حوالىْ ستة قرون وليس بينهما عليهما الصلاة والسلام نبى لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس بيني وبينه ـ يعنى عيسى صلى الله عليه وسلم ـ نبى)[2] فإن هذا يعنى أن الرسل قد بُعِثُوا خلال ما يزيد على مائة وخمسين ألف سنة، بهذا المقياس.

صحيح أن المدة التى بين سيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام، ليست هكذا بالضرورة بين كل رسولين، ولكن يمكن أن نعتبر هذا مؤشرا، فهى قد تقل بين الرسولين عن ستة قرون ولكنها أيضا قد تزيد بكثير عن ذلك. وبخاصة إذا علمنا أن الاعمار كانت فى أول عهد البشرية تعد بالقرون وليست بعشرات السنين كما هو شأن الإنسان الآن، وفى عهد خاتم الرسل صلى الله عليهم جميعا حيث أخبر بأن أعمار أمته بين الستين والسبعين.

٣ ـ أن الرسول صلى الله عليه وسلم بُعِثَ قرب الساعة حيث قال عليه الصلاة والسلام (بعثت أنا والساعة كهاتين ـ يعنى إصبعين)[3].

وقد مضى أربعة عشر قرنا من الزمان ولا يعلم الا الله تعالى متى تقوم الساعة، وقد بقى من علاماتها وأشراطها أحداثا كثيرة أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم كظهور المهدى وخروج الدجال ونزول سيدنا عيسى عليه السلام وغير ذلك من الاحداث الواردة فى السنة عن أشراط الساعة.

(١) هى تقريبا أربعة آلاف سنة.
(٢) رواه ابو داود عن جامع الاصول لابن الاثير جـ١٠ ص ٣٢٨.
(٣) اخرجه البخارى ١١ / ٢٩٩ فى الرقائق ورواه مسلم برقم ٥٩٥٠ فى الفتن باب قرب الساعة عن جامع الأصول لابن الاثير جـ١٠ ص ٣٨٤.

وإن كانت علامات الساعـة وأماراتها قد تحققت ونحن فى هذا الـعصر فى انتظار الآيات وأحداث القيامة الصغرى(١). فإذا كان بعث الرسول صلى الله عليه وسلم من دلائل قـرب الساعة ، وعـلامة من علامـات قرب انتهـاء عمر البـشرية، ويقـدر هذا بالقرون، فإن عمر البشرية إذاً لا يـحسب بالقرون، بل بآلاف أو عشرات الآلاف من السنين.

٤ ـ من المؤشرات التى تقربنا من التصور الصحيح لعمر البشرية ما ورد عن حجم الإنسان فى أول الخلق وما آل إليه متوسط أحجام الناس الآن.

أما عن حجم آدم علـيه السلام فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عـن النبى صلى الله علـيه وسلم قـال (خلق الله آدم وطـوله ستون ذراعـا، ثم قال إذهـب فسلّم عـلى أولئك النفر من الملائكة، فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحـمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)(٢).

كما ورد أن عرضه كان ستة أو أربعة أذرع فكـم من القرون او آلاف السنين تلزم لكى يتناقص طـول الإنسان رويدا رويدا حتى يصل طوله بيـن ثلاثة وأربعة أذرع مع العلم أن التناقص مـن جيل إلى جيل حسب قوانين الوراثة يكـون فى المتوسط بجزء المليمتر.

لاشك أن تنـاقص طول الإنسـان من ثلاثين مـتراً طولا أو اكثـر إلى اكثر مـن متر ونصف يستلزم عشرات الألوف من السنين.

٥ ـ ومن المـؤشرات أيـضا متـوسطـات أعمـار الافراد، فقـد عاش آدم ألـف عام وعاش نـوح علـيه السـلام اكثر مـن ألف عـام، وهكذا كـانت الاعمـار فى الاجـيال البشرية الأولى. وظلت ايضا تتناقص مع تناقص الاحجام حتى صار متوسط الاعمار فى زمن ابـراهيم عليـه السلام حوالى مائـه وخمسين عـاما وأصبح فى أمـة الرسول صلى الله عليه السلام بين الستين والسبعين.

(١) راجع موسوعة أشراط الساعة للمؤلف صدر منها ستة أجزاء.

(٢) رواه البخارى كتاب احاديث الأنبياء.

ولا شك أن التناقص التدريجى من الف عام كمتوسط لعمر الإنسان إلى خمسة وستين عاما لايتم إلا من خلال عشرات الألوف من السنين.

إن التوراة المحرفة تقرر أن المدة بين آدم ونوح عليهما السلام حوالىْ ألف عام والمدة بين نوح وابراهيم عليهما السلام ألف عام ومن ثم تكون المدة بين ابراهيم وعيسى ألفىْ عام وحيث أن الزمن بيننا وبين عيسى عليه السلام عشرون قرنا ومن ثم تكون المدة التى عاشها الإنسان على الأرض ستة آلاف سنة حتى الآن، حسب هذه التوراة.

وهذا باطل قطعا للاعتبارات الماضية.

إلا أن حساب المدة بين ابراهيم عليه السلام وبين أيامنا هذه قد يكون أربعة آلاف سنة. أو إذا سلمنا بذلك حسب قول أهل الكتاب فإن عمرالبشرية الطويل والذى يقع بين نوح وإبراهيم عليهما السلام يكتنفه الغموض، ولم يقص علينا القرآن الكريم من أخبار هذه الحقب سوى أخبار سيدنا هود وسيدنا صالح عليهما السلام، ولا شك أن القرآن الكريم لم يقص علينا أنبياء ورسل هذه الحقب جميعا.

أما الحكمة من ذكر هود وصالح عليهما السلام فلعل ذلك لكونهما كانارسولين لحضارتين كانتا فى شبه الجزيرة العربية التى نزل على أهلها القرآن الكريم، ولأنهما من الامم البائدة التى أستأصلها الله عز وجل ففى ذكرهما عظه وعبرة.

أما بقية الرسل التى قص علينا القرآن الكريم من أخبارهم فهم من ذرية سيدنا ابراهيم وكلهم يخصون الحقبة التى نعيشها ومن ثم فَصَّلَ لنا من أخبارها.

أما نوح عليه السلام فهو الاب الثانى للبشرية بعد الطوفان وخبر نجاته والمؤمنين معه من الغرق هو خبر لنجاة البشرية جمعاء لذلك منّ الله علينا بقوله ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[الحاقة : ١١ - ١٢] فخبر نوح خبر للبشرية جمعاء علاوة على أنه رسول من أولى العزم. ومن ثم جاءت أخباره وسيرته مع قومه تفصيلا، أما جده إدريس فقد جاء خبره إجمالا.

أما آدم فقد فصل الله تعالى لنا قصة خلقه من تراب والمكرمات التى أكرمه بها

وتفاصيل إجتيازه تجربة الابتلاء الاولى، والعلاقة بينه وبين إبليس حتى نزوله الأرض، لأن هذه أيضا من أخبار الإنسانية جمعاء.

ان القرآن الكريم ليس كتابا فى التاريخ البشرى، ولكنه كتاب عقيدة وشريعة وأخلاق أنزله الله علينا لإصلاح دنيانا وآخرتنا، ومن ثم فإن ما قصه الله عز وجل علينا من أحداث خاصة ببعض الامم ليس على سبيل السرد التاريخى المتتابع الأحداث، ولكن على سبيل إنتخاب بعض النماذج من تواريخ الامم الصالحة وغير الصالحة وبيان سلوكهم وأعمالهم ومواقفهم من رسلهم وما آل اليه حالهم ومصيرهم فى الدنيا والآخرة للعظة والعبرة ولتثبيت مفاهيم العقيدة وقيم الأخلاق الكريمة فى النفوس المؤمنة، ولتثبيت أفئدة المسلمين فى صراعهم ضد الطاغوت.

وما يمكن أن نقرره باطمئنان ـ بناء على ما تقدم ـ هو أن اكثر من مائتين وتسعين رسولا وعشرات الألوف من الأنبياء ـ قد يصلوا إلى أكثر من مائة وعشرين ألف نبى ـ قد بعثهم الله تعالى بعد نوح وقبل ابراهيم عليهما السلام قال الله عز وجل ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾(١).

ومن ثم يمكننا أن نقرر بأن تاريخ البشرية بين نوح وإبراهيم عليهما السلام حقب طويلة قد تعد بعشرات الألوف من السنين. ولم يذكر لنا الله تعالى عن هذه الحقب من التاريخ البشرى إلا تاريخ عاد وثمود.

ولعل الحكمة من ذكرهما دون بقية الرسل المائتين والتسعين هى أنهما من شبه جزيرة العرب، وأنهما بلغوا شأوا بعيدا فى التقدم الحضارى والمدنى وأنهم تسفلوا عقائديا وخلقيا إلى أسفل سافلين فاستأصلهم الله عز وجل، كما أن لعاد آثار فى أخبار العرب وفى جنوب جزيرتهم كما أن لثمود آثار فى شمالها وأقوال عنهم يتوارثها العرب.

لكن النبوة أو الرسالة ليست أمرا يخص شبه جزيرة العرب وأهلها فقط. وانما هى سُنَّةُ الله تعالى فى حياة كل البشر، قال تعالى ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢).

(١) سورة الإسراء آية : ١٧.
(٢) سورة فاطر آية : ٢٤.

ولا شك أن هذا الجم الغفير من الأنبياء، وهذا العدد الكبير من الرسل، قد أنذر الله به عباده في جميع بقاع المعمورة، وخلال عمر البشرية، منذ آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليهم جميعا وسلم.

أى أن تاريخ الرسل والأنبياء يغطى وجود البشر خلال الزمان والمكان. وذلك لكيلا يكون لهم على الله عز وجل يوم القيامة حجة بعد الأنبياء والرسل قال تعالى ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١).

ومن المعلوم أن القرآن الكريم لم يقص علينا من أنباء الرسل للأمم وللأقوام الآخرين فى أوربا وأفريقيا وفى شرق أسيا وفى بلاد الامريكتين قبل اكتشافهما، وكذلك بالنسبة لأهل إستراليا الأصليِّين وجزراندونيسيا وماليزيا وغيرهم، وهؤلاء جميعا ـ كبشر وكأمم وكأقوام ـ يدخلون فى حكم قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢).

ولا يقدح فى هذا القول أن تواريخهم تخلو من ذكرالأنبياء والمرسلين، لأن التواريخ محرفة كما هو معلوم. ولعل زعماء الإصلاح عندهم مثل بوذا فى الهند وكونفوشيوس فى الصين وزرادشت فى بلاد الفرس وغيرهم أصلهم أنبياء أو رسل ثم حُرِّفت سيرهم كما فعل النصارى مع عيسى بن مريم عليهما السلام، بل إن الارجح عندى هو ذلك التفسير لحياة هؤلاء الزعماء.

وكثيرا ما يردد بعض الكتاب وخاصة من أهل الشرق العربى فخَرهم بأنهم من أرض الأنبياء والرسل وأن غيرهم ليس فى تاريخهم أنبياء ولا رسل.

وهذا ليس صحيحا على إطلاقه، إذ أن الشرق العربى هو أرض الأنبياء والرسل فى الحقبة الأخيرة من التاريخ البشرى وهى الحقبة التى بدأت بإبراهيم عليه السلام والأنبياء والرسل فى هذه المنطقة من بعده هم من أبنائه وذريته.

أما كل الامم الأخرى فلا شك أن الله تعالى أرسل إليهم أنبياءً ورسلا، ولكن

---

(١) سورة النساء آية : ١٦٥.

(٢) سورة فاطر آية : ٢٤.

هؤلاء الأقوام بعدوا كثيرا عن الحق بعد خلو رسلهم، فحرمهم الله تعالى هذه النعمة حتى أرسل خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد المبعوث للناس جميعا على وجه البسيطة حجة عليهم ورحمة لهم. وقد وصلت رسالته إلى كل بقاع الأرض فآمن به من آمن وكفر به من حقت عليهم الضلالة.

وباعتبار الزمان الذى نزل فيه القرآن الكريم، وباعتبار كونه رسالة عالمية وخالدة إلى يوم القيامة ومرسلا إلى كل الشعوب والأقوام والأمم فى الأرض قص الله تعالى علينا بشئ من التفصيل أخبار سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم وذريته الزكية أى الأنبياء والمرسلين وفصل أكثر فى مناقشة اليهودية والنصرانية باعتبارهما الرسالتين الربانيتين السابقتين على نزول القرآن الكريم. وفصل لنا أكثر قصة بنى إسرائيل باعتبارهم أهل الكتاب أو الشريعة السابقة على شريعة الإسلام ولبيان تحريفهم لها، وحيث قد اتخذ الطاغوت منهم بطانته الافسادية. أى باعتبار أن الصراع أساسا بين المسلمين اتباع النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم وبين كفرة بنى إسرائيل عبد الجبت والطاغوت الذين أضلُّوا قومهم اليهود وأضلوا معهم النصارى أيضا فجعلوهم مطايا لهم.

الباب السابع

عناصر النبوة

فصل تمهيدى: ماهى عناصر النبوة؟

الفصل الأول: العنصر الأول هو الإصطفاء.

الفصل الثانى: الذكورة شرط فى النبوة تابع للإصطفاء.

الفصل الثالث: العنصر الثانى هو العصمة.

الفصل الرابع: شبهات حول عصمة الأنبياء.

الفصل الخامس: درء الشبهات عن عصمة الأنبياء.

الفصل السادس: العنصر الثالث للنبوة هو الوحى.

الفصل السابع: المعجزة هى العنصر الرابع للنبوة.

الفصل الثامن: الآدمية هى العنصر الخامس للنبوة فى الحياة الدنيا.

فصل تمهيدى

عناصر النبوة

ماهى عناصر النبوة؟ والسؤال بصيغة أخرى: مم تتكون النبوة؟

ويجوز أن نستبدل هذا السؤال أيضا بسؤال آخر هو: ماهى النبوة؟

فتكون الاجابة كالتالى:

النبوة: إصطفاء، وعصمة ووحى ومعجزة وآدمية. وحيث أن الآدمية: إنسانية وبشرية فإن النبوة: إصطفاء وعصمة ووحى ومعجزة وإنسانية وبشرية.

أى أن النبى بشر إنسان (آدمى) اصطفاه الله تعالى، فعصمه، وأنزل عليه الوحى بالرسالة، وأثبت نبوته بمعجزة يتحدى بها قومه أن يأتوا بمثلها فيعجزوا عن ذلك. وأول ما يجدر الاشارة إليه هو أن الآدمية التى هى بشرية وإنسانية معا عنصر رئيسى من عناصر حقيقة النبوة، بمعنى أنه لم يبعث الله تعالى نبيا أو رسولا للناس إلا من بنى آدم، والدليل على هذا أن جبريل الأمين عليه السلام هو رسول الله تعالى إلى رسل وأنبياء البشر، وكذلك غيره من الملائكة قال تعالى ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] بَيْدَ أن رسل الملائكة ليسوا أنبياء فلا يجوز أن يوصف الرسول الملائكى بالنبوة، وإنما رسول الله من الناس إلى الناس هو

الذى يتصف بالنبوة ، فجبريل عليه السلام أو ميكائيل أو غيرهما من رسل الملائكة ليسوا أنبياء، كما أن الواحد منهم ليس رسولا بمفهوم الرسول الآدمى الذى هو نبى قبل أن يكون رسولا، فالرسل الآدميون هم أنبياء ورسل أو أنبياء فحسب. وهذا دليل واضح على أن الآدمية عنصررئيسى فى تكوين النبوة، ومن ثم يخرج من إستحقاق الوصف بالنبوة الملائكة والجن، فلانبوة إلا فى بنى آدم، فيكون كل نبى آدمى، ولكن ليس كل آدمى نبيا، وحيث أن الآدمية: إنسانية وبشرية فانه يلزم من هذا أن يكون كل نبى إنساناً بشراً، ونظر لأن الآدمية مكونة من الإنسانية والبشرية معا لأن الله تعالى خلق بنى آدم من الطين والروح، الأمر الذى جعل الآدمية اكثر عناصر النبوة تعقيدا، لذا فسنبحث البشرية والإنسانية فى الفصل الأخير من هذا الباب بإذن الله تعالى.

الفصل الأول

العنصر الاول : الإصطفاء

يتم كل خلق وكل حدث وكل فعل فى الكون بقدر الله تعالى ومشيئته وقدرته وعلمه. ولا يقع ولا يحدث فى الكون إلاما يريده سبحانه.

بَيْدَ أن الله تعالى جعل للكائن المبتلى إختياراً لأفعاله، فإن كانت موافقة لشرع الله أى طاعات، فهى من الله عز وجل، وإن كانت مخالفة لشرع الله تعالى أى معاصى، فهى من نفس العبد المذنب.

ومن ثم يمكن القول بأن للإنسان دوراً ما فى فعله مُتمثلاً فى إختياره، وهو ما أطلق عليه علماء التوحيد الكسب، وهو ما ينسبه الله تعالى للإنسان فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع مثل قوله سبحانه ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٨١] وقوله تعالى ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١] وقوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ١٣٤].

ومدار الحساب والجزاء على هذا الكسب الذى تكسبه القلوب قال تعالى ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٢٥] وأيضا مدار الحساب والجزاء على ما تكسبه الأيدى قال تعالى

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]. وقال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠].

فمدار الحساب إذاً على ما تكسبه أولا وأخيرا النفوس قال تعالى﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة : ٢٨١].

فهذه كلها أدلة على أن للإنسان كسبا سيحاسبه الله تعالى عليه ويجازيه عليه، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، والأخيار يتفاوتون فى أعمال الخير الذى يكتسبون به زيادة الإيمان والخير والتقوى والبر بحسب إجتهادهم، فيصيرون به على درجات من الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان، حتى يصل السابقون منهم إلى الصدِّيقية.

فهل النبوة درجة من هذه الدرجات يكتَسبها النبى باجتهاده.

الإجابة القطعية هى : لا، ليست النبوة كسبية، وإنما هى إصطفائية، فالعابد العالم الذى وصل إلى مرتبة الصدِّيقية، تلك التى تسبق مرتبة النبوة، مهما اجتهد وارتقى فى الإيمان، فلن يصل إلى مرتبة النبوة. لأن النبوة لاتنال بالكسب لانها إصطفاء.

صحيح أن ما قبل مرتبة النبوة من مراتب إيمانية بدءاً بالإسلام وانتهاءاً بالصِّدِّيقية لا تَتَحقّق أى مرتبة منها لعبد من عباد الله عز وجل إلا بقدر الله تعالى ومشيئته كأى حدث يقع فى الكون، ومعنى وقوعه بالمشيئة أى باختيار الله تعالى لقوله عز وجل ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] إلا أن أصحاب هذه المراتب لهم كسب فى كل ما يرتقون إليهُ من كل مرتبة إلى المرتبة التى يرتقون إليها.

أما النبوة فليس للنبى فيها كسب، فهى إصطفاء والاصطفاء غيْر الاختيار. والفارق الرئيسى بينهما أن الاصطفاء هو بمحض الفضل الالهى قال تعالى ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[آل عمران: ٧٤] ومن رحمته النبوة، وذلك لأن ثقل النبوة عظيم وتكليفها ثقيل ليس فى طاقة عامة الآدميِّين، ومن ثم يزود الله

تعالى من يصطفيهم لها بقدرات وإستطاعات وملكات وقوى روحيَّة وعقلية وبدنية خاصة، لكل واحد منهم نصيب منها على قدر تكليفه ومكانته ودرجته فى النبوة ، ومن ثم لاتُدْرك بالجدّ والتعب فى العبادة وتحصيل العلم، ولاتُنَال بكثرة الطاعة، وانما هى باصطفاء الله تعالى من يشاء من عباده لها فيخلقه باستعداداتها.

قال تعالى ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥] وقال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وقال عن الأنبياء والرسل بعد ذكر بعضهم ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[ص : ٤٧] وقال تعالى ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الدخان: ٣٢] وهوإختيار بنى اسرائيل لتكون فيهم النبوة.

فالإختيار يكون أولاً للشعب الذى يجعل الله فيه النبوة والإصطفاء لأفراد من هذا الشعب ليكونوا أنبياءً أو رسلا.

وقال تعالى ردا على الذين يكذبون الرسل بحجة أنهم يريدون أن يصيروا رسلا مثلهم ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وشاهدنا فى هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أى أنه يصطفى لرسالته الرسل والأنبياء الذين يخلقهم سبحانه مزودين بامكانيات أعبائها.

فالفرق بين الاصطفاء والاختيار أن الأول لا يكون الا للرفعة والعلو وفى الخير، أما الثانى فيكون إما للرفعة وإما للتسفل والانحطاط أو يكون بين الخير والشر وبين الطيب والخبيث، فى حين أن الاصطفاء يكون من بين الأخيار ومن الطيبين أى بين الطيب والأطيب والحسن والأحسن، كما أن الاختيار يكون لأمر من بين أمور متعددة كثيرة، ولا يشترط انتقاء الافضل، أما الإصطفاء فيكون لشئ أو لعبد يرفعه الله على سائر أقرانه، أى يكون بمعنى إنتخاب الافضل من بين فضلاء.

قال تعالى ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] وعباده الذين إصطفاهم سبحانه هم الرسل والأنبياء جميعا.

لانه لا يجوز إلقاء السلام غيبا إلا عليهـم، فالمصطفى على قوم أو أمة لا يكون له نظير فيهم، فإذا كان الاصطفاء مطلقا فهو النبوة، وإذا كان اصطفاءاً جزئيا فيكون فى أعلى مرتبة بالنسبة لهذا الامر الجزئى، فـاذا قلنا أن الله تعالى اصطفى فلانا على قومه للعلـم فإنه يكون الاكثـر علما فيهـم لايجاريه فى علـمه أحد فيهم. واذا قـلنا أن الله إصطفى لـبنى إسرائيل طالوت مـلكا أى أنه أفرده بالملـك عليهم قال تعالـى عن بنى اسرائيل ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٧].

فالاصطـفاء هنا للـملك، ومن ثم لا يـكون له ندٌّ ولا مـنازع، كما لا يكـون غيره مصطفى معه. فعن إصطفاء ابراهيم لِمَا لم يعطه الله تعالى لغيره وهو كونه أبا للأنبياء والرسل من بعده الى يوم القيامة، قال تعالـى عن هذه المرتبة بين الأنبياء، تلك التى لم ينلها غيره من بعـده ما عدا سيدنا محمد ﷺ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[البـقرة: ١٣٠] وأيـضا إصطفاه الله لكى يكون صاحب الملة الحنيفية فنسبها إليه وهذا إصطفاء لابراهيم على الأنبياء من بعده فى هذا الامر الجزئى وهو تسمية الملة باسمه.

كما بَـيّن لنا الله تعـالى فى كتابـه إصطفاء الله لمـوسى من بين أنـبياء بنى إسـرائيل بكلامه ورسالاته له فـقال تعالى له ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[الاعراف: ١٤٤] كذلك يكون اصطفَاء الله تعالى لـقوم على جميـع الاقوام أو لامة على جمـيع الأمم، فهذا إصطفـاء جماعى، ولكنه إصـطفاء للرسالة وحـمل الكتاب وتبليـغه لسائرالشعـوب والاقوام، ومن ثم ينزل عليـهم الكتاب بلغتـهم قال تعالى عن أمة سـيدنا محمد النبـى الخاتم صلى الله عليه وسلم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

وهذا معناه أنه سبحانه إصطفى أمته على سائر الأمم لمَّا شهد لها بالخيرية عليها جميعا وقد أثبت الله تعالى الإصطفاء لأمته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[فاطر: ٣٢].

وبهذا لا يكون الاصطفاء إلاَّ للمرتبة الأعلى، فالنبوة إصطفاء والأنبياء هم المصطفوْن ا لاخيار من ذكور البشر. ولابد أن الله تعالى اصطفى عليهم منهم من يشاء. فاصطفى الرسل وعددهم كما علمنا ثلاثمائة وثلاثة عشر واصطفى من هؤلاء خمسة هم أولو العزم من الرسل وهم: نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم، وسلم، وإختار سبحانه من هؤلاء الخمسة واحدا هو المصطفى المطلق سيدنا وسيد الخلق محمد صلى الله وسلَّم عليه وعليهم أجمعين.

وإصطفى من نساء البشر اللائى كملن وهن أربعة آسيا امرأه فرعون ومريم ابنة عمران وخديجه بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله وسلم عليه وعليهن جميعا وسلم.

وإصطفى عليهن مريم إبنة عمران عليها السلام بقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٢ - ٤٣] فمريم هى التى اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين ، فهى المصطفاة باطلاق، فلاغرابة ولا إنكار للأخبار الواردة بأنها زوجة رسول الله المصطفى المطلق فى الجنة، مع زوجاته أمهات المؤمنين الطاهرات المصطفيات أيضا لكن مريم عليها السلام قد إصطفاها الله تعالى منهن عليهن.

الفصل الثانى

الذكورة شرط فى النبوة تابع للإصطفاء

إختلف العلماء حول شرط الذكورة فى النبوة . فرأى أكثرهم أن النبوة محصورة فى الرجال و لانبوة فى النساء، ورأى قليل منهم أنه تجوز النبوة فى النساء وإستدل هؤلاء بقوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص: ٧] وشاهدهم فى هذه الآية أن الله تعالى قد أوحى إلى أم موسى فتكون من الأنبياء. وهذا خطأ مردود عليه بأكثر من وجه:

الاول: أن النبوة ليست وحيا فقط، ولكنها وحىٌ برسالة يُكَلَّف النبى بتبليغها للناس فيها هداهم وصلاحهم، والوحى فى هذه الآية أمر لأم موسى بفعل معين لايتعدى إلى قوم أو شعب أو أمة.

الثانى: كما قد يكون الوحى هنا بمعنى الالهام أو ماهو أقوى من الإلهام كالتحديث بأن يسمع المُحَدَّثُ صوتا يلح عليه بفعل معين وقد قال رسول الله ﷺ (لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناسٌ مُحدَّثون فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر)[1].

ويدل على أن الوحى بمعنى الإعلام الخفى لغويا وبمعنى الإلهام ويدخل فيه

(١) أخرجه البخارى فى الصحيح كتاب فضل الصحابة باب ٦ وفى فتح البارى برقم ٣٦٨٩.

التحديث قوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[النحل: ٦٨] وليس المحدَّث بنبى، وليس الحديث له وحى من قبيل وحى النبوة الذى هو رؤية الملك والاستماع اليه والتَّلقى منه، إما يقظة وإما مناما. فقد تكون أم موسى تلقته بدرجة التحديث أو الالهام.

الوجه الثالث: أن عناصر النبوة: آدمية ووحى وإصطفاء وعصمة ومعجزة، وعلى فرض أن أم موسى عليهما السلام قد تلقت وحيا رؤيا وإستماعا، فإنها أيضا لا تكون نبيَّة حيث تنقصها الرسالة والإصطفاء للنبوة والعصمة والمعجزة.

كما إستدل اصحاب هذا الرأى بما ورد بشأن مريم عليها السلام من آيات تثبت لها الوحى والإصطفاء والمعجزة والعصمة ومن ثم تكون نبيَّة.

اما إرسال الوحى لها صريحا صوتا وصورة فدليله قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾[مريم : ١٨ - ١٩]

وأما دليل إصطفاء مريم عليها السلام فقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٤٢].

وأما دليل المعجزة التى هى خارقه للسنن والعادات ففى قوله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٣٧]ولا خلاف بين المفسرين بأن هذا الرزق كان من الجنة، حيث كان يجد عندها ثمار الصيف فى الشتاء، وثمار الشتاء فى الصف. وهذا من خوارق العادات .

أما العصمة فهى ثابته لها عليها السلام بقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ والشاهد فى هذه الآية قوله﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أى من الذنوب والخطايا وهذا دليل العصمة.

وللرد على هذه الحجج أقول وبالله تعالى التوفيق والسداد:

١ ـ على فرض إجتماع الاصطفاء والوحى وخارقة السنن والعصمة لا يكمل لمريم عليها السلام عناصر النبوة، لان فى كل عنصر من هذه العناصر عند مريم عليها السلام مايختلف به عن نظيره عند الأنبياء. فالاصطفاء المكرر والمؤكد فى الآية ليس على العالمين ولكن على نساء العالمين.

ذلك أن الله تعالى قد شاء أن يكون خَلْقُه كله متفاضلا، فنسبة التفاضل سائدة فى جميع الخلق، فالتفاضل بين النجوم والكواكب، وبين أنواع التربة وانواع المياه وبين البحار وبين الجبال وبين المعادن وبين النباتات وبين الحيوانات وبين الكائنات العاقلة الثلاثة: الملائكه والجن والإنس، حيث أمر الله تعالى الملائكة ومعهم ابليس الذى كان من الجن بالسجود لآدم تكريما وتفضيلا. وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾[الإسراء: ٧٠].

وجعل التفاضل أيضا فى بنى آدم فجعل أفضل الآدميِّين الأنبياء، وجعل أفضل الأنبياء الرسل المنزلة عليهم الكتب، وجعل أفضل الرسل الخمسة أولى العزم قال تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥] وجعل أفضلهم رسول الله صلى الله عليه وعليهم وسلم، فاذا علمنا أن الآدمية نوعان ذكور وإناث فإنه يكون من البدهى إدراك جعل النبوة فى الذكور دون الإناث لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٣٣] وهؤلاء جميعا رجال، فاصطفاء آدم هو اصطفاء للنوع الآدمى على أعلى أنواع الخلق الأخرى ، وهما الملائكة، والجن واصطفاء نوح بجعل ذريته هم الباقين ومنهم الأنبياء والرسل، واصطفاء ابراهيم كذلك بجعل النبوه فى ذريته من أبناء إسحق وإسماعيل، واصطفاء آل عمران من ذرية إسحق ويعقوب، وهم الذين من ذريتهم مريم والمسيح عليهما السلام، فالاصطفاء دائما من الرجال والأنبياء دائما من الرجال.

أما النساء فقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه قد كمل من الرجال كثير

(وهم الأنبياء) ولم يكمل من النساء الا قليل جدا فقال (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا: أسية إمرأة فرعون ومريم بنت عمران وإنّ فضل عائشة على النساء كفضل الشريد على سائر الطعام)[1] وحيث من المعلوم أن اكمل الرجال الأنبياء ويليهم فى الكمال الصدِّيقون أو الاولياء لقوله تعالى ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩] فجعل سبحانه مرتبة الصديق بعد النبى ومرتبة الشهيد بعد الصدِّيق وبعد ذلك درجات الصالحين.

فإذا كانت الأنثى أقل درجة من الذكر لقوله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٢٨] فتدبَّر قوله تعالى ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾وهى درجة القوامة بما فضل الله تعالى به الذكور على الاناث من خصائص وأحوال للذكورة والرجولة تجعلهم صالحين لعمارة الأرض بالحرث والسعى والمشى فى مناكبها والتعمير بالبناء والصناعة، وأهم من هذا كله الجهاد فى سبيل الله تعالى، وقد بعث الله تعالى الأنبياء مجاهدين بالكلمة وبالسيف، وهذا كله من اختصاص الرجال دون النساء لاختصاص النساء فى تعمير الأرض بالحمل والولادة والإرضاع والحضانة والتربية، هذه هى القاعدة بالنسبة لحياة الرجال، وتلك هى القاعدة بالنسبة لحياة النساء، ولا يقدح فى صحة القاعدة بعض الاستثناءات بقيام بعض النساء باعباء الجهاد بالسيف أو بالعمل خارج البيت والتزام بعض الرجال بيوتهم لأسباب و دواعى خاصة، بل هذه الاستثناءات تثبت القاعدة وتؤكدها.

قال تعالى مؤكداً هذه القاعده ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[النساء: ٣٤].

فهل اصطفاء مريم عليها السلام الوارد فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٤٢] هو اصطفاء للنبوة كاصطفاء آدم ونوح وآل ابراهيم وآل وعمران على العالمين؟

---

(١) صحيح البخارى باب قول الله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ...﴾ إلى قوله ﴿كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ حديث رقم ٣٢٣٠.

بالقطع لا، لأن الله تعالى قال بالنسبة لمريم ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أما بالنسبة لنوح وآل ابراهيم وآل عمران فاصطفاؤهم كان على العالمين رجالا ونساءً، بل إن إصطفاء مريم على نساء العالمين يدخل ضمن اصطفاء آل عمران، لأنها منهم عليها وعليهم السلام، بَيْدَ أن اصطفاء مريم على نساء العالمين يرفعها بين النساء إلى المرتبة الاعلى التى لاتدانيها إمرأة أخرى من نساء العالمين.

وحيث أن المرتبة الاعلى للنساء تقل عن المرتبة الأعلى للرجال درجة لقوله تعالى ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فان مرتبة مريم لا ترقى إلى درجة النبوة بالرغم من اصطفائها على نساء العالمين، وانما تبلغ الى درجة الصديقية، وهى الدرجة الأعلى التى يمكن أن تصل اليها المرأة الصالحة الكاملة وهى دون النبوة بدرجة واحدة.

ومن ثم فإن الله تعالى اختار من نساء العالمين المسلمات المؤمنات ومن المؤمنات الصالحات وإصطفى من الصالحات الصديقات، وإصطفى سبحانة من الصديقات نساء النبى صلى الله عليه وسلم، واصطفى منهن الأربعه اللائى كَمُلْنَ وسبق ذكرهن، وإصطفى منهن مريم ابنة عمران وفاطمة بنت محمد ﷺ وعليهن جميعا السلام فمريم صديقة اصطفاها الله تعالى هى والزهراء من جميع صديقات البشرية.

يدل على هذا قوله تعالى ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المائدة: ٧٥]. فوصف المسيح بالنُّبُوَّة والرسالة، ووصف أمُه عليهما السلام بالصديقية مع كونها المصطفاة على نساء العالمين، فلو كان فى النساء نَبِيَّة واحدة لكانت مريم، أو لكانت فاطمة الزهراء عليهما السلام، ولو كان فى النساء خمس نبيَّات لَكُنَّ آسيا ومريم وخديجة وفاطمة وعائشة عليهنَّ جميعا السلام، ولكن النبوة قاصرة على من يصطفيهم الله تعالى لها من الرجال.

وحيث أن الاصطفاء الالهى عنصر رئيسى فى النبوة، واصطفاء الله عز وجل الذكورة للنبوة دون الأنوثة، فلا نقول إن الذكورة عنصر رئيسى فى النبوة، ولكن نقول إن الذكورة شرط فى النبوة تابع للإصطفاء. لان الذكورة او الأنوثه من

الخصائص البشرية لدى بنى آدم، والبشرية من الآدمية، وحيث اعتبرنا الآدمية عنصرا رئيسياً فى النبوة فلا يجوز اعتبار الذكورة عنصراً رئيسيا مستقلا، لانها داخلة فى الآدمية ، وإنما هى شرط تابع للإصطفاء ، لذا أفردنا لها هذا الفصل.

كذلك لا يقول قائل إن مريم عليها السلام نبية لنزول الوحى عليها لقوله تعالى ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[مريم : ١٧]. لان الروح ما نزل اليها متمثلا فى بشر إلاَّ لكى يخبرها أنه سيهب لها غلاما زكيا، وهذا إخبار لها بأمر خاص ليس من قبيل رسائل الرسل التى يكلفهم الله تعالى بتبليغها لاقوامهم ، وكذلك الأنبياء يبعثهم الله عز وجل لتنفيذ مهام رسالية لاقوامهم، فهذا الوحى الذى أخبرها به الروح هو مجرد تبشير لها بإصطفائها بانها ستكون أمًا للمسيح عليه السلام.

كذلك لم يجر الله تعالى على أيدى مريم معجزة من قبيل معجزات الأنبياء، لأن ما كان يجده زكريا عليه السلام عندها من ثمار الجنة هو من قبيل كرامة الاولياء والصديقين لأن المعجزة هى خارق للسنن يتحدَّى به النبى أو الرسول قومه او غيرهم من البشر أن يأتوا بمثله، وهو يفعل هذا التحدى لاثبات صدقه فى إدعائه النبوة ومريم عليها السلام لم تفعل هذا ولم تزعم أنها نبية.

أما تفسير قوله تعالى ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ بأنه من قبيل عصمة الأنبياء فهو ليس كذلك، وإنما هو من قبيل حفظ الله تعالى لأوليائه من الرجس مثل قوله تعالى عن آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] ومع هذا فأهل البيت ليسوا معصومين عصمة النبوة وانما هم محفوظون بحفظ الله تعالى لهم بمنع الرجس عنهم، وحتى لون فسرنا تطهيرها بالعصمة فإن هذا لايثبت لها النبوة. لأن النبوة عناصر متعددة فى كُلٍّ واحد مجتمع لايتجزأ وعدم إكتمالها أو نقصان بعضها أو حتى نقصان واحد منها ينفى عن العبد النبوة، وقد يثبت له الصديقية، وهذا لا ينقص من قدر مريم عليها السلام ومكانتها

العظيمة العاليـة عند الله تعالى، إذ لم يعجزها عن نيل النبوة سوى الدرجة التى كـتبها الله تعالى للرجال على النساء.

وكذا الحـال بالنسبة لفـاطمة الزهراء عليهـا السلام ولأم المؤمنين الكبرى السـيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام، وكذا الحال بالنـسبة لآسيا إمرأة فرعون لأن شهادة رسول الله ﷺ لهن بالكمال النسـوى يرفعهن إلى مرتبة الصـديقات التى تجعلهن فى النساء بمرتبة الأنبياء فى الرجال.

ومن ثم ننتهى إلى أنه لا نبوة فى النساء، وهو مذهب جمهور العلماء[1].

---

(١) لم يخالفهم فى هذا إلا قليل جدا منهم ابن حزم الأندلسى.

العنصر الثاني: العصمة

١.العصمة فى اللغة العربية:

هى المنع ، يقال عصمته عن الطعام أى منعته عن تناوله، وعصمته عن الكذب أى منعته منه، وإستعصم: إمتنع ومنها قول إمرأة العزيز ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أى إمتنع إمتناعا شديدا، ومنها قول ابن نوح لأبيه ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[هود: ٤٣] أى يمنعنى ويحمينى من الغرق.

وقال تعالى ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[الاحزاب: ١٧]. أى من ذا الذى يمنعكم من أن يصيبكم السوء إذا أراده بكم الله عز وجل، ومن ذا الذى يستطيع أن يحرمكم ويمنع عنكم رحمة الله إذا أراد الله تعالى أن يرحمكم.

٢.تعريف العصمة شرعا:

والعصمة كما عرفها القرطبى رحمه الله لغة بقوله: (وسُمِّيت العصمة عصمة لانها تمنع من إرتكاب المعصية، وعرفها شرعا بقوله: هى حفظ الله لانبيائه ورسله عن الوقوع فى الذنوب والمعاصى، وإرتكاب المنكرات والمحرمات)... فالعصمة ثابتة

للأنبياء وهى من صفاتهم التى أكرمهم الله تعالى بها وميَّزهم بها على سائر البشر. فلم تكن لأحد إلا للأنبياء الكرام، حيث وهبهم الله هذه النعمة العظمى. وحفظهم من إرتكاب المعاصى والمنكرات صغيرها وكبيرها، فلا يمكن أن تقع منهم معصية أو مخالفة صريحة لأوامر الله عز وجل بخلاف سائر الناس.

وقد شاء الله تعالى أن يكون الأنبياء معصومين من المعاصى والمنكرات لتحقيق أمرين بهم:

الامر الاول: هو الحكمة من بعثهم للبشر

والامر الثانى: هو أداء وظيفتهم والمهام الموكولة إليهم.

أما الأمر الأول وهو الحكمة من بعث الله تعالى لهم وارسالهم إلى اقوامهم فهى - كما مرت - لكونهم أسوة للناس جميعا فى جميع الاحوال والابتلاءات.

وأما الامر الثانى فهو لإبطال احتجاج الناس، وليكونوا شهداءً عليهم يوم القيامة، وغنى عن البيان أن هذين الأمرين لا يتحققان بالأنبياء، إلا إذا كانوا معصومين عن القبائح والمنكرات والمحرمات، والذنوب الصريحة أيضا مهما كانت صغيرة، إذ لو وقعوا فى شئ من هذا لصاروا أسوة سيئة للناس، كما أنهم يكونوا حجة للناس على الله فيعتذرون بأفعالهم عن إرتكاب الذنوب، اذ يقولون لله تعالى إذا كان انبياؤك قد فعلوا هذه الفحشاء وهذه المنكرات وهذه الذنوب وهم أفضل خلقك فكيف تحاسبنا عليها؟!.

وكذا بالنسبة لوظيفة الأنبياء المتمثلة فى البلاغ المبين للرسالة وأهمها الحرام والمكروه والشركيات ثم الإمتثال والتطبيق الى البيان القولى والعملى وغنى عن البيان أن وقوعهم فى هذه المنكرات متعارض مع أداء هذه الوظيفة، وكذا بالنسبة لمهمتهم العليا وهى الجهاد بالكلمة والسيف لا يمكن أن يتحقق، إذا لم يكونوا معصومين، لأن غاية الجهاد العليا هى منع المحرمات والمنكرات والفواحش وإقامة مجتمع بشرى طاهر عفيف تغلب عليه الطاعة لله عز وجل وتقل فيه المعاصى . وهذا لا يتحقق إلا إ ذا كان الانبياء والرسل معصومين.

من أجل هذا شاء الله تعالى ان يكون الأنبياء معصومين من جميع الذنوب والمعاصى صغيرها وكبيرها.

وهكذا قد ثبتت عصمة الأنبياء شرعا أى نقلا وعقلا ومن ثم اتفق العلماء جميعا على عصمتهم واتفق علماء أهل السنة والجماعة على قصر العصمة على الأنبياء فلا عصمة إلا لنبى ولا نبى إلا وهو معصوم، وبالتالى لم يكن رسولا إلا وهو معصوم لأن كل رسول نبى. ولكن إختلف العلماء حول الاجابة على هذا السؤال:

٣.هل الأنبياء معصومون قبل بعثهم بالنبوة أم بعدها؟:

فذهب البعض من العلماء الى أن العصمة ثابتة للانبياء والرسل قبل البعثة وبعدها، وحجتهم أن السلوك الشخصى للنبى، ولو قبل النبوة، له تأثيره على مستقبل الدعوة، إذ لو وقع الذى سيعلن نبوته فى سن الأربعين فى معاصى صريحة فى شبابه لعيَّره أعداء الدعوة بهذا العمل وأبطلوا بمعصيته زعمه أنه نبى بحجة أن الله تعالى لا يبعث الا الصالحين وقد قال تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

فلابد أن يكون الأنبياء من ذوى السيرة العطرة ، ومن السمو الخلقى، ومن المترفعين عن السلوك المخجل المعيب حتى لايكون ثَمَّ مطعن فى رسالته ودعوته.

وقد إستدل هذا الفريق من العلماء بجانب هذه الحجة العقلية الى حجج نقلية مثل قوله تعالى لموسى صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه: ٣٩] أى منذ صغره. وقوله تعالى عن بعض الأنبياء ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[ص : ٤٧] ومن ثم فلابد أن يكونوا معصومين ومحفوظين قبل النبوة وبعدها.

أما الفريق الآخر من العلماء فقد ذهبوا إلى أن العصمة للأنبياء هى بعد البعث، واحتجوا لرأيهم بأن الناس ليسوا مأمورين باتباعهم قبل النبوة، لانهم قبل النبوة كسائر البشر، ومع هذا فان هذا الفريق من العلماء يرى أن الأنبياء قبل البعث

محفوظون من الوقوع فى المعاصى بالعناية الالهية بمقتضى مازوّدهم الله تعالى من فطرة سوية قوية تدلهم على الخير وتمنعهم من الفواحش والذنوب.

فالفرق بين الفريقين هو فى التعْليل، لأن الفريقين يُقرّان بعدم إرتكاب النبى للمعصية أو الذنب الواضح الصريح البيّن قبل وبعد البعث، أما الفريق الأول فيجعله بمقتضى العصمة، والثانى يبرر هذا بما يسمى بحفظ الله تعالى له بالفطرة. ولكنهما متفقان فى أن الأنبياء لا يرتكبون المعاصى قبل وبعد النبوة.

فالنبى إما أن يبعث فى أمة كتابية سبقه فيها رسول برسالته وبكتابه مثل أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى صلى الله عليهم جميعا وسلم، وإما أن يبعثه الله تعالى فى أمة أمية لم يسبق فيها رسول أو نبى، ففى الحالة الاولى يكون النبى معصوما بمقتضى التزامه بشرع الله وبالرسالة التى بين أيديهم فلا يخالف الشرع، وهذا ما كان من أحوال أنبياء بنى إسرائيل صلى الله عليهم وسلم جميعا فتكون عصمتهم عن الذنوب والمعاصى قبل البعث بمقتضى علمهم بالشريعة والتزامهم الذاتى بها.

وأما النبى المبعوث فى أمة أمية فيكون حفظ الله تعالى له بمقتضى قوة الخير فى فطرته وبرعاية ربه عز وجل له، فلا يقع حتى فى الشبهات أو الأمور المتشابهات التى يتعذر بالعقل أو بالفطرة إدراك أنها من المباحات أم من المكروهات. أما فطره النبى فهى كفيلة أن تدله على المحرمات فينتهى عنها ويجتنبها كما تدله على الذنوب الصغيرة فيجتنبها، كما تدله على مكارم الاخلاق فيلتزمها، ويتمسك بها تمسكا شديدا. ولكن قد يتحيّر النبى فى فترة الصبا بين بعض المكروهات التى تكون من الهنات الصغيرة وبين المباح، وبخاصة فى هذه المرحلة المبكرة من عمره قبل مرحلة الرشد، ومن ثم فان الله تعالى يمنعه من فعل هذا المكروه فى هذه المرحلة وهو منع من الله عز وجل.

من ذلك ما حدث للنبى صلى الله عليه وسلم وهو غلام أثناء حمل حجارة الكعبة حسب رواية ابن هشام فى سيرته عن ابن اسحق بقوله صلى الله عليه وسلم (لقد رأيُتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان كلنا قد تعرّى،

وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر، وإذ لكمنى لاكم لكمة وجيعة ثم قال شد عليك إزارك. قال: فأخذته وشددته عليّ ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وازارى عليّ من بين أصحابى)[1].

قال السهيلى فى التعليق على هذه القصة: وهذه القصة إنما وردت فى الحديث الشريف فى حين بناء الكعبة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة مع قومه اليها، وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لنقل الحجارة، وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم يحملها على عاتقه وإزاره مَشْدود عليه فقال له العباس رضى الله عنه: يا ابن أخى لو جعلتَ ازارك على عاتقك، ففعل، فسقط مغشيا عليه. ثم قال إزارى إزارى فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة، وحديث ابن إسحق، إن صح أنه كان فى صغرة، فمحمله على أن هذا الأمر كان مرتيْن: مرة فى صغرة ومرة فى شبابه)[2].

وسواء أكان هذا فى شبابه أم فى صغره، فإن تفسير خلع الإزار وجعله على عاتقه ليحمل عليه الحجارة مع ما فى هذا من إمكانية رؤية الآخرين للعورة، هو أن النبى صلى الله عليه وسلم قد استجاب أول الأمر لفطرته النورانية فكان يحمل الاحجار على كتفه، الأمر الذى يمكن ان يؤذى كتفه وجلده، فأمره عمه العباس رضى الله عنه خوفا عليه من هذا أن يضع إزاره على كتفه كما يفعل الحاملون للحجارة حينئذ فأصبح النبى صلى الله عليه وسلم فى حيرة بين طاعة عمه رضى الله عنه وهو من أوأمر الفطرة السوية أى طاعة الوالد والعم والد، وبين أمر الفطرة الآخر بستر العورة، فكان على النبى صلى الله عليه وسلم الاختيار بين أمرين للفطرة التى تمنعه من مخالفة أحدهما، فلما اختار طاعة الوالد واستجاب، أدركه الله تعالى بعنايته وحفظه فعصمه من أن تتكشف عورته صلى الله عليه وسلم لغيره، فلكمه الملاك لكمة وأمره أن يَشُدَّ عليه إزاره، وهذا يدل على أن الله تعالى عصم نبيه حتى من أمر ليس هو فى عرفهم وزرا أو ذنبا، إنما قد عصمه الله تعالى حتى عمًا لا يليق، ولكن

---

(١) سيرة ابن هشام حـ١ ص ١٩٤.

(٢) عن كتاب النبوة والانبياء للصابونى صفحة ٥٢.

هذا لم يكن لغيره من الأنبياء، بل ولا لغيره من الرسل، لان سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم قد قتل المصرى خطأ، وهو إن كان قد حدث هذا منه بوكزة من غير قصد القتل، إلا أنه لا شك كان خطأ لم يمنعه الله تعالى ويعصمه منه. الامر الذى يجعل العصمة للنبوة بعد البعث بالرسالة وليس قبلها فى نظر بعض العلماء، أما حادثة شد الازار بالنسبة للمصطفى الخاتم فهذه من خصوصياته صلى الله عليه وسلم التى اختصّه الله بها من دون سائر الرسل والأنبياء. كما سنرى هذا فى أجزاء لاحقه باذن الله تعالى.

٤.هل عصمة النبى عن الكبائر والصغائر أم عن الكبائر فقط؟:

الأمر الثانى الذى إختلف علماء الإسلام حوله بالنسبه لعصمة الأنبياء هو فى الإجابة على هذا السؤال:

- هل عصمة الأنبياء بعد البعث بالنبوة عن الكبائر فقط أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب؟

وإختلفوا حول هذا الموضوع إلى فريقين أيضا: -

الاول: وهو جمهور العلماء، قالوا يعصمهم الله تعالى من الكبائر والصغائر من الذنوب.

الثانى: قالوا بل عصمتهم من الكبائر ويجوز وقوعهم فى الصغائر.

٥.العصمة فى ضوء عقيدة القضاء والقدر:

إذا كانت العصمة تعنى المنع ومدلولها فى حق الأنبياء عدم الوقوع فى الذنوب بأنواعها وأحجامها الكبير منها والصغير، فهل نفهم من هذا أن منع النبى او الرسول عن الذنب هو بقدر الله تعالى وقضائه الجبرى الملزم للأنبياء بالنجاة من الذنوب والمانع لهم جبرا عنها؟ أم أن هذه العصمة للأنبياء نابعة من ذواتهم باختيارهم.؟

إذا تذكرنا أن الحكمة من بعث الرسل والأنبياء هى أن يكونوا يوم القيامة شهوداً على المشركين والعصاة من الإنس والجن، حتى لا يكون للناس على الله تعالى حجة بعد الرسل يوم القيامة، وأيضا ليكونوا أسوة حسنة لأقوامهم وأهليهم، وكذلك

ليبتلى الله تعالى بهم العباد ويبتليهم هم أيضا بالعباد. وإذا علمنا ان (رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)[1] انتهينا من هذا كله إلى أن الرسل والأنبياء مخيَّرون كسائر البشر، ومن ثم فهم، وإن كانوا معصومين، إلا أن ذواتهم الشريفة مخلوقة بإمكانية الطاعة التى تتساوى تماما مع إمكانية المعصية، شأنهم فى هذا شأن أى كائن مبتلى من الانس والجن، وعلى هذا فإن كل نبى عندما يطيع الله عز وجل، فإنه يكون قادرا على معصيته. وهذا لازم من لوازم صحة الاختيار والابتلاء، وكذلك لازم من لوازم كونه أسوة حسنة، ولازم من لوازم كونه حجة لله تعالى على قومه يوم القيامة، فذات النبى صابرة على الطاعة ممتنعه عن المعصية ذاتيا أى إختيارا، ومن ثم لا يجوز تفسير عصمة النبوة بمنع الله تعالى النبى عن المعصية حين لا يقدم عليها أو إذا لم يختارها، ولكن العصمة النبوية هى امتناع النبى امتناعا شديدا حاسما صارما عن المعصية أو الذنب باختياره هو، فالنبى هو الذى يستعصم، فالعصمة إذاً للنبى ذاتية وليست خارجية مفروضة عليه.

ومع هذا فالصحيح أن يقال عصمة الله تعالى للأنبياء، والصحيح أيضا أن يقول كل نبى وكل رسول لله عز وجل : لولا عصمتك لى يارب لكنتُ من الخاسرين أو لكنتُ من الجاهلين. ولكن هذا من باب الرجوع بالفضل وبالخير والتوفيق الى الله عزوجل والرجوع بالحسنة اليه سبحانه كما أخبرنا أن الحسنة من الله والسيئة من النَّفس، وإن كان الكل من عند الله، لأنه لايتم شئ أو حدث أو فعل فى الكون إلا بإذنه وأمره سبحانه، ومن ثم فلا تعارض بين القول بأن الانبياء مخيَّرون وبين القول بعصمتهم أى بعصمة الله تعالى لهم، بالرغم من أنهم هم الذين يستعصمون، أما ضمان عدم وقوعهم فى الذنب رغم كونهم مخيرين فهو لأن علم الله تعالى لا يخطئ حاشا لله عز وجل، فهو الخالق وهو يعلم من خلق، وهو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين، حتى قبل خلقهم، ومن ثم فهو لا يجعل رسالته إلا فيمن علم سبحانه أنه أهل لحملها، وأنه بمجموع إختياراته وابتلاءاته سيرقى إلى المقام الأسنى والمحل الأرفع بين درجات المؤمنين، وأنه سيجتاز جميع الابتلاءات

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى المستدرك والترمذى والدارمى.

التى يمر بها مع شدتها على أطهرو أعف وأجمل وأحسن ما يكون الاجتياز، ليكون أسوة حسنة للمؤمنين وليكون حجة وشاهدا على الناس يوم القيامة.

قال تعالى عن أكابر المجرمين الذين يحاربون الرسل ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[الأنعام: ١٢٤] فتدبر قوله تعالى﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أى أنه سبحانه أعلم بمن هو جدير بحملها، وبمن هو صالح لكى يعصم نفسه من الذنب، فيصير مبلغا ويصير شاهدا، ويصير بشيرا، ويصير نذيرا، ولا يتم له هذا إلا بأن يكون صالحا أن يستعصم عن الذنب، ولكن لأن كل شئ بمشيئة الله تعالى وقدره ومنه وكرمه وعطائه، نقول إنه ماكان له أن يستعصم الا باذن الله تعالى وإنما أرسل الله الرسل اصطفاءً لهم من خيرة الناس رحمة للناس.

فليس ثم تعارض بين كون النبوة إصطفاء وكون الانبياء معصومين، وبين كون الأنبياء مخيرين ومبتلين أيضا كسائر الناس. لأن الله تعالى لا يجعل الاصطفاء والعصمة والوحى والمعجزة إلا لمن يعلم أنه جدير بحملها وأول هذا كله أمانته وإمتناعه الذاتى عن الذنب.

الفصل الرابع

شبهات حول عصمة الأنبياء

ورد فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة بعض أخبار فى سير بعض المرسلين والنَّبِيِّين تُورث فى النفس بعض الشبهات التى تقدح فى عصمة النبوة عن الوقوع فى المعاصى، وحيث العصمة ثابتة فى حق النبوة باعتبارها عنصرا رئيسيا ومكونا ذاتيا فى حقيقة النبُّوة، فقد استوجب هذا من العلماء بيان حقيقة هذه الشبهات ودحضها درءاً لها عن المعصومين صلى الله تعالى عليهم جميعا، ومن ثم سنوردها فى هذا الفصل، ثم نعرض بيانا بحقيقتها لدرئها فى فصل لاحق باذن الله تعالى.

قال تعالى فى حق آدم صلى الله عليه وسلم ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[طه: ١٢١] و آدم نبى مكلم كما جاء عنه فى الحديث الصحيح. فكيف يعصى ربه ويقع فى الغواية وهو نبي معصوم؟!.

وقال تعالى فى حق نوح ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[هود: ٤٦] لما نادى ربه أن يغفر لإبنه.

وقال رسول الله ﷺ فى حق سيدنا ابراهيم صلى الله عليه وسلم (لم يكذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتيْن منهن فى ذات الله، قوله: (إنى سقيم) وقوله (بل

فعله كبيرهم هذا) .. وقال بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبَّار من الجبابرة فقيل له: إن ههنا رجلا معه إمرأة من أحسن الناس. فأرسل إليه فسأله عنها مَنْ هذه ؟ قال: أختى.

فأتى فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فان سألك فأخبريه أنَّك أختى... فانك أختى فى الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك، فأرسل اليها فأتى بها وقام ابراهيم يصلى ، فلما دخل عليها ذهب يتناولها بيده، فأُخذَ حتى ركض برجله، فقال: أدعى الله لى ولا أضرك، فدعت الله فَأُطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال أدعى الله لى ولا أضرك، فدعت الله فَأُطلق، فدعا بعض حجبته فقال : إنكن لم تأتنى بإنسان إنما آتيتنى بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده مهيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر فى نحره، وأخدم هاجر.. قال أبو هريرة تلك أمكم يا بنى ماء السماء)(١).

و شاهد هذا الفريق من هذا الحديث أنه إذا كان ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم قد كذب ثلاث كذبات كما أخبر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الحديث السابق فعلى هذا يكون الانبياء والرسل معرضون لصغائر أو أقل من الذنوب، هى هنات بسيطة، لكنها فى حقهم قائمة لاثبات آدميتهم من حيث أن (كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التّوابون)(٢) كما قال المصطفى الخاتم صلى الله عليه وسلم، والأنبياء والرسل من بنى آدم فكانت لكل نبى هذه الهفوة او الذنب الصغير جدا إثباتا لآدميته وتتميما لهذه الآدمية وتأكيدا لها.

كذلك ما جاء فى حق يوسف بقوله تعالى عن تجربته مع إمرأة العزيز بعد أن غلّقت الأبواب وقالت هيْتَ لك ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] والهم هو حديث النفس أو فعل للنفس الباطنية لايتعدى إلى النية وإلى الجوارح لذا قال النَّسفى فى تفسير(﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ هَمَّ عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هم الطباع مع الإمتناع....).

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.
(٢) المرجع السابق.

فـذهب البعض إلى أن مـاحـدث من هذا الهم النفسـى من يوسف عليه الصـلاة والسلام هو من الهنات التى تثبت أن العصمة هى من كبائر الذنوب وصريحها وليس صغائرها ومضمرها.

وكذلك ما ورد فى حـق يونس عليه السلام كمـا قال تعالى ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الانبيـاء: ٨٧ - ٨٨].

فظاهر الآيات يدل على أن ذهاب يونس مغاضبـا وأنه أخطأ وعصى ربه فتعرض لانتـقام الله تعـالى بابتلاع الحـوت له. وقد يعـتـبر هذا الفـريق هذا دليلا على وقـوع الانبياء فى الذنوب الصـغيرة. وقد يعتـبر البعض خطأ يونس غير صـغير بدليل عظم العقوبة.

كذلك ما ورد فى حق داود بقوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٢١ - ٢٥] وجاء فى تفسيرها أن داود صلى الله عليه وسلم رأى إمرأة أحـد قواده فأعـجبته فـتمنى أن يستـشهد هذا القـائد فى الغزو لكى يتزوجـها داود من بعـده، فأرسل الله تعالى له مـلكيْن فى صورة متـخاصـميْن ينازع أحدهمـا أخاه فى نعجتـه الوحيدة بالرغم من أنه يملك تسـعاً وتسعين نعجـة، وكان لداود نساء كثيرات، فأدرك خطأه وخَرَّ راكعا وأناب. فهل هذا هو ما حدث من داود عليه السلام؟!.

وكذلك أصحاب هذا الرأى يجدون فى أحداث سيرة المصطفى الخاتم صلى الله عليه وسلم المدونة فى كتاب الله تعالى وفى كتب السيرة والسنن ما يفيد حدوث بعض الهنَّات والمخالفات الصغيرة جداً منه. الأمر الذى كان يعاتبه ربه من أجله وقد تعدد هذا فى القرآن الكريم :

١ - مثل قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[الانفال: ٦٧ - ٦٨].

٢ - ومثل قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾[عبس: ١ ـ ٤]

٣ - ومثل قوله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[التوبة: ٤٣].

٤ - ومثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

٥ - ومثل قوله تعالى قولا ينسب له الذنب نسبة صريحة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[الفتح: ١ - ٢].

٦ - ومثل قوله تعالى ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[الأسراء: ٧٣ - ٧٥].

٧ - ومثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَلِيمًا حَكِيمًا ① وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الاحزاب: ١ - ٢].

٨ - ومثل قوله تعالى ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[يونس: ٩٤].

٩ - وقوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

١٠ - وقوله تعالى ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[الاحزاب: ٣٧].

هذه كلها شبهات حول عصمة الأنبياء وحول عصمة النبى الخاتم صلى الله عليهم جميعا وسلم، سنحاول أن نجليها إثباتا لعصمتهم ونفيا للذنوب عنهم وتنزيها لهم عنها، وهذا فى الفصل القادم، أما بالنسبة لعصمة المصطفى الخاتم صلى الله عليه وسلم، فسيكون الكلام عنها فى الجزء الثانى أو الثالث من هذه الموسوعه باذن الله تعالى؛ لأن عصمته صلى الله عليه وسلم هى العصمة المطلقة من حيث أنه وحده صلى الله عليه وسلم الذى كانت طاعته لله عز وجل تامة كاملة.

الفصل الخامس

درء الشبهات عن عصمة الأنبياء والرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم

(١) درء شبهة المعصية عن عصمة آدم عليه السلام:

قال تعالى ناسبا المعصية لآدم عليه السلام ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢].

قال جمهور العلماء إن هذه معصية قد صَرَّحَ القرآن بها، أى أنها معصية بشهادة رب العالمين سبحانه، ولكنها لا تتعارض مع عصمة النبيِّين. لأنها كانت قبل اجتبائه نبيًا لقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ...﴾ فالمعصية كانت قبل الاجتْباء بالنبوة ، وتوضيحا لهذا أقول وبالله تعالى التوفيق والسداد، إن المرحلة الأولى من حياة آدم وزوجه فى الجنة، كان آدم فيها ممثلا للبشرية كلها، حيث أن من طبيعة الآدمية الخطأ والمعصية لقوله ﷺ (والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم)(١) فإن كان آدم قد أخطأ وعصى وغوى ، ففى هذه المرحلة، ولكن لما تاب الله تعالى عليه وأنزله إلى الأرض واجتباه للنبوة فإنه لم يعص الله تعالى بعد ذلك. قال محمد رشيد رضا فى

(١) صحيح مسلم باب سقوط الذنوب بالاستغفار حديث رقم ٢٧٤٩.

تفسير المنار (وأما مسألة عصمة آدم، فالجرى على طريقة السلف، يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه كسائر ما ورد فى القصة، مما لا يركن العقل إلى ظاهره، ولنا أن نقول: إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة، كما قال جل شأنه ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ والإتفاق على العصمة هو على مخالفة الأوامر بعد النبوة، وقد يكون الذى وقع من آدم نسيانا فُسُمِّى تفخيما لأمره عصيانا.. والنسيان والسهو مما لا ينافى العصمة)(١).

وقال إبن العربى فى كتابه أحكام القرآن مرجحا وقوع المخالفة من آدم بسبب النسيان والسهو (كم قال فى تنزيه الأنبياء عن الذى لا يليق بمنزلتهم مما ينسب الجهلة إليهم - من وقوعهم فى الذنوب عمدا منهم إليها، واقتحاما منهم إليها، واقتحاما نها مع العلم بها، وحاشا لله - فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك فكيف بالنَّبيِّين، ولكن البارى سبحانه وتعالى بحكمه النافذ، وقضائه السابق، أسلَمَ آدَمَ إلى المخالفة فوقع فيها متعمدا ناسيا، فقيل فى تعمده ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾... وقيل فى بيان عذره ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طـه: ١١٥] ونظيرها: أن يحلف الرجل لايدخل دارا أبدا، فيدخلها متعمداً ناسيًا ليمينه، أو مخطئا فى تأويله فهو عامد، ناس، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان...... وجاز للمولى أن يقول فى عبده ﴿عَصَىٰ﴾ تحقيرا وتعذيبا، ويعود عليه بفضله فيقول: ﴿فَنَسِيَ﴾ تنزيها)(٢).

ثم قال ابن العربى رحمه الله (ولا يجوز لأحد اليوم أن يخبر بذلك أى بعصيان آدم، إلا إذا ذكرناه فى أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيه، فأما أن يبتدىء ذلك من قبل نفسه، فليس بجائز لنا فى آبائنا الأدنين، المماثلين لنا، فكيف فى أبينا الأقدم الأعظم الأكرم، النبى المقدم، الذى عذره الله، وتاب عليه وغفر له)(٣).

وعلى هذا فمعصية آدم لا تقدح فى عصمته بإعتبار نبوته ﷺ، إما لكونها قبل

(١) تفسير المنار. جـ١ ص٣٨٠.
(٢) ابن العربى/ أحكام القرآن جـ٣ ص١٢٤٩.
(٣) ابن العربى/ أحكام القرآن جـ٣ ص١٢٤٩ عن كتاب النبوة والأنبياء للصابونى.

النبوة وهذا هو الذى أرجحه، لأن فترة مكوث آدم وزوجه فى الجنة كانا يمثلان فيها البشرية التى خلقها الله تعالى قابلة للخطأ، فغلب الميل للمعصية عليه أكثر من الميل للعصمة فلما تاب الله عليه وأنزله إلى الأرض، إجتباه للنبوة فلم يحدث منه الخطأ أو المعصية مع كونه فى دار المعصية حيث صار معصوما بالنبوة.

ألا ترى أن الله تعالى قال لآدم وزوجه مع نزولهما إلى الأرض ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ـ ٣٩] والأنبياء والرسل هم حملة هدى الله للناس وقد بدأ نزول هذا الهدى الذى هو هدى النبوة بعد نزول آدم وزوجه وليس فى الجنة.

(٢) عصمة نوح صلى الله عليه وسلم ودعاؤه لابنه:

أما ما نسب لنوح فلم يكن ذنبا ولم يكن معصية كما قديتوهم البعض من قول الله عزوجل له ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود:٤٦] فماذا كان من نوح ﷺ؟

استأذن الله أن يدعوه عزوجل فى أن ينجى ولده الذى أبى أن يركب معه السفينة قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

ويتضح لنا معنى قول نوح عليه السلام لربه ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ إذا علمنا أن الله تعالى كان قد وعده بنجاة أهله بقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] فهذا وعد من الله تعالى بأن يستثنى من الغرق أهله إلا من سبق عليه القول منهم، وربما علم نوح عليه السلام ،أن زوجه هى المستثناة التى سبق عليها القول من أهله، فلم يكن يتوقع أن يكون ابنه هذا الذى رفض دخول السفينة، وقال له ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ

الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] هو أيضا من الذين سبق عليهم القول من أهله، وكان يظنه مؤمنا حسب ما كان يظهر له الابن من نفسه، ومن ثم نادي ربه ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أى وقد وعدتنى بنجاة أهلى، ودخولهم معى السفينة، وأنت القادر على انقاذه واعادته إليها، فهل تأذن لى بأن أسألك وأدعوك فيه؟ فكانت الإجابة: أنى أعظك أن تكون من الجاهلين، جاء فى تفسير النسفى (وقد كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه، لأنه كان ينافق، وإلا لما يحتمل أن يقول: إن ابنى من أهلى، ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهى عن سؤال مثله بقوله جلا وعلا ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فكان نوح يسأله على الظاهر الذى عنده، كما كان أهل النفاق يظهرون لنبيِّنا عليه السلام الموافقة، ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله تعالى عليه بقوله تعالى لنوح ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أى ليس من الذين وعدتُ النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة فى السر والعلن)(١).

وهكذا تبرأ نوح من جميع الذنوب ؟

كذلك أُضيفُ إلى قول النسفى أن نوحًا عليه السلام لم يسأل ربه سؤالا صريحا وإنما قال عبارة يستشف منها أنه يستفسر عن مصير ابنه، وعن حاله وعن استحقاقه النجاة من عدمه برحمة الله تعالى، ألاَ ترى معى أن قوله ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ فان كان له سبيلا للنجاة، وإلاَّ فحكمكِ الحق والعدل وأنت أحكم الحاكمين، أى وحكمى عليه باستحقاقه النجاة غير صحيح. فكَأَنَّ نوح كان يستفسر ليستأذن فى السؤال أكثر من كونه يسأل سؤالا صريحا، فإذا كانت مناداة ربه بانقاذ ابنه من الغرق ذنبا، فهو لم يفعله، وإنما استفسر وإستأذن ليفعله، لذا قال الله تعالى له ناهيا له عن السؤال ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى لو سألت ستكون من الجاهلين، والموعظة تكون للانتهاء عن ذنب يزاوله المذنب، أو للإمتناع عن مخالفة سيقع فيها المطيع. وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ حتى لا تكون من الجاهلين، وهذا معناه أنه لم

(١) تفسير النسفى جـ٢ ص١٩١، ١٩٢.

يصبح من الجـاهلين ومن ثم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ...﴾ [هود:٤٧] فهو لم يسأله إذاً، وإنما أستأذن بحياء شديد فى السؤال، فلم يؤذن له.

أمـا قـوله ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] فـهـو على الاستئذان فى السؤال ولـيس على السؤال، وهكذا أدب الأنـبيـاء والرسل مع ربهم سبحانه وتعالى يتوبون عن الهنات وعن مجرد الهم بالذنب، والهم بالذنب والتوقف عنه ليس ذنبـا، وإنما هو فى حق غيـرهم حسنـة، لكنهم يستـعظموه، وهو ليس ذنبا، لكنهم يتوبون منه ويستغفرون.

(٣) عـصمـة إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وقوله لكل من الكوكب والقمـر والشمس «هذا ربى»:

قال تعـالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٨٢].

ورد فى هذا السياق أن سيدنا إبراهيم الخليل لما رأى الكوكب فى أول الليل (قال: هذا ربى) ثم نفى عنه الـربوبية بعـد سـاعات من الليل، أى بـعد أفـول الكوكب أى

زواله وإختفائه، ثم لما رأى القمر بازغا أى بعد أن لم يكن ظاهرا له مع الكوكب، ثم بزغ من المشرق (قال: هذا ربى) .

ويتضح لنا إذاً من إثباته الربوبية للكوكب ثم نفيها عنه بعد أُفُوله بقوله ﷺ: (هذا ربى) هو بمعنى (لعله ربى) فهذا قول إفتراضى على سبيل التوقيت للاختبار والتمحيص لهذا الفرض. فإذا به يأفل أيضا كسابقه، فقال نافيا عنه الربوبية كما نفاها عن الكوكب ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ والمعنى: أنه لا يحب القمر كما لم يحب الكوكب، لقوله بعد أفول الكوكب ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾، وهذا قد أفل فلا أحبه أيضا، ثم أضاف قوله ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ والمعنى: يبدو أننى لن أتوصل بنفسى إلى معرفة ربى الحق الذى خلقنى وبمجرد النظر فى ملكوت السماوات والأرض، إذ أنِّى أحتاج منه أن يدلنى على نفسه، إذ من المؤكد أن هذا القمر الذى بزغ ليس هو ربى أيضا، ولا أحبه أيضا، لأنه أفل مثل الكوكب، ثم لما أشرقتْ الشمس إذا بالدنيا تضىء وإذا بها أكبر من الكوكب وأكبر من القمر ،كما أن أثرها على الدنيا أعظم، فلم يتردد فى طرح الفرض بأنها ربه ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ لكن لم يلبث أن راقبها فى تحولها من الشرق إلى الغرْب حتى أَفَلَتْ أيضا، فتأكد له أن ما سمعه من قومه عن الكوكب والقمر والشمس بأنها أرباب تستحق العبادة وتتخذ آلهة هو باطل وزور وكذب، ومن ثم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أى من كل ما تعبدونه من كواكب أو أجرام سماوية أو شمس أو قمر ومن كل الأصنام التى ترمز لها أى من هذه الأرباب المزيفة التى جعلتموها شريكة للخالق الحق عز وجل، ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ والملاحظة الجديرة بالذكر أنه لم يقل (إنى وجهت وجهى لله الذى فطر السماوات والأرض).

لأن اسم الخالق سبحانه (الله) لا يعرفه الإنسان إلا بالخبر والنقل والوحى ولا يمكن إدراكه بالفطرة أو النظر، ومن ثم بمقتضى الفطرة الإبراهيمية المضيئة علم سيدنا إبراهيم وتيقن أن لهذا الملكوت الذى يشاهده فى الليل والنهار خالق وفاطر هو الذى

خلقه هو أيضا وخلق كل شيء، ليس كمثله شيء، ولكنه لم يعرف اسمه، ومن ثم قال ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إذ ليس من كائن يستحق العبادة إلا الذى فطر السماوات والأرض والإنس والجن والملائكة وكل شيء، وأما الآلهة التى يعبدها قومه أو غيرهم من دون خالق وفاطر السماوات والأرض لابد أن تكون آلهة باطلة مزيفة، وهى إن كان لها سطوة أو قوة فهى قوة من الخالق وخاضعة للخالق عز وجل .

واحتجّ إبراهيم صلى الله عليه وسلم على قومه قائلا لهم: فإذا أشركتُ مع الله غيره فإنى أخشى أن يصيبنى منه المكروه والضرر، وإذا رفضتُ عبادة هذه الآلهة المزيفة فإننى أكون أحق بالأمن من الذين يعبدون مع الخالق الآلهة الباطلة، وعلى هذا انتظر إبراهيم ﷺ الهدى من ربه تنفيذا لقوله ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ أى خالقى ﴿لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فهداه الله تعالى إليه وعرفه بنفسه وباسم ذاته العلية (الله) أى بلفظ الجلالة الذى هو اسم علم على الذات الإلهية المتّصفة بأحوال وصفات الكمال، المنزهة عن صفات وأحوال وأفعال النقص، ولما أعلن هذا الهَدْى لقومه حَاجّوه فى الله أى فى قوله ليس من إله إلاّ إله واحد هو الله، وهذه الآية فى السياق تثبت أن ما حدث من إفتراض الربوبية للكوكب والقمر والشمس لم يكن من إبراهيم ﷺ فى معرض الاحتجاج على قومه أو مجادلتهم فى آلهتهم كما يفسر البعض هذا السياق، لأن المحاجة بين إبراهيم وبين قومه لم تأت إلا بعد أن هداه الله تعالى، ولهذا قال لهم أول ما قال ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ وهذا دليل على أنه ما عرف اسم الجلالة (الله) جل جلاله، إلا بعد أن هداه الله تعالى وعرّفه بنفسه وباسمه فى حين كان يتحدث عنه بقوله (ربى) فى قوله (لئن لم يهدنى ربى) أى خالقى فمعرفته بلفظ الجلالة الله للخالق الحق سبحانه رب العالمين لم تتحقق إلا بتوصيل الهدى الإلهى له وتعريفه بنفسه بالوحى.

فإيمان إبراهيم الفطرى بالخالق هو الذى منعه من عبادة الآلهة الباطلة التى عبدها قومه. وبعد ذلك أتاه الله حجته على قومه.

ومعنى هذا أنه لما اختبر الكوكب ثم القمر ثم الشمس لمعرفة هل هى حقا أربابا خلقت السماوات والأرض والإنس والأحياء أم لا؟ كان مقياسه للحق الكونى في هذا الإختبار هو فطرته التى دلته دلالة واضحة على أنه لايحب الآفلين أى لا يقبل قلبه أن يتخذ الها يأفل ويزول ويغيب. فالفطرة إذاً هى أساس الإيمان بالله عزوجل كما وضحنا من قبل، ولم يكن إبراهيم ﷺ كما لم يكن غيره من الرسل والنبيِّين فى لحظة من لحظات حياتهم الطفولية أو فى مرحلة الصبا أو الشباب قبل بعثهم مخالفين فى إعتقادهم للفطرة، بل كانوا على التوحيد التام الصحيح الخالص بمقتضى الفطرة لأن معيار التجربة ومقياس الحق فيها هو المهيمن، ومحاورة إبراهيم الجدلية لنفسه مفترضا ربوبية الكوكب ثم القمر ثم الشمس مع تكذيب هذا الفرض على الفور أو مع رفضها جميعا دليل على أنه لم يقبل ربوبيتها لحظة واحدة، ولم يعبدها لحظة واحدة، لأنه كان فى اختبار الفرض مهيمنا بفطرته الموحدة على الفرض الشركى.

ولقد توهم أصحاب الرأى الأول فى تفسير هذا السياق أن قوله ﷺ «هذا ربى» للاجرام الثلاثة دليل على أنه صدَّقَ بربوبيتها وعبدها، وهذا فهم منهم للسياق غير صحيح ، فأرادوا أن ينزهوا خليل الرحمن ﷺ عن هذا الشرك اللفظى أو العملى، حسب فهمهم، فقالوا أنه قال هذا فى معرض مجادلة قومه لإبطال عقيدتهم الشركية فى الكواكب، وأنه فَعَل هذا بعد أن صار نبيًا مرسلا، وبعد أن عرفه الله سبحانه بنفسه، وهذا غير صحيح حسب التفسير الذى بسطناه آنفا بأدلة من السياق، وأن هذا كان بعد أن آتاه الله رشده وقبل أن يبعثه نبيًا، وفى مرحلة الصبا المبكر وحسب التفسير المذكور لم يشرك سيدنا إبراهيم بالله عزوجل لحظة واحدة، لا شركا لفظيا، ولا شركا عمليا، وإنما كان فى حالة اختبار لارباب قومه بمعيار فطرته، وهذا الإختبار الذى أساسه ومعياره ومقياسه الفطرة الموحدة النابعة من قلبه السليم، إذ أتى الله بقلب سليم ، وليس فى النظر فى ملكوت السماوات والأرض وتدبر الخلق والبحث عن الحق والحقيقة أدنى شرك ، بل لقد صار إبراهيم الخليل ﷺ بهذا صاحب الملة الحنيفية التى مال بها عن كل العقائد والأديان الشركية، رافضا لها كلها مُثبِّتًا قلبه على ما فطره الله به من توحيد. وصار بهذا إماما لكل الرافضين لعقائد الشرك المحافظين

على فطرتهم، ويعتبر نهجه الفكرى التأملى القلبى الفطرى هذا منهجا لكل من يولد ويعيش بين أبوين مشركين ومجتمع مشرك، كما يعتبر سيدنا إبراهيم حجة لله عزوجل على كل من مات مشركا ويأتى يوم القيامة محتجا بأن قومه كانوا مشركين. ومن ثَمَّ سُمِّيت ملة عقيدة التوحيد الحنيفية باسمه ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

والخلاصة من هذا كله أن قول إبراهيم ﷺ للكوكب وللقمر وللشمس هذا ربى فى معرض نظره وتدبره وتفكره فى ملكوت السماوات والأرض ليس شركا وليس معصية ولا يتعارض مطلقا مع خاصية العصمة التى جعلها الله تعالى للنبيِّين صلى الله وسلم عليهم جميعا.

(٤) عصمة إبراهيم صلى الله عليه وسلم والكذبات الثلاث:

قال رسول الله ﷺ (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتيْن منهن فى ذات الله قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا... وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة). إلى آخر القصة كما سبق روايتها حسب رواية البخارى ومسلم.

فهل هذه الكذبات الثلاث حقيقية؟

من رأى أنها كذبات حقيقية باعتبار أنها قول يخالف الواقع، فإن قول النبى الخاتم ﷺ أن (إثنتيْن منهن فى ذات الله) يدل على أنها فى ميدان الجهاد فى سبيل الله، فقول إبراهيم ﷺ لقومه (إنى سقيم) حتى لا يخرج معهم فى عيدهم خارج المدينة ويظل وحده ليحطم لهم أصنامهم هو من الكذب المباح فى الجهاد ضد العدو.

وكذلك قوله (بل فعله كبيرهم هذا) هو فى ذات الله لأنه جهاد بالحجة والكلمة والحيلة والبيان العملى لأنه إذ إتهم الصنم الأكبر بتحطيم الأصنام الأخرى أراد منهم الإقرار بلسانهم بأن هؤلاء لا ينطقون ولا يفعلون ولا يتحركون فقال لهم (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فيكونوا بهذا قد أقروا بأنهم يعبدون من ليس ينطق بل يعبدون

أصمـا أبكما أى لا ينفع ولا يضـر، فهذه أيضـا فى ميدان الجـهاد الذى فيـه مثل هذه التحايلات مباحة وليست محرمة، فهى إذاً لم تكن ذنوبا لإبراهيم ﷺ.

هذا قول، والـقول الآخر أن تكون هـاتان الكذبتان مع الثـالثة التى قـال فيـها عن زوجته سـارة أنها أختى وهو يقصـد أخته فى العقيـدة والإسلام والملة. أن تكون من المعاريض التـى للمسلم فيـها مندوحـة عن الكذب، قال الشيـخ الصابونى فى كـتابه النبوة والأنبياء(١) (وكل هذا إنما هو من التعريض لا من الكذب الذى يؤاخذ صاحبه ويأثم فاعله. وقد قال ﷺ «إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب» أى أن فى التعريض ما يمنـع المسلم من الكذب المحرم) والذى أرجـحه هو المذهب الأول لقـول النبى ﷺ (لم يكذب إبراهيم إلاَّ ثلاث كذبات) فـاثبتها النبى ﷺ كذبات، لكـن قوله إن اثنتيْن منهن فى ذات الله دليل على أنـه فى سبيل الله أى فى ميـدان الجـهاد الذى يبـاح فيـه للمجاهد الكذب تحـايلا على العدو، أما الكذبة الثالثة فكانت أيضـا فى ميدان الدفاع عن العرض، وهو أيضـا ميدان جهاد، فـهو من الكذب المباح الحلال حـسب الشريعة الإسلامـية السمـحاء. فلم يرتكب بذلك إبراهيم عليـه السلام ذنبا. ولعل الثـالثة هى التى يصدق عليـها وصف المعاريض لقوله صلى الله عليـه وآله وسلم «أنك أختى فى الدين» كذلك تُعتبر عبارة النبى ﷺ تبرئة لإبراهيم ﷺ من الكذب، لأن إنسـانا يحيا قرابة مـائتى عام ثم هو لا يكذب إلا ثلاث كذبات فى ذات الله فى مواطـن الجهاد أو هو يتحرى الصـدق بالمعاريض، هو بلاشك على درجة عالية وفائقـة من الصدق فإذا كانت هذه الكذبات من الكذب الحلال فهذا فى الحقيقة مدح وليس قدحا.

فـالذي يخرق عـصـمة الـنبوَّة هو الذنب، وهـذه الثلاث ليـست ذنوبا، لأنهـا من الكذب المباح.

(٥) عصمة إبراهيم الخليل ﷺ وسؤال الله أن يُريَهُ كيف يحيى الموتى:

وكذلك قديوهـم عدم العصمة لإبراهيم ﷺ قـوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَـالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ

(١) الشيخ محمد على الصابونى/ النبوة والأنبياء ص٧١.

فصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إذ قد يفهم البعض خطأ أن سيدنا إبراهيم ﷺ لم يكن يؤمن أن الله تعالى سيُحْيِ الموتى، أو على الأقل بأنه كان يشك فى أنه سبحانه سيحيى الموتى. أو أن إيمانه بإحياء الله الموتى كان ضعيفا، وقد برأه الله تعالى من عدم الإيمان بسؤاله (أو لم تؤمن قال: بلى) أى أؤمن، ولكنى أريد أن أرى حتى أوقن، لأن من سمع ليس كمن رأى.

كذلك لم يكن سؤال إبراهيم عن إحياء الموتى ولكن عن كيفية إحياء الموتى، والذى يسأل عن كيفية فعل لا يسأل عنها إلا إذا كان مؤمنا بوقوعه ومن ثم لم يقل: هل تقدر يا رب أن تحى الموتى؟. ولكن قال: رب أرنى كيف تحيى الموتى، وذلك بقصد الشوق والتطلع إلى إدراك أسرار الصنعة الإلهية.

وقد أورد الشيخ الصابونى فى كتابه النبوة والأنبياء ما نصه بهذا الصدد (يقول الشيخ أحمد المنير[1] فى تعليقه على تفسير الكشاف ما نصه: (أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله كيف تحيى الموتى، فليس عن شك والعياذ بالله فى قدرة الله تعالى على الإحياء، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ولا يشترط فى الإيمان الإحاطة بصورتها. فإنما هى طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة (كيف) وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا السؤال أن يقول قائل: كيف يحكم زيد فى الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سأل عن كيفية حكمه لاثبوته، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر، فيطرق إلى إبراهيم شكا من هذه الآية.... وقد قطع النبى عليه الصلاة والسلام دابر الوهم بقوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم» أى ونحن لم نشك، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى، وأراد بقوله: أو لم تؤمن؟ أن ينطق إبراهيم بقوله: بل آمنت، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظى فى العبارة الأولى، ليكون إيمانه مخلصا نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يلحقه فيه شك)[1] .

(١) تعليق الشيخ أحمد المنير على تفسير الكشاف جـ١ ص٣٠٨ عن كتاب النبوة والأنبياء للصابونى جـ٦٩.

وهذا فهم جيـد وتفسير نورانى لقـول المصطفى الخاتم ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم) هذا الذى فسـر به الشيخ أحمد المنـير رحمه الله تعـالى الحديث بنفى الشك عن سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم.

وكذلك نقـرأ لشهـيد الإسلام سـيد قطب رحمـه الله وصفه الأدبـى الرائع لسؤال إبراهيم ﷺ ربه أن يريه كيف يحى الموتى ما يبـعد هذا الوهم بشك إبراهيم تماما، قال رحمه الله (إنه التَّشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجىء هذا التَّشوف من إبراهيم الأواه الحليم المؤمن الراضى الخاشع العـابد القريب الخليل.. حين يجىء هذا التَّشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يخـتلج أحيانا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهيـة فى قلوب أقرب المقربين....)[1] فلم يكن سـؤاله شكا ولم يكن إذاً ناقضا للعصمة.

(٦) عصمة يوسف عليه الصلاة والسلام وهَمّه بامرأة العزيز

الشبـهة التى أثارها بعض الجـهال أو بعض المغرضين حـول عصمـة يوسف عليه السالم هى قولهم فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أن يوسف عليه السلام أوشك أن يزنى بإمرأة العزيز، لولا أنه رأى صورة أباه يعـقوب على جدار الغرفة يعض على أصابعه، فامتنع بعد أن كـان قد جلس بين شعبها الأربع، مستجيبـا لشهوته ومستكينا لإمرأة العـزيز، فهؤلاء يستـدلون على هذه التهمة لـيوسف عليه السلام بقـوله تعالى ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ

(١) الأستاذ سيد قطب/ فى ظلال القرآن جـ٣ ص٤٥.

عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف: ٢٣ـ٣٥].

ولا شك أن أكثر حوادث هذا السياق يبرىء يوسف عليه السلام من هذه التهمة ما عدا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ إذ تكمن فيه الشبهة التى جعلت البعض يفسر قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أى عزم على الزنا بها وتحركت أعضاؤه وجوارحه لإتمام هذه الفحشاء، ويفسرون قوله تعالى: ﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ برؤية يوسف لأبيه يعقوب عليهما السلام عاضاً على أصابع يديه مُحذِّرًا له من هذا الفعل المشين الفاحش، ولكىْ نستوضح هذا النص الكريم يجب أن نعلم أولا أن الهم هو الفعل النفسى الداخلى الذى لا يتعدَّى الحدود الجوانيَّة إلى الجوارح البرانية.

وفى الحديث الشريف (إن الله كتب الحسنات والسيِّئات، ثم بيَّن ذلك، فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة)(١).

فالهم هو تحرك الرغبة النفسانية الجوانية أو ما يسميه علماء النفس الدافع النفسى لفعل محدد يلبى هذه الرغبة النفسية. أما الفعل فهو عقد العزم والنية والقصد الصريح لاتمام الفعل باستجابة إرادية اختيارية لتحقيق هذه الرغبة ثم تحرك الجوارح والأعضاء بالحركات التى يتحقق بها إتمام الفعل لتحقيق هذه الحاجة البشرية.

ومن ثم نَسأل عن الحكمة التى من أجلها سلَّط الله تعالى بقدره ومشيئته النافذة

(١) صحيح البخارى باب من همَّ بحسنة أو سيئة حديث رقم ٦١٢٦.

إمرأة العزيز على سيدنا يوسف عليه السلام، لكى تُغلّق الأبْواب ثمْ تلقى بنفسها عليه وتقول له (هيتْ لك)؟

والإجابة هى أن الله تعالى إبتلى يوسف الشاب بعد أن بلغ أشدَّه بإمرأة العزيز كما إبتلى إمرأة العزيز بجمال يوسف عليه السلام الذى بسبب جماله شغفها حُبًّا، وبسبب جماله قَطَّعَ النِّسْوة أيديهن ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وأسأل أيضا: لماذا شاء المولى عز وجل أن يبتلى يوسف عليه السلام بهذا الابتلاء الشديد وهو الشاب الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم فهو يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام جميعا.

وتكون الإجابة: لكى يكون يوسف عليه السلام حجة وشاهدا لله عزوجل يوم الدين على كل مع يرتكب جريمة الزنا.

ولكى يكون يوسف حجةً وشاهداً يوم الدين لله على المرتكبين للفحشاء، لابد أن يكون جمال يو سف على أبهى وأتم وأكمل ما يكون جمال الرجل وشبابه وفتوته، بل وعلى أنضر ما يكون الشباب، وكذلك تكون الظروف الخارجية الداعية لارتكابه الفحشاء على أقوى ما تكون دعوةً للزنا ودفعا للفحشاء.

فهو عليه السلام بمثابة العبد فى هذا البيت، وإمرأة العزيز سيدته، ولو إستجاب لها فلن يجنى من هذه الإستجابة المتعة وتلبية الشهوة فحسب، بل يتحول من عبد مأمور إلى سيد آمر، ومن مملوك إلى مالك.

ثم أنها لما غلَّقت الأبواب وألقت بنفسها عليه متعطرة ومتجملة وبملبس مهيأ لهذا الفعل كانت بمثابة المثير الشديد بل على أشد ما تكون الإثارة ليوسف عليه السلام، فلو تصورنا أن حالة يوسف النفسية الداخلية ظلت بدون هَمٍّ الطباع الذى يصيب أى رجل وجد نفسه فى هذا الموقف، فإنه بلاشك لا يكون بشرا ذا شهوة وغريزة بل يكون ملاكا، أو يكون بشرا عاجزا مريضا ناقصا غيرصالح للنكاح والانجاب، ومن ثم يبطل كونه حجة لله وشاهدا على مرتكبى الفحشاء، ويوسف، كجميع الأنبياء من

البشر، وليس من الملائكة، ولم يكن مريضا أو عاجزا غريزيا، ومن ثم فلابد أن تكون للإثارة الشديدة التى تعرض لها أثر فى نفسه، هذا الأثر هو الهم النفسى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وبمقتضى هذا الهم صار وضع الإرادة الإختيارية ليوسف عليه السلام بين نجدين أو سبيلين أو بين فعلين:

الأول: أن يلبى نداء نفسه والحاح شهوته فيقدم على الزنا.

الثانى: أن يتقى الله عزوجل ويخالف رغبة شهوته ويتجاهل نداء نفسه ويرفض أن يتبع الهم النفسى، فلا يفعل بالجوارح ما يلبى نداء الشهوة، ومن ثم يكون قد استحق أن يكتب الله له حسنة لامتناعه عن الفحشاء وهو قادر عليها.

ولقد اختار يوسف عليه السلام النجد الصالح والسلوك الثانى واتقى الله تعالى وخالف الهوى والنفس والشهوة بالأدلة التالية.

(١) بعد سماعه قولها ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال على الفور ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ والمقصود بقوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ هو ربه الذى أحسن مثواه وهو العزيز الذى أمر أمرأته أن تكرم مثوى يوسف قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ...﴾ فلم يكن يوسف ناكرا للمعروف وكان هذا المعروف دافعا مقويا ليوسف عليه السلام للإمتناع عن خيانة العزيز الذى أكرم مثواه علاوة على إبائه للزنا بمقتضى العصمة النابعة من ذاته بدليل قول إمرأة العزيز للنسوة (.. أنا راودته عن نفسه فاستعصم) والاستعصام هو الإمتناع والامتناع غير المنع لأن الامتناع يكون ذاتيا بإرادة الممتنع، أما المنع فقد يكون من خارج ذات الممتنع.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ دليل على أن همها به إثارة ورغبة شديدة مع الفعل بالجوارح، إذ غلقت الأبواب وقالت (هيت لك)، وهمه بها بمقتضى الطباع فى حدود الحركة النفسية فحسب، وبرؤيته برهان ربه بامتناعه الشديد الحاسم، حتى أن جوارحه فعلت ما هو نقيض الزنا، اذ شرع فى اللجوء للفرار والجرى نحو الباب للهرب بذاته الطاهرة وعفته النَّقية من هذا

الموقف. قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أى جرى هو نحو الباب للهرب منها، وجرت معه تريد اللحاق به نحو الباب أيضا لمنعه من فتح الباب والخروج منه، ولكى تُبَطِّىء من سرعته لتدركه قبل الوصول إلى الباب جذبته من قميصه فتمزق، فاستباق الباب منهما فعل واحد بالجوارح لكل منهما ولكن بِنِيَّتَيْن وإختيارين مختلفين تماما هو بدافع العفة وهى بدافع الرغبة فى الفحشاء.

(٣) قول يوسف عليه السلام لسيدها ،أى للعزيز لما فوجئا به لدى الباب، بعد أن وصلا إليه ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ قوله حق وصدق من يوسف يُبرىء ساحته من هذه التهمة، ولم يستطع العزيز حينئذ تكذيبه ورفضه.

(٤) لما فُوجئت إمرأة العزيز بسيدها العزيز لدى الباب (قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا الا أن يسجن أو عذاب أليم) محاولةً أنْ تبرىء نفسها وفى نفس الوقت لم تتهم يوسف صراحة بمحاولة اغتصابها، فعبارتها موحية بهذا، وليست مصرحة به تصريحا. وحيث أنه لا يمكن أن توجد إمرأة تتعرض للاغتصاب من رجل ولا تشاركه الرغبة إلاَّ وتصرخ وتستغيث، ثم تبادر بإتهامه بمحاولة الاغتصاب، فإن مقالة إمرأة العزيز أنه أراد بها سوءًا ، هكذا بالنكرة، ليس تهمة صريحة ليوسف بمحاولة الاغتصاب، بقدر ما كانت محاولة لدرء الذنب عن نفسها أمام سيدها.

(٥) أنطق الله الرضيع من أهلها ببراءة يوسف بقوله (إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم. يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين). وفى هذا السياق الكريم دليل مادى على براءة يوسف من أى فعل بالجوارح، وهو تمزيق قميصه من دبر، الأمر الذى جعل العزيز يصدر حكمه على الفور ببراءته وإدانتها فقال ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ثم طلب من يوسف أن يعرض عن هذا الحدث، أى أن يسكت عنه، ولا يتحدث به منعا للفضيحة. ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ وأمرها أن تستغفر لذنبها حاكما عليهاأنها هى المخطئة المذنبة ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

لأن الحكم لا يكون إلا على الفعل الذي يتم بأعمال الجوارح، وهذا هو الذى حكم بمقتضاه العزيز على إمرأته بالذنب وحكم بمقتضاه ليوسف بالبراءة.

(٦) تفضيل يوسف دخول السجن على إرتكاب الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ومرة ثانية يجد يوسف عليه السلام نفسه أمام إختيار واحد من إثنين:

الاستجابة لدعوة النسوة للفحشاء، فصار ابتلاؤه أعظم وأشد، إذ لم تقتصر على دعوة إمرأة العزيز وحدها، بل ومعها صديقاتها سيدات المجتمع الفاسقات.

والخيار الثانى هو أن يتحقق ما بدأ يسمعه عن التفكير فى إدخاله السجن تغطية للفضيحة التى صارت على ألسنة رجال ونساء الدولة. فماذا إختار يوسف عليه السلام؟ لقد اختار السجن قائلا ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ من الزنا بهن.

(٧) ويثبت إشتداد التأثير النفسى الجوانى لدى يوسف عليه السلام من غير حدوث الفعل الخارجى بالجوارح وذلك بدعوة نسوة المدينة له إلى الفحشاء معهن بقول يوسف داعيا الله عزوجل ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وهذه إستغاثة من يوسف لله عزوجل كى لا يزيد هذا الابتلاء عليه أكثر من ذلك، لأنه ما عاد يتحمل صبرا على الفحشاء والامتناع عنها أكثر من ذلك، وأصبح يخشى على نفسه أن يصبو إليهن وأن يكن من الجاهلين.

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ونجا يوسف بعفته بدخول السجن باختياره فاستجاب الله تعالى له بصرف كيد النسوة عنه.

(٨) إقدام الذين سجنوه على سجنه، مع علمهم بأنه برىء، وإنما كان لابد من هذا لتكذيب الاشاعة الصحيحة المنتشرة فى أوساط الطبقة العليا، وربما الوسطى أيضا، عن مطاردة إمرأة العزيز وصواحباتها ليوسف عليه السلام، للايهام بأنه هو الذى كان يحاول إغتصاب إمرأة العزيز، ولاشك أن هذه الإشاعة قد وصلت للملك وللقصر ولكل رجال الحكم، فلم يكن أمام العزيز من سبيل لانقاذ ماء وجهه إلا أن يسجن يوسف عليه السلام.

وحيث أنه فى دولة منظمة وقانونية مثل مصر، لا يدخل أحد السجن إلا بتهمة وتحقيق وقاضى وحكم، فإن دخول يوسف السجن كان بتهمة رسمية مدونة ومعلن عنها، إشترك فى صناعتها عدد من رجال السياسة والقضاء، ومن ثم كان الذين سجنوه عدد من هؤلاء، لكنهم وهم يأمرون بسجنه لم يفعلوا هذا إلا بعد أن رأوا الدلائل والبراهين الساطعة على براءته قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ والآيات هى الدلائل الخارقة للعادة وللسنن قال النسفى فى تفسيره [ثم بدا لهم، أى ظهر لهم، والضمير يعود على العزيز وأهله ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ وهى الشواهد على براءة يوسف كتمزيق القميص، وقطع الأيدى، وشهادة الصبى، وغير ذلك (لَيَسْجُنُنَّهُ) لإبداء عذر الحال وإرخاء الستر على القيل والقال، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وكان مطاوعا لها، وحملا ذلولا، زمامه فى يدها (حتى حين) إلى زمان كأنها إقترحت أن يسجن زمانا حتى تُبْصِر ما يكون منه].

ففى ظاهر الحال يكون دخول يوسف عليه السلام السجن بقرار من العزيز وأعوانه من الساسة والقضاة، ولكن فى حقيقة الحال علمنا أن دخوله السجن كان باستجابة الله تعالى له لصرف كَيْد النسوة عنه، ولو بدخول السجن الذى صرح يوسف لربه عزوجل بأنه أحب إليه من إستمرار مطاردة النسوة له.

(٩) لما طلب الملك إخراجه من السجن ورؤيته بعد أن أوَّل له رؤياه رفض يوسف عليه السلام الخروج إلا بعد أن تثبت براءته قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ والمقصود بربه هنا هو الملك، وقد ذكر له يوسف عليه السلام حادثة تقطيع النسوة لأيديهن، لأنها البرهان أو الآية الباقية من الآيات الأخرى. ولا يمكن إنكارها أو إخفاؤها، لبقاء النسوة أو أكثرهن وبقاء آثار الجروح بأيديهن.

وفى هذا الموقف من يوسف حديث لرسول الله ﷺ يمتدح فيه يوسف ويثنى عليه ثناءاً عاطراً، لأنه صبر على السجن وآثر أن يستمر فيه على المسارعة بالخروج منه، رغم مرارة المكوث فيه، إلا بعد أن تثبت براءته أمام الملك، وهذا لا يكون إلا من برىء واثق من براءته، فقد روى أحمد بن حنبل عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال (لو

كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيتُ العذر) يعنى لما رفض الخروج من السجن حتى تثبت براءته)[1].

(١٠) فلما استدعى الملك النسوة مع إمرأة العزيز سألهن سؤالا عن موقف يوسف منهن بعد أن ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾، فلو لم يكن الملك قد ثبت لديه بالتحقيق أنهن اللائى راودنه عن نفسه لما قال لهن (إذ راودتن يوسف عن نفسه؟) فسؤاله إذاً (ما خطبكن؟) أى ما حكايتكن، كأنه تأكد من هذا الأمر، ويريد أن يعرف منهن تفصيله، فجاءت الإجابة منهن ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وهذه شهادة جماعية منهن، أما التى شغفها حبا فقد ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥١ـ٥٢].

(١١) وقيل هذه الشهادة أثْبَتَتْ عصمة يوسف بشهادة رب العالمين بتبرئته من هذه الشبهة، وبأن قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ليس ذنبا على الإطلاق، بل هو دليل على كمال الرجولة لدى يوسف الذى به صار، بامتناع الجوارح، شاهدا وحجة على كل مرتكب للفاحشة، وبدون هذا الهم النفسى لم يكن امتناع يوسف صالحا بأن يجعله حجة لله عز وجل، أما شهادة رب العالمين ببراءته فهى قوله تعالى عن يوسف ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] والمحسنون لا يرتكبون الصغائر فما بالك بالفحشاء.

وكذلك شهد إبليس أنه لن يتمكن من إغواء يوسف عليه السلام، لما شهد بأنه لن يتمكن من إغواء عباد الله تعالى المخلصين فقال تعالى حاكيا توعد إبليس لبنى آدم ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٤٠] وقال تعالى أيضا: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣] وقد شهد الله تعالى ليوسف بأنه من المخلَصين بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

(١) رواه أحمد عن كنز العمال رقم ٣٢٤١٥ .

وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] ومن ثم تأكد لنا أنه لم يكن للشيطان سبيل على يوسف عليه السلام.

كل هذا يثبت عصمة يوسف مثل إخوانه الأنبياء ﷺ وعليهم جميعاً.

(٧) عصمة موسى صلى الله عليه وسلم وقتل الرجل المصرى:

موسى عليه الصلاة والسلام هو نَجِيُّ الله عزوجل الذى كلمه من وراء حجاب، فهو أحد الخمسة أولى العزم من الرسل، أولهم سيدنا محمد ﷺ وهو حبيب الله، والثانى هو سيدنا إبراهيم ﷺ وهو خليل الله، والثالث هو سيدنا موسى ﷺ وهو نجى الله، والرابع هو سيدنا نوح ﷺ والخامس هو سيدنا عيسى المسيح بن مريم صلى الله عليهما وسلم وهو روح الله وكلمته. ومن ثم فإن هؤلاء الخمسة أبعد النبيِّين عن المعصية، والعصمة فى حقهم ثابتة كما هى ثابتة فى حق سائر النبيِّين، بيد أن الذين دأبوا على تشويه سيرة الأنبياء والمرسلين من اليهود الملاعين أتباع الجبت والطاغوت قد ألصقوا ببعض الأنبياء أعمالا من المحرمات أو الشركيات زورا وبهتانا، ضمن خططهم، لمحاربة دين الله عزوجل والصد عنه، ودفع الناس لإستباحة الكبائر. ومثل هذه التهم المزوَّرة يسهل إثبات بطلانها ودفعها عنهم صلى الله عليهم وسلم جميعا.

بيد أن بعض الأعمال الثابتة فى حق بعض الرسل والنَّبِيِّين تحتاج منا إلى بيان ملابساتها وكيف أنها لا تتعارض مع العصمة، من ذلك ما سبق أن عرضناه عن سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف عليهم جميعا الصلاة والسلام.

ومنه أيضا ما ورد عن وكز موسى للرجل ومقتل هذا الرجل أثر هذه الوكزة ، وكان هذا قبل بعثته ﷺ، ومن ثم إقتضى هذا منا بيان ملابسات هذه الحادثة وإثبات عدم تعارضها مع عصمة النبوة.

أما ظروف قتل موسى ﷺ للرجل فقد كان موسى ﷺ قبل بعثه صاحب دعوى إصلاحية بين المصريِّين ، وكان له أتباع وكانت حكومة فرعون تراقبه وتمنعه من دخول المدينة والاختلاط بالناس.

وكان موسى ﷺ يستخدم الكلمة فقط لدعوته الاصلاحية، كما كان يعلم تماما أنه لا يجوز بأى حال إستخدام القوة أو العنف لدعوته الاصلاحية، فقد كان يؤمن بأنه يحرم على الداعى إستخدام القتل ضد أعدائه المحاربين لدعوته، مهما كان ظلمهم وطغيانهم، وعلى الداعى الابتعاد عن إستخدام اليد لدفع العنف عنه، أو عن إخوانه فى الدعوة، خشية أن يقع فى القتل الخطأ، الذى هو محرم على الداعى، وإذا ثبت تحريمه عليه، فما بال الذين يَقْتُلُون عمداً باسم الدعوة؟!

وأوضح دليل على أنه كان يؤمن بهذا التحريم قوله بعد قتل المصرى: (هذا من عمل الشيطان) وحيث لم يقل موسى: إن كنا نحن بنى إسرائيل قد قتلنا منهم واحدًا، فقد قتلوا منا الألوف، وهم يستحقون أكثر من هذا، لم يقل موسى عليه السلام ـ بعد أن قتل المصرى ـ هذا، بل قال نقيضه؛ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ١٤ـ٢٢].

تثبت الآية الأولى من هذا السياق أن موسى عليه السلام كان من المحسنين؛ ومن ثم آتاه الله تعالى ـ لما شب وإستوى، أى اكتملت رجولته ـ حكماً وعلمًا؛ مما يؤكد أنه بدأ يعارض الأنظمة والقوانين والأعراف الشركية الجائرة فى الدولة الفرعونية،

ومن ثم صار له أتباع ومؤيدون، أصبحوا بمثابة جبهة معارضة للنظام الفرعونى، ويدل السياق أيضًا على أن موسى عليه السلام كان مطلوبًا للجهات الأمنية أو كان ممنوعًا من الأنشطة السياسية ومن الاجتماعات، أو على الأقل كان مراقبًا مراقبة أمنية شديدة ودائمة ،يثبت هذا قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص:١٥].

فإذا علمنا أن تعبير (أهل المدينة) يصدق أكثر ما يصدق على الملأ أى الدولة وجنودها من الشرطة والجيش أكثر مما يصدق على الشعب بدليل قول فرعون للسحرة بعد أن أعلنوا إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. فليس لكلمة (أهلها) فى هذه الآية من دلالة إلا فرعون وملئه، فإذا عدنا إلى السياق الأول فإن دخول موسى المدينة، على حين غفلة من أهلها ـ أى من رجال الدولة أو رجال الأمن ـ معناه أنه كان مُرَاقَبًا وانتهز هو هذه الغفلة منهم باعتبارها فرصة سانحة لدخول المدينة، ويدل السياق أيضًا على أن موسى كان له حزب معارض مطارد، أى أن معارضته لم تكن بشكل شرعى مسموح به كما فى الأنظمة الديمقراطية المعاصرة، وإلا لما كان مطلوبًا للجهات الأمنية، ويدل على وجود أتباع له قوله تعالى عن المقتتلين: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فإذا علمنا أن بنى إسرائيل منسوبون لموسى فى القرآن باسم (قومه) دل قوله تعالى ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ على أنه كان ممن تشيعوا لمعتقدات موسى وآرائه ومبادئه ودعوته الإصلاحية، أما قوله تعالى عن الرجل الآخر: ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فليس معناه أن الآخر هذا مصرى وحسب، بل هو ممن يعادون موسى وشيعته فى دعوتهم الإصلاحية، كما أن ذكر المقتتلين بنسبة كل واحد منهما إلى موقعه من موسى عليه السلام ودعوته يفيد ـ حسب قواعد البلاغة ـ أن سبب الاقتتال هو العداء بين النظام والمعارضة الموسوية، الأمر الذى جعل موسى فى موقف القائد بالنسبة للمقاتل الذى من شيعته، ومن ثم لم يكن بوسعه إلا أن يتدخل لنجدته ويتحيز له ويدافع عنه، فإذا بالأمر يتطور على غير ما أراد موسى عليه السلام، وبخلاف منهجه فى دعوته تمامًا، إذ لم يكن فى

برنامج عـمله استـخدام العنف مـع الخصـوم، وإنما تدخل لإنقاذ المعـارض الذى من شيعتـه من بطش نصير الحزب الحاكم، فـأراد أن يدفعه فحسب عن الذى من شيـعته بوكزة، فـأدت إلى القضاء على الرجل، ولم يكن هذا مـراداً له، وإنما حدث هذا خطأ ولم يعمـد إليه، ولكن عندما تحـدث حادثة قتل من مـعارض بسبب نزاع وخصـومة سيـاسية، فإن الأمـر لابد أن يفسر باعتـباره إرهابًا مقـصوداً متعـمداً، بل ويكون هذا الحادث فرصـة لأهل الحكم للتخلص من هذا المعارض ومن أشيـاعه، بل من المعلوم أن مثل هذه الحوادث تدبرها بعـض أجهزة المخابرات والجهات الأمـنية للتخلص من المعارضين بشكل يبدو قانونيًا أمام الرأى العام.

فـهل كان الذى من شـيعـته مـخلصًا لمـوسى عليه السـلام ولدعوته الإصـلاحيـة المعارضة؟ أم كان منافقًا يعمل لحساب جهات الأمن سِراً؟ .

الذى أراه ـ والله تعالى أعلم ـ أنـه كان منافقـًا خادعًا لموسى عليـه السلام، والأدلة على هذا الاحتمال متـعددة منها قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ لأن الاستغاثة تدفع المستغاث به إلى نجـدة المستغيث بشدة، حتى لو لم يكن المستـغيث من أنصاره، فكيف يكون الحـال وهو من شيعتـه ويستغيـثه على الذى من عدوه؟. أى أنه لـم يكن عـدواً شخصيًا لموسى عليـه السلام، ولـم يكن عدواً شخـصيًا للذى من شيعـته، وإنما كان «من عدوه»، وهذا يدل على أن العداء لم يكن شـخصيا، وإنما هو عداء فئة لفـئة أو طائفة لطائفة، وهذا ما يكون غالبًا بين الأحزاب المعارضة، وبين النظام الحاكم، ومن ثم تقدم مـوسى عليه السلام مندفعًا بكل قـوته فوكز الرجل الخصم بقصـد إبعاده عن الذى من شيعتـه، مجرد إبعاده عنه حمـاية له من شره، فإذا بالوكزة ـ التى هى مجرد دفعة ـ تكون قاتلة للرجل ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فماذا كان رد الفـعل عند موسى عليه السـلام ورد الفعل عند الذى من شـيعتـه الذى أنقذه موسى منه..؟

حـزن مـوسى لموت الرجل وشـعر بالـذنب والخطيـئة وصـرح بأنه وقع فى كـيـد الشـيطان ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ⑮ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فنسبـة قتل الرجل الخصم إلى عـمل الشيطان

دليل على إستنكار موسى لهذا الفعل، ودليل على أنه لم يكن يعارض إلا بالكلمة، ولم يكن يتخذ منهجا فى الإصلاح إلا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم قوله إن الشيطان الذى هو عدو مضل مبين هو الذى أغضبه، وهو الذى دفعه إلى هذا الفعل لعدائه للإنسان، وأما الصحيح فهو الاقتصار على الكلمة منهجًا وحيداً للإصلاح الذى يبتغيه الفرد أو الأفراد، ثم قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ لأن الذنب ظلم للنفس المذنبة قبل أن يكون ظلمًا واقعًا على غيرها.

وثَمَّ دليل آخر فى السياق على أن مثل هذا الفعل يساند أعداءه الذين يحاربهم وهم يتمنون أن يقع فيه ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ كأنه انتبه بعد غفلة وأدرك حقيقة بعد أن لم يكن يعلمها، وهى أن هذا الفعل سيكون لصالح أعدائه المجرمين، ومن ثم فلو تكرر منه فسيكون ظهيراً لهم أى معينًا لهم على تحقيق أهدافهم فى حرب دعوته، والمعنى: يارب بما أنعمت على من علم وحكم وفهم وهدى حتى إنِّى لأعلم أن الإصلاح لن يجدى إلا إذا كان بالكلمة والموعظة والإقناع بعيداً عن العنف والعدوان، فلن أفعل هذا ثانية، ولن أمكن خصومى مما يتمنون وقوعه منى ومن شيعتى، حتى يكون هذا مبرراً لهم للقضاء علينا بحجة أننا إرهابيون ونستحق الموت.

وإلاَّ فما معنى أن يكون تقرير موسى بأنه لن يكون فى المستقبل ظهيراً للمجرمين الذين يعاديهم ويعارضهم بعُبَيْدَ وكز واحد منهم وقتله إلا أن يكون هذا التأويل آنف الذكر؟!.

ولا شك أن موسى عليه السلام، وهذا الذى يزعم أنه من شيعته، قد تركا جثة القتيل وإبتعدا عنها قبل أن يُضبطا متلبسين بها، وذهب كل منهما إلى حال سبيله ليبيت ليلته، لكن موسى عليه السلام قد بات بلا شك قلقًا بعد أن وقع منه القتل الخطأ خوفًا من أن يصل المحققون إلى معرفة الحقيقة، ومن ثم كان من الطبيعى أن يعود إلى المدينة متنسمًا الأخبار ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ نفس الرجل، لكن لم يرد ذكره هذه المرة بأنه الذى من شيعته، بل ورد ذكره بأنه الذى ﴿اسْتَنصَرَهُ

بالأمس﴾ وهذا من البيان القرآني المعجز ، ويدل على أن موسى قد إنتابه الشك حول أمره ،إذ بدأ ينكشف له أنه مدسوس عليه، فقوله تعالى: ﴿الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ فيه تنبيه ولفت نظر للقارىء أو للسامع إلى أن هذا المسلك من هذا الرجل غير عادى، إذ لو كان من شيعة موسى عليه السلام حقًا وصدقًا لما عاد إلى نفس الموضع، أو على الأقل لما وقف لموسى عليه السلام فى طريقه مرة ثانية، وبنفس اللعبة، وهى الاقتتال أمام موسى مع واحد من الخصوم، ولكن هذه المرة لم يَسْتَغِث الرجلُ بموسى عليه السلام، بل استصرخه، والاستصراخ أشد أنواع الاستغاثة وطلب النجدة؛ وذلك حتى لا يترك لموسى عليه السلام فرصة للتردد، ولكى يبادر بنجدته، وهذا من الأدلة على أن الرجل كان عميلا لأجهزة الأمن الفرعونية التى تريد الإيقاع بموسى، إن لم يكن من الأدلة الصريحة فهو من المؤشرات والقرائن الواضحة.

إلا أن رد موسى عليه السلام على هذا الاستصراخ الثانى يدل على شكه الشديد فى الرجل، حتى إنه صرح بأنه يريد أن يغوى موسى عليه السلام على ما أوقعه فيه بالأمس، فماذا قال له موسى أول ما سمع استصراخه؟ ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أى من الواضح أنك تريد أن تغوينى على الشر، إذًا لقد صار واضحًا شك موسى فى انتماء الرجل بل تصديقه بأنه ليس من شيعته إلا فى الظاهر، وهو فى الحقيقة من عدوه.

ومع هذا فما الذى نتوقع أن يفعله موسى؟

حسب التحليل السابق للسياق أقول: لقد وجد موسى عليه السلام نفسه وهو صاحب دعوة إصلاحية وزعيم لأتباع يؤيدونه ويحاربون معه الفساد والإفساد والاستبداد السياسى بالكلمة وبالعمل المسموح به قانونًا، أقول وجد نفسه مرة ثانية أمام اختبار مصداقيته لدعوته، عندما وجد أحد أتباعه يستنصره من ظلم الذى من عدوه، فلما وقع القتل الخطأ من موسى عليه السلام صار موسى الزعيم فى خطر، وبالتالى صارت دعوته كلها كذلك، ومن ثم كان من المتوقع من هذا الذى من شيعته - إن كان حقًا من شيعته فى الباطن ومخلصًا لدعوته - أن يحافظ على سرية حادثة القتل، فلا يبوح بها لأحد، خاصة أنه المتسبب فيها، وبالتالى كان عليه أن يبتعد عن

أى منازعات أو مجادلات أو اشتباكات مع الخصوم ـ ولو مؤقتًا ـ محافظًا على الزعيم وعلى نفسه، أما أن يشتبك فى اليوم التالى مع واحد آخر من عدوه فهذا أمر لا يثير الشك فيه فقط، بل يكاد يكون من اليقين أنه عميل الأعداء، ولو فعل هذا بعيداً عن طريق موسى عليه السلام لكان احتمال أن يكون النزاع حقيقيًا قائمًا، ولو أنه يكون احتمالاً ضعيفًا جداً، أما وأن النزاع والاقتتال مع عدو آخر يكون فى طريق موسى عليه السلام، فإن الأمر بلا شك لا يكون بمحض المصادفة، بل هو بتدبير وتخطيط محكم اشترك فيه فريق أمنى كامل لضبط الوقت والمكان الذى يجد فيه موسى عليه السلام نفس الرجل يقاتل ويستصرخ، حتى إن موسى عليه السلام قال له ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ولكن مع أن موسى صار شبه متأكد بأنَ هذا الذى من شيعته غوى مبين إلا أنه ـ مثل جميع الأخيار الأبرار أصحاب الدعوات الإصلاحية الذين لا يرضون عن الظلم والمنكر ـ لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين إذا وجد قويًا يريد أن يقضى على حياة ضعيف، حتى ولو لم تكن له به صلة.. فكيف يكون موقفه إذا كان هناك احتمال فى أنه من شيعته ولو بدا احتمالاً ضعيفًا؟

ولاشك أن الموقف الاقتتالى قد بدا لموسى كما لو كان لصالح الذى من العدو بسبب الاستصراخ، وأن الرجل الذى أعلن لموسى أنه من شيعته ضعيف أمامه، وقد بدا لموسى أن الرجل سيقتله؛ وبالتالى لا يمكنه أن يمتنع عن نجدته مهما صارت درجة الشك فيه كبيرة حتى ولو بلغت أكثر من تسعين فى المائة، هذا هو ما يلزمه به الحكم والعلم اللذان آتاهما الله تعالى لموسى عليه السلام؛ ومن ثم لم يكن أمام موسى من بُدٍّ ـ رغم قوله للرجل ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ـ إلا أن يتقدم لنجدته، فلما بادر إليهما بهذه النيــة التى ربما لا تتــحــقق إلا بالبطش بـالذى هو من عــدوه، ورأى الرجلُ الذى يستصرخه فى عين موسى الإقدام نحوهما وفى عينيه الغضب والعزم على البطش قال فاضحًا السر أمام الذى من عدوهما ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ﴾ إذًا فقد أذاع السر وسمعه الذى من عدوهما ومن ثم صار شاهداً عليهما لدى السلطات الأمنية.

لقد اختلف المفسرون حول الذى قال هذا القول ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا

قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ﴾ إذ من المتبادر إلى الذهن أن يكـون هذا القول هو قول الذى من عـدوه، ولكن يمنع من هـذا التـأويل أنَّ هذا الرجل لا يعـرف أن مـوسى قـتل نفسًـا بالأمس، ولا يعرف هذا السر إلا الذى يتظاهر أنه من شيعته، وهذا ما عليه المحققون من أهل العلم ومـنهم ابن كـثيـر ـ رحـمهـم الله ـ الذين قـرروا أن القـائل هو الذى استصـرخه وليس الذى مـن عدوه؛ ويعللون هذا بأنـه رأى الغضب فى عين مـوسى عليه السلام بـعد قوله له ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فظن أنه ما توجه نحـوهما إلا لقتله هو، وليس لقتل الذى من عدوهما، وهذا الدليل رغم وجاهته لا يبرر إفشاء السر، ويؤكد هذا القـول ويدعـمـه أنه ذكـر فى هذا الموضع غـاية مـوسى المـعلنة من دعـوته وهى الإصلاح والبر وليس الظلم والتجبر الفرعونى الذى ما دعا إلا للقضاء عليه حين قال ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ إذًا هو من أشياعه الذين يحسبون على دعوته، ومن ثم انقلب عليـه لما ظن أنه توجـه إليـهـما ليـقـتله هو، واتهـمه أنه مـا أراد من دعـوته الإصلاح فـى الأرض، وإنما أراد الاستيلاء على الحكم ليكون جبـاراً مـثل الجبـابرة، وإنما اتخذ دعوته الإصلاحية وسـيلة لجمع المظلومين حوله ليقلب بهم نظام الحكم ثم يكون مــثل هؤلاء الجبــارين بعـد أن يصل إلـى الكرسى، وأنه كـاذب فـى دعـوته الإصلاحـيـة.. فالذى جـعله يعتـقد أنه سيـقتله هو أنه ظن أنه عـرف خيانتـه لدعوته وعمالته السـرية للسلطة الفرعونية وأجهـزة الأمن؛ وهذا المنطق يؤكد أن الرجل كان عمـيلاً للسلطة التى أرادت أن توجد المبـرر لقتل موسى، رغم أنه كان أمـيراً؛ إذ تربى فى القصر وله أصدقاء ومحبون فيـه، منهم امرأة فرعون عليها السلام، فلم يكن أمام حـزب الشر لكى يتـخلص من موسى إلا أن يدبر له هذه المؤامـرة التى توقعـه تحت حكم القانون فلا يستطيع محبوه فى القصر مساعدته.

يؤكد هذا أن الرجل الذى من شيعته مـا قال هذا القول إلا لأنه قد تيقن أن موسى علم بحقيقة عمالتـه للسلطة وأنه من عناصرها السرية، وأنه هو الذى أوقعه فى القتل الخطأ بالأمس، ومن ثم عرضه لخطر التصفية الجسدية من السلطة الفرعونية؛ مما جعله على يقين أنه تقدم نحوهما ليقتله هو فقـال هذه الكلمة لكى يشهد عليه الذى ينازعه

ولكى يقلب الموازين فيصير هو والذى ينازعه صفًا واحداً أمام موسى الذى اتهمه بأنه يريد أن يكون جباراً فى الأرض، وفى نفس الوقت أراد أن يذيع سر حادثة الأمس فيعرض موسى بعد ذلك للمحاكمة من غير أن يفتضح أمره بأنه عميل سرى للسلطة الفرعونية؛ لأن الذى سيبادر بإبلاغ السلطة هو هذا الذى من عدوهما، حتى يحمى نفسه من انتقام المخلصين من شيعة موسى.

ولكن يبدو أن السلطة كانت تستعد للقبض على موسى ومحاكمته بحادثة الأمس، بدليل قوله تعالى بعد هذا فى السياق ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ هذا الانتقال من مشهد موسى مع المتقاتلين دون ذكر نهايته يعنى أنه قد انتهى بلا ضرب أو قتل وبلا ذكر لما حدث، لأن إفشاء السر جعل موسى متيقنًا من عمالة هذا الذى يزعم أنه من شيعته للأجهزة الأمنيةوخيانته له ولدعوته الإصلاحية، ولم يبق فى نفسه ذرة من شك فى هذا؛ ومن ثم أدرك أنه مجرد فخ أوقعه فيه بالأمس ويريد أن يتمه ويؤكده اليوم، ومن المؤكد توقع موسى عليه السلام القبض عليه لمحاكمته بعد أن تيقن أن هذا كله ما كان إلا عملية مخابراتية قذرة، فما لبث أن حدث ما توقعه مما أكد له صحة استنتاجه واكتشافه لهذه العملية ولكن بعد فوات الأوان، وذلك بمجىء الرجل من أقصى المدينة ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ وبذلك تأكد لموسى أن حادثة الأمس كانت عند السلطة، وأنها جزء من مؤامرة، الهدف منها قتله والتخلص منه بطريقة تفقد موسى شفاعة أنصاره ومحبيه فى القصر له، فقول الرجل: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ تفسير لكل ما حدث، وتأكيد لهذا التأويل لهذا السياق بأنه يقص علينا إحدى عمليات المخابرات الطاغوتية المتكررة على مر الأيام من أئمة الكفر الظالمين ضد الأبرار المسالمين.

يؤكد هذا أن حادثة الأمس كانت عند السلطة وأنه ما إن أصبح الصباح حتى استصدروا قراراً بضبطه وإحضاره بتهمة القتل العمد التى عقوبتها فى القانون القتل، فمعنى قوله تعالى: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أى يكيفون التهمة ليكون الاتهام القتل العمد مع سبق الإصرار - هذا على الأقل - أما الذى كان متوقعاً فى الأغلب من هذا التآمر فإن التهمة التى كانت تعد له هى تهمة الإرهاب، وقتل الخصوم السياسيين والتدبير

لاغتيال المسئولين فى الدولة، وربما يتطور الأمر بانتزاع اعترافات بالتعذيب عن مؤيدى دعوته وأعضاء حزبه لتصير قضية انقلاب حكم ويتم التخلص منهم جميعًا للقضاء على دعوته الإصلاحية.

وعلى الفور ترك موسى هذا المسرح وخرج بدون إعداد للسفر وبدون أخذ زاد ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا الدعاء مناسب طيلة وجوده فى حدود أرض مصر التى تحت سلطان الدولة الفرعونية، بيد أنه لما بدا له أنه بعد عن هذا السلطان وخرج من حدود مصر وصار فى داخل حدود أرض مدين دعا بدعاء آخر ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ وقد تحقق له هذا لما رعى الغنم عشر سنوات؛ ليدربه الله تعلى على قيادة قومه بنى إسرائيل بعد ذلك، واستجاب الله له فهداه وعلمه سواء السبيل، أى السبيل السوى المستقيم للإصلاح، ثم بعثه الله رسولاً إلى فرعون وإلى بنى إسرائيل بتعليمات فى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والبعد عن استخدام العنف أو القوة، لا ضد الدولة الفرعونية الطاغية، ولا ضد الأفراد، مع ما كان من بطش فرعون وجنوده معه ومع قومه.

هذا هو سواء السبيل فى الإصلاح للدعاة الأفراد الذين ليس لهم إمام أو قائد أو زعيم والذين لهم إمام أو زعيم مثل زعامة موسى لبنى إسرائيل، والذين يعيشون فى ظل دولة جاهلية شركية، لا لاستخدام العنف ولا للقتل. ولو كان أحد مستحقًا للقتل من الطغاة لكان فرعون، ولو كانت فئة تستحق القتل والاغتيال لكانت فئة فرعون وملئه الذين ذبحوا أبناء بنى إسرائيل وساموهم سوء العذاب، ومع هذا فإن الأمر الصادر من رب العالمين سبحانه لموسى وهارون بشأن دعوة فرعون الذى أفرد نفسه بالألوهية لقومه وأعلن أنه ربهم الأعلى، أقول العجيب أن الأمر الصادر لهما بشأن دعوة فرعون هو ألاّ يقولا له إلا قولاً لينًا فيدعوانه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويطلبان منه - إن هو لم يستجب للحق - أن يرسل معهما بنى إسرائيل.

لقد ظل موسى عليه السلام السنوات الطوال إمامًا لبنى إسرائيل وداعيًا لفرعون وملئه ولشعب مصر إلى عبادة الله وحده ورسولاً لهم من رب العالمين هو وأخوه

هارون، ولم يحدث أن استخدم موسى وهارون فيها العنف مرة واحدة، وهما اللذان كانا يقودان شعبًا يزيد عدده على أربعمائة ألف نسمة وقيل مليون نسمة فلم يحدث منهم العنف مرة واحدة، ولم يستطع فرعون وملؤه أن يثبتوا حالة عنف واحدة ضدهم ليبرروا بها استخدام العنف المضاد، وما ذلك إلا لأن موسى عليه السلام كان قد استوعب درس القتل الخطأ جيداً، وعلم أنه لما وقع منه هذا كان ضالاً، أى لم يكن يعلم ما كانوا يدبرونه له من تهمة استخدام العنف ليس للقضاء عليه وحده، ولكن للقضاء عليه وعلى دعوته الإصلاحية وعلى كل من شايعه.

إن استخدام الدعاة ـ أفراداً كانوا أو جماعة ذات إمام ـ العنف والقتل باسم الجهاد ونشر دعوتهم هو أول وأفضل وأقصر طريق للقضاء على هذه الدعوة، وهذا ما يفعله أعداء الإسلام بدس أعوانهم السريين بين الشباب المتحمسين، يدفعونهم للعنف واستخدام القوة والقتل ليكون هذا مبرراً للرأى العام لتصفية الدعوة والتخلص من الدعاة بحجة أنهم إرهابيون ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٠ ـ ٢٢].

فتأمل قول فرعون لموسى ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى من الكافرين بربوبية فرعون وألوهيته والمعارضين له ولنظامه مما أدى إلى قتل أحد الذين يؤمنون بألوهيته وربوبيته، وهذا يثبت صدق التأويل السابق للسياق، ثم إذا تأملنا رد موسى عليه السلام عليه بأنه ما فعل هذه الفعلة إلا لأنه كان من الضالين أى الغافلين التائهين عما دبرت له الأجهزة الأمنية من مؤامرة أوقعوه فيها بهذه الفعلة التى ما

أرادها ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ يؤكد هذا قوله عليه السلام بعد هذا الإقرار ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فهل يصطفى الله تعالى من عباده للرسالة إلا الصالحين الأبرار؟! وهل قَتْلُ موسى للرجل، هذا القتل الخطأ، هل كان فى نزاع حول أمر من أمور الدنيا؟! إن القتل الخطأ عندما يكون نتيجة مؤامرة محبوكة من الخصوم يكون قتلاً عمداً منهم، وهذا يعفى موسى عليه السلام من هذا الوزر، لأن القتل وزر لا يرتكبه أحد ممن يصطفيهم الله تعالى للنبوة، فكيف وقد اصطفاه للرسالة وجعله من الخمسة أولى العزم من الرسل وخصه سبحانه بالكلام الإلهى يسمعه، ويتلقاه مباشرة من رب العالمين؟! أليس فى كل هذا وذاك أدلة كافية على صحة القول بأن الرجل الذى من شيعته هو من رجال الأمن الفرعونى السريين، وأنهم هم الذين قتلوا صاحبهم عمداً أكثر من كون موسى عليه السلام قد قتله خطأ؟! وإن كان هذا قد حدث بوكزه له.

لقد تيقن موسى من هذا؛ ولذا لما جلس إلى الشيخ الصالح فى مدين الذى صار بعد ذلك حماه وقص عليه القصص طمأنه وعقب على ما سمع بكلمة تؤكد يقينه ويقين موسى عليه السلام بأن الله نجاه من مؤامرة ظالمة دبرها له الظالمون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٥].

نعم هم الظالمون لأنهم هم الذين قتلوا قتيلهم عمداً بعملية مخابراتية مزدوجة ليتخلصوا من موسى بشكل قانونى، وربما ليتخلصوا من القتيل معه أيضًا، وهذا ما يعرف بالعمليات المزدوجة، أو كما يقول العامة: «ضرب عصفورين بحجر واحد»، وإلا فكيف يستقيم الوصف بأن يكون القاتل هو موسى عليه السلام ـ ولو على سبيل

الخطأ ـ ويكونون هم الظالمين مع هذا؟، وهم أولياء دم القتيل إلا أن يكون سياق هذه القصة بحسب ما أوردناه من تأويل؟ والله تعالى أعلم.

ولو فهمنا وصفهم بالظلم وصفا للنظام الطاغى المستبد المستعبد لشعبه، فإن هذا لا يمنع أنهم أوْقعوا موسى فى الخطأ الذى أراد منه دفع الخصم الذى من عدوه دفاعا عن الذى من شيعته فمات الرجل من الوكزة بغير قصد من موسى بسبب قوته الخارقة التى حمل بها حجرا لا يحمله إلا عشرة رجال حتى وصفته إحدى الفتاتيْن بأنه القوى الأمين، وكون القتل قد حدث خطأ من موسى عليه السلام لا يتعارض مع تفسيرى للآيات بأنها مؤامرة مخابراتية للتخلص منه.

ومن ثم يحق له عليه السلام أن يهاجر لكى ينجو منهم دون أن يدفع دية القتيل ـ على فرض أنه قتله خطأ ـ ويقول له الشيخ الصالح ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلا إذا كان الاحتمال الأرجح أن القتل الخطأ منه كان بتدبير متعمد من المتآمرين الظالمين؟ والله تعالى أَعْلَى وأعلم.

(٨) عصمة داود عليه الصلاة والسلام وإستغفاره لذنبه:

والسؤال: ما هو الذنب المنسوب لداود، هذا الذنب الذى استغفر ربه له وأناب؟

قال تعالى: ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ

النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٧ ـ ٢٦].

أورد بعض المفسرين قصة في تفسير هذا السياق مؤدَّاها أن سيدنا داود عليه السلام رأى زوج أحد قواده فأعجبته وطمع فيها فعمل على أن يقتل هذا القائد فى الغزو ثم تزوج إمرأته.

وأما هذه القصة التى ينسبونها لسيدنا داود عليه السلام فقد أوردها السيوطى رحمه الله فى الدر المنثور (عن الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن جرير وابن أبى حاتم بسند ضعيف عن أنس رضى الله عنه سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنَّ داوَد عليه السلام حين تزوج المرأة ونزل الملكان على داود عليه السلام فسجد فمكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت الزرع من دموعه).

وما ينسبه بنو إسرائيل إلى داود عليه السلام أنه رأى إمرأة قائد من قادته فأعجبته فأرسله للقتال وطلب منه أن يتصدر الصف ويحمل التابوت على أمل أن يُقتل فيتزوجها، فتزوجها داود عليه السلام بعد مقتل زوجها، كما زعموا .

وقد حَرَّر الأمام السيوطى رحمه الله فى كتابه الدر المنثور رسالة فى هذا الموضوع أرى أن أوردها كاملة تبرئة لداود عليه السلام ونفيًا لهذا القول عنه لتعارضه الصريح مع عصمة النبوة.

جاء فى الجزء الخامس من كتاب «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطى صفحة ٣٢٩ ما نصه:

[تعقيب على شرح وتفسير الآية الكريمة ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبدالله، نور الأنوار، وسر الأسرار ـ وجلاء القلوب والأبصار وعلى آله وصحبه الأطهار أما بعد: فقد وقع بعض المفسرين فى خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال المدسوسة فى تفاسيرهم

إعتمادا على ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص، مما لا يصح سنده ولا يجوز اعتماده، لأنه منقول من القصص الإسرائيلية المكذوبة التى تتنافى مع العقيدة الإسلامية فى عصمة الأنبياء وتنزيههم عن الوقوع فى الزلل والخطأ وارتكاب الفواحش.

من هذه الأباطيل ما رُوِىَ عن نبى الله داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وخلاصتها: «أن نبى الله داود عشق امرأة أحد قواده واسمه أوريا، فاحتال على إبعاده وقتله فى أحد المعارك حتى قتل، ثم تزوج من هذه المرأة» إلى آخر القصة وتفنن القصاص فى إظهار نبى الله داود بأنه شهوانى لدرجة أنه يتسبب فى قتل رجل مؤمن من أجل أن يتزوج من إمرأته مما يراد به النيل من عصمة نبى كريم وأغلب الظن أن القصاص كانوا يتناقلونها رغبة فى العطايا والهبات.

وإحقاقا للحق ليس هناك أسانيد تاريخية ولا أحاديث نبوية تؤيد هذه الأقاويل، لذا نقول أنه لا يؤمن بهذه الإفتراءات إلا جاهل أو ملحد أو كافر أو منافق يريد أن يشيع الفاحشة بين الناس وللأسف نقلها بعض المفسرين فى تفاسيرهم بحجة الحفاظ على التراث. ولكن أى تراث هذا الذى يصف نبى معصوم بما ليس فيه دون استناد إلى مصدر موثوق فيه. والقرآن الكريم ليس فيه إلا ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ وليس فى هذه الآية ما يدل على أن نبى الله داود قد وقع فى خطأ أو زل عن الحق.

غير أن بعض المفسرين تنبهوا إلى تلك الأقوال من إسفاف وكذب فبعضهم لم يتعرض لهذه القصص وإنما تجنبها مثل ابن كثير فى تفسيره حيث قال:

«قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس رضى الله عنه، ويزيد، وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأَوْلَى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق وما تضمنه فهو حق أيضا».

وقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان فى محرابه وهو أشرف مكان

في داره ، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب أى احتاطا به يسألانه عن شأنهما وقوله عزوجل: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أى غلبنى، يقال: عز يعز إذا قهر وغلب.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أى اختبرناه. وقوله تعالى: ﴿رَاكِعًا﴾ أى ساجدا (وأناب) ويحتمل أنه ركع أولا ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجدا أربعين صباحا (فغفرنا له ذلك) أى ما كان منه مما يقال فيه إن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وكذلك أشار البيضاوى فى تفسيره، حيث قال في هذا... «وما قيل أنه أرسل أوريا مرارا إلى الحرب وأمره أن يتقدم حتى قتل ثم تزوج نبى الله داود عليه السلام أرملته، على ما يرويه القصاص ، جَلَدْتُهُ مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء .

والصحيح فى موضوع هذه القصة ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلمائه الأعلام، وبيان هذه القصة أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون الملك وللقضاء بين النساء، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور تسبيحا لله فى المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وذات يوم فوجيء بشخصين يتسوران المحراب الذى يتعبد فيه ففزع منهم ظنا منه أنهم يغتالونه، وأضمر أن يبطش بهما فبادرا يطمئنانه بقولهما «لا تخف» ما جئنا إليك لنفزعك ولكنا جئنا للقضاء - «خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط» .

وبدأ أحدهما فعرض خصومته كما قصها القرآن الكريم فى آياته البينات ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ والقضية هنا تحمل ظلما صارخا مثيرا لا يحتمل التأويل. ومن ثم إندفع داود عليه السلام يقضى على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا ، ولم يطلب إليه بيانا ، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم، وذلك فى قوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ الآية فعاتبه الله تعالى على ذلك ونَبَّهَهُ إلى

ضرورة تَثَبُّتِ القاضى من حكمه وسماعه للخصم الآخر ليكون عادلا فى حكمه بين الناس.

ومن المفسرين الذين تداركوا أكاذيب القصاص ووقفوا لهذه الأقاصيص لهدمها من أساسها الفخر الرازى حيث قدم فى تفسيره الجزء ٢٦ صفحة ١٨٩ تحليلا كاملا وافيا بأسانيد قوية لا تدع مجالا للشك بأن ما ورد من أكاذيب على لسان هؤلاء المفترين هو الكذب والافتراء على عصمة نبى كريم فقال:

(اعلم أن الله تعالى لما مدح داود عليه السلام وأثنى عليه من الوجوه العشرة، أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة فى هذه القصة لا يبين شىء منها كونه عليه السلام مستحقا للثناء والمدح العظيم.

أما قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ فهو نظير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ليكون داعيا إلى الإصغاء لها والاعتبار بها، وأقوال الناس فى هذه القصة ثلاثة أقوال:

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها: أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قُتِلَ زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه. فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة.

والذى أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل:

«أولا» على أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورا لاستنكف منها ، والرجل الحشوى الخبيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل العمل لبالغ فى تنزيه نفسه ، وربما لعن من ينسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليها.

«ثانيا» أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين: إلى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع فى زوجته .

(أما الأول) فأمر منكر قال ﷺ «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة؛ لقى الله عزّوجل مكتوب بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله» [1].

(وأما الثانى) فمنكر عظيم قال ﷺ «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» [2] وإن أوريا لم يسلم من داود لا فى روحه ولا فى منكوحه .

(والثالث) أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة، ووصفه أيضا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة فى البيان؛ فنقول:

(أما الصفة الأولى) فهى أنه تعالى أمر محمدا ﷺ بأن يقتدى به فى المصابرة مع المكابدة ، ولو قلنا أن داود لم يصبر على مخالفة النفس، بل سعى فى إراقة دم امرىء مسلم لغرض شهوته، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدا أفضل الرسل بأن يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله. (يقصد الرازى قوله تعالى للنبى المصطفى الخاتم ﷺ ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]).

(وأما الصفة الثانية) فهى أنه وصفه بكونه عبدا له، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى موقف العبودية تاما فى القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات، ولو قلنا أن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة، فحينئذ ما كان داود كاملا فى عبوديته لله تعالى بل كان كاملا فى طاعة الهوى والشهوة.

(الصفة الثالثة) هو قوله ﴿ذَا الأَيْدِ﴾ أى ذا القوة، ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين، لأن القوة فى غير الدين كانت موجودة فى ملوك الكفار، ولا معنى للقوة فى الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات، والاجتناب عن المحظورات، وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم؟.

(الصفة الرابعة) كونه أَوَّابًا كثير الرجوع إلى الله تعالى، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفا بالقتل والفجور؟

---

(١) رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه، وابن ماجه والأصبهانى وزاد «قال سفيان بن عينية: هو أن يقول: اق، يعنى لا يتم كلمة أقتل» عن إتحاف الجماعة للتويجرى ص١١٩.

(٢) صحيح البخارى ك الإيمان ح٤، ٥ صحيح مسلم ك الإيمان/ ٦٤، ٦٥، وأبو داود ك الجهاد/ ٢ الترمذى ك القيامة/ ٥٢، النسائى ك الإيمان/ ٨، ٩، ١١.

(الصفة الخامسة) قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ﴾ أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة إلى القتل والفجور؟

(الصفة السادسة) قوله: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾، وقيل أنه كان محرما عليه صيد شيء من الطير، وكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على نفسه ومنكوحه[1]؟.

(الصفة السابعة) قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدَّ ملكه بأسباب الدنيا، بل المراد أنه تعالى شَدَّ ملكه بما يقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة، والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا، ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك؟.

(الصفة الثامنة) قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علما وعملا، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى إنا ﴿آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ مع إصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه فى الروح والمنكوح، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب.

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة :

(الأول) قوله ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته فى طاعة الله، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه فى القتل والفجور لم يكن قوله ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لائقا به .

(الثانى) قوله تعالى ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه :

(أحدها) أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد إنى فوضت إليك خلافتى ونيابتى، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر، فأما جعله نائبا وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق.

(١) منكوحه زوجته.

(وثانيها) أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة، ثم قال بعده: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ أَشْعَرَ هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة، ومعلوم أن هذا فاسد، أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصى والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ فثبت أن هذا الذى نختاره أولى .

(والثالث) وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضا دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالى المرتبة فى طاعة الله يقتل ويزنى ويسرق وقد جعله الله خليفة فى أرضه وصوب أحكامه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعى فى القتل من أعظم أبواب العيوب.

(والرابع) وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا فى هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له فى الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء فى النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات، لأنهم لما ابتلوا صبروا، فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء، فأوحى الله إليه انك ستُبْتَلَى فى يوم كذا فبالغ فى الإحتراز ثم وقعت الواقعة، فتقول أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذى يزيد فى منقبته ويكمل مراتب إخلاصه، فالسعى فى قتل النفس بغير الحق والإفراط فى العشق كيف يليق بهذه الحالة، ويثبت أن الحكاية التى ذكروها يناقض أولها آخرها .

(والخامس) أن داود عليه السلام قال ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغى، فلو قلنا أنه كان موصوفا بالبغى للزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل .

(السادس) حضرت فى بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك، فقلت له لاشك أن داود عليه السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل، ولقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ فى الطعن فيه، وأيضا فتقدير أنه ما كان نبيا فلاشك أنه كان مسلما، ولقد قال ﷺ «لا تذكروا موتاكم إلا بخير» ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أن نقول: إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التى ذكرتموها حقيقة صحيحة، فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئا من الثواب، لأن إشاعة الفاحشة، إن لم توجب العقاب، فلا أقل من أن لا توجب الثواب، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة، فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب، والواقعة التى هذا شأنها وصفتها، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها، فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه، وأن شرح تلك القصة محرم محظور، فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت ولم يذكر شيئا .

(السابع) أن ذكر هذه القصة، وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضى إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرما لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

(الثامن) لو سعى داود فى قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله ﷺ «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة، لقى الله عز وجل مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله»(١) وأيضا لو فعل ذلك لكان ظالما، فكان يدخل تحت قوله ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ .

(التاسع) عن سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال «من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء، ومما يقوى هذا أنهم لما قالوا إن المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك، وأما الرابع فإنه لم يقل بأنى رأيت ذلك العمل، فإن عمر ابن الخطاب كذب أولئك الثلاثة، وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم

(١) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة عن إتحاف الجماعة للتويجرى جـ١ ص١١٩.

قذفوا، وإذا كان الحال فى واحد من آحاد الصحابة كذلك، فكيف الحال مع داود عليه السلام، مع أنه من أكابر الأنبياء عليهم السلام .

(العاشر) روى أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما فى كتاب الله تعالى، فقال لا ينبغى أن يزاد عليها، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت، ثم إنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام، فلا يجوز للعاقل أن يسعى فى هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أوأقل أو أكثر فقال عمر(1) «سماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس» فثبت بهذه الوجوه التى ذكرناها أن القصة التى ذكروها فاسدة باطلة، فإن قال قائل: إن كثيرا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة، فكيف الحال فيها؟

فالجواب الحقيقى أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد ،كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى، وأيضا فالأصل براءة الذمة، وأيضا فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى، وأيضا طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا، وأيضا فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم لم تسعوا فى تشهير هذه الواقعة؟

وأما بتقدير كونها باطلة فإن علينا فى ذكرها أعظم العقاب، وأيضا فقوله عليه السلام «إذا علمت مثل الشمس فاشهد» وهنا لم يحصل العلم ولا الظن فى صحة هذه الحكاية، بل الدلائل القاهرة التى ذكرناها قائمة، فوجب أن لا تجوز الشهادة بها، وأيضا كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الأكثرون المحقون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد، وأيضا إذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقى الرجوع إلى الدلائل التى ذكرناها فهذا تمام الكلام فى هذه القصة.

أما الاحتمال الثانى: وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة

(1) لم ينص فيما سبق على عمر هذا ولم يشر إليه، والخبر يفيد أن ذلك البعض الذى حكى القول العاشر حكى القصة أمام شخص اسمه عمر فقال هذه الكلمة ولا ندرى أهو عمر بن الخطاب أم ابن عبدالعزيز أم شخص غيرهما ولعله سقط بيان ذلك من الناسخ أو المطبعة الأميرية.

ولا يوجب حصول الكبيرة، فنقول فى كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه:

(الأول) أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه، ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه .

(الثانى) قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له فى هذا ذنب البتة، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضا ذنبا، لأن هذا الميل ليس فى وسع نفسه، فلا يكون مكلف به، بل لما اتفق أن قُتِلَ زوجها لم يتأذ تأذيا عظيما بسبب قتله ، لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة، فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى، وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل .

(والثالث) أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن يطلق امرأته حتى يتزوجها، وكانت عادتهم فى هذا المعنى مألوفة معروفة، روى أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى، فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة، فأحبها فسأله النزول عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل وهى أم سليمان فقيل له هذا، وإن كان جائزا فى ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق به، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذه وجوه ثلاثة، لو حملنا هذه القصة على واحد منها، لم يلزم فى حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى.

وأما الاحتمال الثالث: وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة، والصغيرة بداود عليه السلام، بل يوجب الحاق أعظم أنواع المدح والثناء، وهو أن نقول روى أن جماعة من الأعداء طمعوا فى أن يقتلوا نبى الله داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة فى ذلك اليوم وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواما يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذبا، فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض إلى آخر القصة، وليس فى لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به فى إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة :

(أحدها) قوله ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ و(ثانيها) قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾،

و(ثالثها) قوله ﴿وأناب﴾، و(رابعها) قوله ﴿فغفرنا له ذلك﴾ ثم نقول، وهذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكروه، وتقريره من وجوه :

(الأول) أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق، وعلم داود عليه السلام ذلك، فدعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلبا لمرضاة الله، قال وكانت هذه الواقعة هى الفتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان، ثم إنه استغفر ربه مما هو به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم .

(والثانى) أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه إلا أنه ندم على ذلك الظن، وقال ما لم تقم دلالة ولا أمارة على أن الأمر كذلك، فبئسما عملتُ بهم حيث ظننتُ بهم هذا الظن الرديء، فكان هذا هو المراد من قوله ﴿وظن داوود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب﴾ منه فغفر الله له ذلك .

(الثالث) أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العزم على قتله، كما قال فى حق محمد ﷺ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب، أى رجع إلى الله تعالى فى طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل، وقوله ﴿فغفرنا له ذلك﴾ أى غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود ولتعظيمه، كما قال بعض المفسرين فى قوله تعالى ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك﴾ أن معناه أن الله تعالى يغفر لك ولأجلك ما تقدم من ذنب أمتك .

(الرابع) هب أنَّ داود عليه السلام تاب عن زلة صدرت منه، لكن لا نُسلِّم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة، فلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثانى، فإنه لما قال ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بيِّنة، لكون هذا الحكم مخالفا للصواب، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة، إلا أن هذا

من باب ترك الأفضل، فثبت بهذه البيانات أنا إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه، فإنه لا يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه، ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه .

-(**الأول**) أن الأصل فى حال المسلم البعد عن المناهى، لاسيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل .

-(**والثانى**) أنه أحوط .

-(**والثالث**) أنه تعالى قال فى أول الآية لمحمد ﷺ (واصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فإن قوم محمد عليه الصلاة والسلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) واستهزأوا به حيث قالوا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ فقال تعالى فى أول الآية: اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمَّل وتحلَّم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية ما ذكرناه، أما إذا حملناها علي ما ذكروه صار الكلام متناقضا فاسدا.

-(**والرابع**) أن تلك الرواية إنما تتمشى إذا قلنا الخصمان كانا ملكين، ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذبا، فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين:

-(**أحدهما**) إسناد الكذب إلى الملائكة .

-(**والثانى**) أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أفحش القبائح إلى رجل من أكابر الأنبياء.

فأما إذا حملنا الآية على ما ذكرنا استغنينا عن إسناد الكذب إلى الملائكة، وعن إسناد القبيح إلى الأنبياء، فكان أولى، فهذا ما عندنا فى هذا الباب، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولهذا كله آثرنا ألا نردد ما قاله بعض المفسرين فى ذكر القصة المشار إليها حفاظا

على كرامة الأنبياء وتجنبنا الوقوع فيما وقع فيه غيرنا إستنادا إلى قول الإمام على كرم الله وجهه، وكذلك الأحاديث الشريفة التى ذكرت آنفا واقتناعا منا بأن القصة مكذوبة ولى فيها وجها واحدا صحيحا.

ونرجوا الله عزوجل أن يوفقنا ويمن علينا بنفحاته الزكية من العلم والفهم والتبصر ما نستطيع به دفع الأكاذيب والافتراءات التى تمس الدين فى أى زمان ومكان وفقنا الله وإياكم، والله يهدى الحق وهو يهدى السبيل).

انتهت رسالة الإمام السيوطى رحمه الله تعالى التى ضمَّنها تفسير الإمام الرازى رحمه الله ، وليس لأحد تعقيب بعد قوله رحمه الله وقول مجدد القرن العاشر الإمام السيوطى كما وصف هو نفسه بحق.

(٩) عصمة سليمان عليه الصلاة والسلام وغفلته عن صلاة العصر أثناء إستعراضه للجياد:

قال تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣١ - ٣٣].

والذى قد يتعارض مع العصمة ويُعْتَبر ذنبا هو فى قوله تعالى مخبرا عن مقالة سليمان ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أى أنه تأخر عن موعد صلاة العصر غفلة وإنشغالا باستعراض الخيل التى هى عدة الجهاد فى سبيل الله، حتى مالت الشمس نحو المغيب.

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسيرها (ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذى يُقْطَع به، أنه لم يتركها عمدا بل نسَيانا، كما شغل النبى ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه من ذلك (عن جابر رضى الله عنه

قال: جاء عمر رضى الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ويقول يارسول الله ، والله ما كدتُ أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب فقال رسول الله ﷺ والله ما صليتُها، فقال: فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبى الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم بعدها المغرب)(١).

ويحتمل أنه كان سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال، وقد إدَّعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسايفة والمضايقة، حيث لا تُمكّن صلاة ولاركوع، ولاسجود، كما فعل الصحابة رضى الله عنهم فى فتح تستر، وهو منقول عن مكحول والأوزاعى وغيرهما، والأول أقرب، لأنه قال بعده (ردوها علىّ فطفق مسحا بالسوق والاعناق)](٢).

فليس تأخير صلاة العصر بالنسبة لسليمان ذنبا، لأنه كان بسبب عمل من أعمال الجهاد، وهو استعراض الخيل التى هى أهم العتاد فى المعارك.

وقد اختلف المفسرون فى تفسير قوله تعالى ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ فقال بعضهم أى طفق ضربا لأعناقها وعراقيبها بالسيوف غَضَبًا لله عز وجل وحقه، وقال آخرون بل مسح بيديه أعرافها وعراقيبها حُبًّالها لأنها لا ذنب لها فى تأخير الصلاة.

وعلى أى حال فإن رأى أكثر العلماء وهو أن هذا كان فى ملتهم جائزا وبسبب الانشغال بالاعداد للجهاد.

ومن ثم يكون هذا العمل من سليمان ليس ذنبا أو معصية منافية للعصمة، وانما هو من قبيل ترك الفعل الأولى المناسب للنبوة وهو أداء الفريضة فى أول وقتها إلى فعل آخر ليس هو فى حد ذاته معصية، وهو أداء الصلاة بعد ميل الشمس نحو الغروب، وقد حدث هذا من الصحابة أثناء غزوة الخندق كما مر بنا فى الحديث الصحيح.

(١)

(٢) تفسير ابن كثير المجلد ٤ ص٣٥.

(١٠) عصمة سليمان عليه الصلاة والسلام ونسيان الاستثناء بالمشيئة الإلهية واختلاف الروايات حول قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾: ـ

لقد ورد فى تفسير قوله تعالى ﴿جَسَدًا﴾ قصتان: ـ

الأولى: أن هذا الجسد كان شيطانا مُسَخَّراً لسليمان ، فاحتال لأخذ خاتمة الذى فيه سر ملكه فوضعه فى أصبعه وجلس على كرسى عرش سليمان مُتَشبِّهًا بصورته، فعاملته الحاشية والخدم والانس والجن والشياطين باعتباره سليمان وانكروا سليمان الذى اضطر أن يعمل أجيرا لينال طعامه، ثم أعاد الله تعالى لسليمان خاتمه وملكه.

الثانية: أن الجسد الذى أُلقى على كرسيه كان شق طفل لم يكن كاملا وُلِدَ لسليمان، لأنه كان قد قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل منها مجاهدا يجاهد فى سبيل الله، ولم يقل إنشاء الله، فلم يولد له إلا هذا الشق.

وهذان الابتلاءان لسليمان عليه السلام ، ليس واحدٌ منهما ذنبا يتعارض مع العصمة، وإنما هما بلاءٌ له عليه السلام فعل فيه فعلا هو دون الأَوْلَى فى حق النبى وليس معصية أو ذنبا.

وقد أورد السيوطى الاحاديث المثبتة للقولين بالنسبة لتفسير قوله تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ وسأوردها كما أثبتها السيوطى رحمه الله فى الدر المنثور.

(قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ الآية، أخرج الفريابى والحكيم الترمذى والحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا» قال هو الشيطان الذى كان على كرسيه يقضى بين الناس أربعين يوما، وكان لسليمان عليه السلام إمرأة يقال لها جرادة، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة، فقضى بينهم بالحق، إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها، فأوحى الله تعالى إليه أنه سيصيبك بلاء، فكان لا يدرى يأتيه من السماء أم من الأرض، وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم بسند قوى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء فاعطى لجرادة خاتمة، وكانت جرادة إمرأته،

وكانت أحب نسـائه إليه فجـاء الشيطان فى صورة سليـمان، فقال لهـا: هاتى خاتمى فأعطته، فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشيـاطين، فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاء ،قال لها هاتى خاتمى فقالت: قد أعطيـته سليمان، قال: أنا سليمان، قالت: كذبت ـ لست ـ سليمان، فجعل لا يأتى أحـدا يقول أنا سليمان، إلا كذبه حتى جعل الصـبيـان يرمـونه بالحـجارة، فلمـا رأى ذلك عـرف أنه من أمـر الله عز وجل، وقـام الشيطان يحكم بين الناس .

فلما أراد الله تعالى أن يرد على سليمان عليه السلام سلطانه ألقى فى قلوب الناس إنكار ذلك الشـيطان فأرسلوا إلى نساء سلـيمان عليـه السلام فقـالوا لهن أيكون من سليمان شىء، قلن: نعم ، إنه يأتينا ونحن حُيَّضْ ومـا كان يأتينا قبل ذلك، فلما رأى الشيطان أنه قد فُطِنَ له ظن أن أمره قـد انقطع، فكتبوا كتبا فيهـا سحر ومكر فدفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أثاروها وقرأوها على الناس، قـالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم، فأكفر الناس سليمان، فلم يزالوا يكفرونه.

وبعث ذلك الشـيطان بالخـاتم فطرحه فى البـحـر فتلقـته سـمكة فـأخذته، وكـان سليمـان عليه السلام يعمل على شط البـحر بالأجر فجـاء رجل فاشترى سمـكا فيه تلك السمكة التى فى بطنهـا الخاتم فدعا سليـمان عليه السلام، فـقال: تحمل لى هذا السمك ثم انطلق إلى منزله فلما انتـهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التى فى بطنها الخـاتم، فأخذها سليـمان عليه السـلام فشق بطنها فـإذا الخاتم فى جوفـها، فأخـذه فلبسه، فلمـا لبسه دانت له الإنـس والجن والشياطين وعـاد إلى حاله، وهرب الشيطان حـتى لحق بجزيرة من جزائر البـحر، فأرسل سليـمان عليه السـلام فى طلبه وكان شـيطانا مريدا يطلبونه ولا يقـدرون عليه حتى وجدوه يومـا نائما فجاؤا فنقبوا عليه بنيانا من رصاص فاستيـقظ فوثب فجعل لا يثبت فى مكان من البيت الا أن دار معه الرصاص فأخذوه وأوثقوه وجاؤا به إلى سليمان عليه السلام، فأمر به فنقر له فى رخام ثم أدخل فى جـوفه ثم سـد بالنحاس ثم أمر به فطرح فـى البحر، فـذلك قوله: «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا» يعنى الشيطان الذى كان تسلط عليه.

وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر عن ابن عبـاس رضى الله عنهما قال أربع آيات من

كتاب الله لم أدر ما هى حتى سألت عنهن كعب الأحبار رضى الله عنه قوله (قوم تبع) فى القرآن ، ولم يذكر تبع، فقال: إن تبعا كان ملكا وكان قومه كهانا وكان فى قومه قوم من أهل الكتاب، وكان الكهان يبغون على أهل الكتاب، ويقتلون تابعهم، فقال أهل الكتاب لتبع إنهم يكذبون علينا، فقال تبع إن كنتم صادقين فقربوا قربانا فأيكم كان أفضل أكلت النار قربانه، فقرب أهل الكتاب والكهان فنزلت نار من السماء فأكلت قربان أهل الكتاب، فأتبعهم تبع فاسلم، فلهذا ذكر الله قومه فى القرآن ولم يذكره.

قال ابن عباس رضى الله عنهما وسألته عن قوله (وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) قال: الشيطان أخذ خاتم سليمان عليه السلام الذى فيه ملكه فقذف به فى البحر فوقع فى بطن سمكة فانطلق سليمان يطوف، إذ تُصُدِّق عليه بتلك السمكة فاشتواها فأكلها فإذا فيها خاتمة فرجع إليه ملكه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) قال صخر الجنى مُثِّلَ على كرسيه على صورته.

وأخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه قال أمر سليمان عليه السلام ببناء بيت المقدس فقيل له: إبْنه ولا يُسْمَعُ فيه صوت حديد، فطلب ذلك فلم يقدر عليه، فقيل له إن شيطانا يقال له صخر شبه المارد فطلبه، وكانت عين فى البحر يردها فى كل سبعة أيام مرة فنزح ماءها وجعل فيها خمرا، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر، فقال إنك لشراب طيب تصيب من الحليم، وتزيد من الجاهل جهلا، ثم جفل حتى عطش عطشا شديدا ثم أتاها فشربها حتى غلب على عقله فأوتى بالخاتم فختم بين كتفيه فذل، وكان ملكه فى خاتمه، فأتى به سليمان، فقال: إنا قد أمرنا ببناء هذا البيت فقيل لنا لا تسمعن فيه صوت حديد فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة فجاء الهدهد فدار حولها فجعل يرى بيضة ولا يقدر عليه فذهب فجاء بالماس فوضعها عليه.فقطعها حتى أفضى إلى بيضه فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة .

وكان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخل بخاتمه، فانطلق يوما إلى الحمام وذلك الشيطان صخر معه فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فالقاه فى البحر، فالتقمته سمكة، ونزع ملك سليمان عليه السلام منه، وألقى على الشيطان شبه سليمان، فجاء فقعد على كرسيه وسلط على ملك سليمان كله غير نسائه فجعل يقضى بينهم أربعين يوما حتى وجد سليمان عليه السلام خاتمه فى بطن السمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جنى ولا طير إلا سجد له حتى انتهى إليهم وفى قوله: «وألقينا على كرسيه جسدا» قال هو الشيطان صخر، ثم أناب قال تاب ثم أقبل يعنى سليمان.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضى الله عنه «وألقينا على كرسيه جسدا» قال شيطانا يقال له آصف فقال له سليمان كيف تفتنون الناس قال أرنى خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه آصف فى البحر فساح سليمان عليه السلام وذهب ملكه وقعد آصف على كرسيه ومنعه الله تعالى نساء سليمان عليه السلام فلم يقربهن ولا يقربنه وأنكرنه وأنكر الناس أمر سليمان عليه السلام، وكان سليمان عليه السلام يستطعم فيقول أتعرفونى أنا سليمان فيكذبوه، حتى أعطته امرأة يوما حوتا ، وطَيَّب بطنه فوجد خاتمه فى بطنه فرجع إليه ملكه وفر الشيطان فدخل البحر نارا.

وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ولد لسليمان ولد فقال للشيطان تواريه من الموت، قالوا نذهب به إلى المشرق، فقال يصل إليه الموت، قالوا فإلى المغرب قال يصل إليه قالوا إلى البحار ، قال يصل إليه الموت، قال نضعه بين السماء والأرض، ونزل عليه ملك الموت فقال إنى أمرت بقبض نسمة طلبتها فى البحار وطلبتها فى تخوم الأرض فلم أصبها فبينا أنا صاعد أصبتها فقبضتها وجاء جسده حتى وقع على كرسى سليمان، فهو قول الله («ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب») .

وقال ابن سعد رضى الله عنه أخبرنا الواقدى حدثنا معشر عن المقبرى أن سليمان ابن داود عليه السلام قال لأطوفن الليلة بمائة امرأة من نسائى فتأتى كل امرأة منهن

بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يستثن، ولو إستثنى لكان، فطاف على مائة امرأة فلم تحمل امرأة إلا امرأة واحدة، حملت بشق إنسان، قال ولم يكن شىء أحب إلى سليمان من تلك الشقة ، قال وكان أولاده يموتون فجاء ملك الموت فى صورة رجل فقال له سليمان عليه السلام، إن استطعت أن تؤخر إبنى هذا ثمانية أيام إذا جاءه أجله، فقال لا، ولكن أخبرك قبل موته بثلاثة أيام قال لمن عنده من الجن: أيكم يخبىء لى إبنى هذا ؟ قال أحدهم أنا أخبؤه لك فى المشرق قال ممن تخبئونه؟ قال من ملك الموت. قال يبصره، قال آخر أنا أخبؤه لك بين قرينين لا يُرَيان قال سليمان عليه السلام إن كان شىء فهذا ، فلما جاء أجله نظر ملك الموت فى الأرض فلم يره فى مشرقها ولا فى مغربها ولا شىء من البحار ورآه بين قرينين فجاءه فأخذه فقبض روحه على كرسى سليمان فذلك قوله «ولقد فتنا سليمان» وهو قول الله وألقينا على كرسيه جسدا.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال بينما سليمان بن داود جالسا على شاطىء البحر وهو يعبث بخاتمه إذ سقط منه فى البحر وكان ملكه فى خاتمه فانطلق وخلف شيطانا فى أهله فأتى عجوزا فأوى إليها فقالت له العجوز إن شئتَ أن تنطلق فتطلب وأكفيك عمل البيت وإن شئت أن تكفينى عمل البيت وأنطلقُ فالتمس، قال فانطلق يلتمس فأتى قوما يصيدون السمك، فجلس إليهم فنبذوا سمكات، فانطلق بهن حتى أتى العجوز، فأخذت تصلحه فشقت بطن سمكة فإذا فيها الخاتم فأخذته وقالت لسليمان عليه السلام ما هذا ؟ فأخذه سليمان عليه السلام فلبسه فأقبلت إليه الشياطين والإنس والجن والطير والوحش وهرب الشيطان الذى خلف فى أهله فأتى جزيرة فى البحر، فبعث إليه الشياطين فقالوا لا نقدر عليه، أنه يرد عينا فى جزيرة فى البحر فى سبعة أيام يوما، ولا نقدر عليه حتى يسكر قال فصب له فى تلك العين خمرا فأقبل فشرب فسكر فَأَرَوْه الخاتم فقال سمعا وطاعة، فأوثقه سليمان عليه السلام ، ثم بعث به إلى جبل فذكروا أنه جبل الدخان، فالدخان الذى يرون من نفسه والماء الذى يخرج من الجبل بوله.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان سليمان عليه السلام إذا دخل الخلاء أعطى خاتمه أحب نسائه إليه فإذا هو قد خرج وقد وضع له وضوءه فدفع خاتمه إلى امرأته فلبث ما شاء الله وخرج عليها شيطان فى صورة سليمان فدفعت الخاتم إليه فضاق ذرعا به فالقاه فى البحر فالتقمته سمكة فخرج سليمان عليه السلام على امرأته فسألها الخاتم فقالت قد دفعته إليك فعلم سليمان عليه السلام أنه قد ابتلى، فخرج وترك ملكه ولزم البحر فجعل يجوع فأتى يوما على صيادين قد صادوا سمكا بالأمس فنبذوه وصادوا يومهم سمكا فهو بين أيديهم، فقام عليهم سليمان عليه السلام ، فقال أطعمونى بارك الله فيكم، فإنى ابن سبيل، فلم يلتفتوا إليه، ثم عاد فقال لهم مثل ذلك، فرفع رجل منهم رأسه إليه فقال ائت ذلك السمك فخذ منه سمكة فأتاه سليمان عليه السلام، فأخذ منه أدنى سمكة فلما أخذها إذا فيها ريح، فأتى بها البحر فغسلها وشق بطنها فإذا هو بخاتمه فحمد الله وأخذه، فتختم به ونطق كل شىء كان حوله من جنوده، وفزع الصيادون لذلك فقاموا إليه وحيل بينهم ، ولم يصلوا إليه ورد الله إليه ملكه.

وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذى من طريق على بن زيد عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه أن سليمان بن داود عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله إليه أن يا سليمان احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر فى أمور العباد، ولم تنصف مظلوما من ظالم، وكان ملكه فى خاتمه، وكان إذا دخل الحمام وضع خاتمه تحت فراشه فجاء الشيطان فأخذه فأقبل الناس على الشيطان فقال سليمان يا أيها الناس أنا سليمان نبى الله فدفعوه فساح أربعين يوما، فأتى أهل سفينة فأعطوه حوتا فشقها فإذا هو بالخاتم فيها فتختم به، ثم جاء فأخذ بناصيته فقال عند ذلك («رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى») قال وكان أول من أنكر نساؤه فقال بعضهم لبعض أتنكرون منه شيئا قلن نعم وكان يأتيهن وهن حيض فقال على: فذكرت ذلك للحسن، فقال ما كان الله يسلطه على نسائه.

وأخرج عبد بن حميد عن عبدالرحمن بن رافع رضى الله عنه قال بلغنى أن رسول الله ﷺ حدث عن فتنة سليمان عليه السلام قال: (إنه كان فى قومه رجل كعمر بن

الخطاب فى أمتى فلما أنكر حال الجان الذى كان مكانه أرسل إلى أفاضل نسائه فقال: هل تنكرن من صاحبكن شيئا ؟ قلن نعم كان لا يأتينا حيضا، وهذا يأتينا حيضا فاشتمل على سيفه ليقتله فرد الله على سليمان ملكه فأقبل فوجده فى مكانه فأخبره بما يريد.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا قال الجسد الشيطان الذى كان دفع سليمان عليه السلام إليه خاتمه فقذفه فى البحر وكان ملك سليمان عليه السلام فى خاتمه وكان إسم الجنى صخرا.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضى الله عنه وألقينا على كرسيه جسدا قال الجسد الشيطان الذى كان دفع إليه سليمان خاتمه شيطانا يقال له آصف[1].

انتهى ما اورده السيوطى رحمه الله تعالى، وسواء أكان تفسير الآية أن الجسد الذى أُلقيَ على كَرسيِّه عليه السلام هو شق مولود لنسيانه الاستثناء بالمشيئة، أم كان الشيطان الذى أخذ خاتمه واستولى على ملكه، فان هذا أو ذاك لا يقدحان فى عصمة النبوة عند سليمان لأنه كان إبتلاءً من الله له ولم يكن معصية.

(١١) عصمة يونس وذهابه مغاضبا من قومه:

المنسوب إلى يونس عليه السلام أنه ذهب مغاضبا تاركا قومه قال تعالى ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فما تفسير ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؟ وهل يجوز الذهاب مغاضبا بهذا المعنى المتبادر إلى الذهن من هذه الآية أن يحدث من نبى نحو ربه ونحو قومه؟!

أما قوله ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ أى من قومه، وليس من ربه عز وجل، وأما قوله تعالى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أى ظن أن لن نُضيِّق عليه الأرض، فهو من حسن الظن بالله عز وجل، ولكن لا يمنع هذا التفسير وذاك من خطأ أدركه يونس عليه السلام لما هاج البحر وساهم فكان من المدحضين، وآل به الحال إلى بَطن الحوت

(١) الدر المنثور للسيوطى.

ليواجه القضاء الالهى بالموت المحقق، حتى يتلقى الدرس العملى ، بعد أن ينجيه الله تعالى، بأنه سبحانه قادر على تغيير القضاء كما أنه قادر على تغيير القدَر سبحانه وهو المبدأ التوْحيدى الذى غفل عنه يونس لَحْظَةً واحدة، فترك قومه معتمْداً حتمية نزول العذاب عليهم، دون أن يصبر معهم، لعلهم يتوبونَ فيرفعه الله عنهم، حتى بعد أن أمر الله تعالى الملائكة بإنفاذه بعد ثلاث، إذ من المبادىء الإسلامية المقررة، أن الله تعالى قادر على محو القدر أو إثباته، كما أنه قادر على ايقاف العذاب، حتى بعد أن ينزل العذاب. أو إيقاف أى قضاء آخر، إذا شاء سبحانه إيقافه، وما حدث لقومه ما هو إلاَّ بيان لإيقاف القضاء بالعذاب، وأعنى به إيقاف الله عزٍ وجل القضاء بوقوع العذاب عليهم بعد نزوله. لانه لو كان ايقافا للنزول لكان من قبيل محو القدر(١).
قال تعالى فى سورة يونس: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] قال ابن كثير رحمه الله (قال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل بالعراق فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث)(٢) ولاشك أن وعيد يونس لهم بالعذاب بعد ثلاث كان بناء على وحى من الله عز وجل وهو ـ من ثم ـ وعيد حق، وهو إخبار من الله تعالى وإعلام ليونس عليه السلام بأنهم استحقوا العذاب، أى أنهم حسب سنن الله تعالى فى نزول العذاب على المكذبين المعاندين أصبحوا مستحقين لنزول العذاب عليهم، وهذا لا يكون إلا بعد عرض الملائكة لكتب المقادير المستنسخة على رب العزة، وبعد أن صدر الأمر الالهى باثباتها وبإنفاذها وبقضائها، أى لم يصدر الأمر بمحوها، لأنهم كانُوا مصرين على تكذيبهم وعنادهم، ومن ثم يكون قد صدر الأمر من الله عز وجل

---

(١) القدر هو ما قدر الله حدوثه وكتبه قبل خلق السماوات والأرض، والقضاء هو ما أمر الله تعالى الملائكة بانفاذه من الاقدار وهو سبحانه قادر على محو القدر أو اثباته أو ايقاف القضاء الذى أمر بانفاذه حتى ولو كان قبل نفاذه بلمح البصر لقوله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.
(٢) ابن كثير/ قصص الأنبياءص ٣٣٥ طبعة دار الفكر.

بإنفاذ العذاب فيـهم بعد ثلاث، أى أن القدر الالهى بنزول العـذاب عليهم، قد صدر الأمر بإثباته، ولم يصدر الأمر بمحوه.

ومن ثم فهم سيدنا يونس عليه السلام أن نزول العذاب ووقوعه بالقوم بعد ثلاث أمر حتمي، بمقتـضى صدور الأمر الالهى بانفاذه، وبمقتضى تحـديد الموعد بعد ثلاث. وبناء عـليه خرج يـونس عليه الـسلام من بين أظـهرهم، وهذا معـناه أن يونس عـليه الـسـلام قد نسى ـ ولا أقـول جهل ـ أن الله اذا شاء أوقـف القضاء، لـيس قبل نـفاذه بثلاث ليالى، بل قبله بلمح البصر، وبعد إكتمال أسبابه كاملة، ومن ثم تركهم وخرج من بين أظهرهم، بـينما كان الواجب عليه بمـقتضى الحقيقة الايمانيـة التى تقول أن الله تعالى إذا شاء منع نفاذ القضاء فى حالة توبة مستحقى العذاب ورجوعهم وتضرعهم إلى الله، أقول كان من الـواجب عليه أن يبقى معـهم داعيا إياهم إلى التـوبة والتضرع إلى الله، ولا يتـركهم حتى يأذن الله له فى تـركهم، لأن الذى يـعلم هل سـيستجـيبوا لداعى التـوبة أم لا؟ هو الله وحده ، ومن ثم يوحـى اليه أنه لن يؤمن فـى قومه إلاَّ من قد آمن كما أوحى لنوح بذلك، ولغيره من رسل الامم البائدة.

إن المفسرين يذكرون أن خطأ سيدنا يونس عليه السلام هو أنه (ذهب مغاضبا) من قومـه، يائسـا من توبتـهم، وظن أَنَّ الله تـعالى لـن يُضَيِّـق عليه الأرض الـرحبة الـتى سيسيح فيها، أو لن يـقْدُرِّ عليه من العذاب ما قدره عليهم، لأنه هو الـنبى المطيع لربه المسبح له، ولم يوضح أحد من المفسرين وجـه الخطأ فى تركه لقومه بعد أن أخبره الله تعالى بـأن العذاب نازل بهم بـعد ثلاث، ولم يذكر أحـد وجه المعصية فـى هذا، وقد صَدَّق يونس ما أُوحِى إليه ، وإعتقد فى حتمية نزول العذاب بناءاً على ما أُوحِىَ اليه.

والذى أوضحـه هنا فيما أرَّجـحُه هو وجه الخطأ فـى مسلك سيدنـا يونس ـ والله تعالى أعلم ـ وهو أنه فى لحظة خروجه كان مؤمنا بأن العذاب واقع بهم لا محالة بعد ثلاث، ولم يَـر، مِنْ ثَمَّ، جدوى مـن إستمراره بـينهم داعـيا مذكرا مـنذرا راجيا لـهم الإستجابة والتوبة، وهذا خطأ، لانه نسى أن الله تعالى ـ إذا استجابوا وتابوا خلال هذه

الثلاث ـ قادر على أن يوقف عنهم العذاب، ولو بعد نزوله من السماء، بل إذا سبقت توبتهم نُزُول العذاب بمقدار لمح البصر من الزمن وشاء سبحانه أن يستجيب لنزل الأمر بمنع العذاب، لأن أمره كلمح البصر أو هو أقرب. ولو تذكر يونس عليه السلام هذه الحقيقة الإيمانية واستحضرها وإستيقنها لظل يدعوهم، ولما خرج، أى لظل بينهم يستغفر الله تعالى ويدعوهم للتوبة والرجوع.

فالخطأ ليس فى مجرد الخروج ، ولكن فى الاعتقاد الباعث له على الخروج، وإن كان الخروج بغير إذن الله تعالى خطأ يتنافى مع الصبر على عند المعاندين وتكذيبهم، بَيْدَ أنَّ الخطأ الاكبر هو فى نسيانه جواز إيقاف القضاء، وأن الله تعالى ـ اذا شاء ـ يكشف عنهم العذاب بعد نزوله ووصوله إلى ما فوق رؤوسهم، فى حالة توبتهم، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى يتمثل الخطأ الاكبر فى تقريره وجزمه بأن قومه لن يتوبوا ويرجعوا فيئس من دعوته لهم، وخرج مغاضباً منهم، باعتبار أن مصيرهم المحتوم هو مصير الاقوام المُستَأصَلِين السابقين، مثل قوم نوح وهود وصالح وغيرهم.

هؤلاء الأنبياء الذين لم يَقْدِر الله عز وجل عليهم الأرض، أى لم يُضيق عليهم الأرض، ونجاهم بعد هلاك أقوامهم من العذاب، ومن ثم ظن أن الله تعالى لن يهلكه مثلهم، ولن يُقَدِّر عليه العذاب.

ولو تذكر يونس عليه السلام أنهم لو تابوا لأوقف الله تعالى العذاب، بل لو تابوا يكشفه عنهم بعد أن يغطى رؤوسهم، لو تذكر هذا لما خرج، ولأستمر على أمل إستجابتهم، ولو فى اللحظة الأخيرة، أفليس فى خروجه مغاضبا منهم، الادعاء بعِلم ماذا سيكسبون غدا، إذ جزم عليه السلام إنهم لن يؤمنوا ولن يتوبوا؟ بلى فلو تذكر أنه لاتدرى نفس ماذا تكسب هى أو غيرها من النفوس غدا، لظل عنده احتمال توبتهم قائما، ومن ثم لم يكن ليخرج إلا بعد أن يأذن الله تعالى له بالخروج مخبرا إياه أنهم لن يؤمنوا، ولن يتوبوا ولن يرجعوا. لأن الذى يعلم ماذا ستكسب نفوسهم فى المستقبل القريب أو البعيد هو الله تعالى وحده. وكأن خطأ يونس عليه السلام هو ظنه أن كل ما أثبته الله تعالى من المقادير نافذ مقضى به لا محالة، والحقيقة الايمانية،

التوحيدية العظيمة تقول: ان الله تعالى قادر إذا شاء على أن يمحو المقادير أو يثبتها وقادر على أن يرد القضاء، حتى ولو اكتملت علله وأسبابه لأنه عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال إبن كثير (قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزُول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيِّهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وجأرت الانعام والدواب والمواشي، فرغت الإبل وفُصلانها وخارت البقر وأولادها وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم بحوله وقُوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد إتصل بهم سَبَبُهُ ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [يونس: ٩٨] أي هلا وجدت فيما سَلَفَ من القرون قرية آمنت بكاملها: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨][(١)] ومعنى كشفنا العذاب عنهم ،أي رفعناه من فوق رؤوسهم، كأنه صار كالغطاء عليهم من شدة قربه، فكشفه الله تعالى، وهذا يدل على أنه قد نزل وإكتملت أسباب حدوثه لولا أمر الله تعالى برفعه الذي هو كلمح البصر، وهذا يدل على أن إيمانهم سبق كشف العذاب مباشرة.

ولنا أن نتساءل: كيف ومتى إكتشف يونس عليه السلام خطأه؟! قال إبن كثير رحمه الله (والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبا بسبب ما كان من قومه حيال دعوته، ركب سفينة في البحر، فَلَجَّتْ بهم وإضطربت وماجت بهم، وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون.

قالوا: فاشْتَوَرُوا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من

(١) ابن كثير/ قصص الأنبياء ص٣٣٥.

السفينة ليتخففوا منه. فلما إقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضا، فشمَّر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك. ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضـا، لما يريده الله به من الأمر العظيـم. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٢] وذلك لما وقعت عليه القرعة أُلقىَ فى البحر، (وبعث الله عز وجل حوتا عظيما فالتقمه)(١)

وحسب هذه الرواية التى نسبها ابن كثير للمفسرين يظهر لنا أن سيدنا يونس عليه السلام أدرك خطأه، وإنتبه اليه لَمَّا إضطربت أمواج البحر وعلت، ومـا جت السفينة وأوشكت على الغرق، لانه لامصيبة ولا عـذاب إلا بذنب، ولعل يونس عليه السلام كان فى ظنه ـ حتى ركـب فى السفينة وقبل اضطراب الامواج ـ أنـه لن يقدر الله عليه الأرض، بناء عـلى ظنه أنه بـعيد عن المعـصية، هذا إحـتمال، ومن ثم يـكون الانذار بالغرق هو المنبه له على وقوعه فى معصية.

والإحتمال الـثانى: أن يكون الخبـر قَدْ وصل إليه قبـل ركوبه فى السفـينة، أو من أحد من ركابها أو أصحابها بأن أهل نيـنوى قد نجوا من العذاب، ومن ثم يكون أيضاً قد أدرك خطأه بالخروج من بين أظهرهم والتـوقف عن دعوتهم للتوبة والإيمان، ومن ثم يكون علـمه بنجاة قومه من العذاب هـو الذى ذَكَّره ولفت نظره إلى حقـيقة غفل عنها، وهى أنه قد أخطأ بنسيان قدرة الله تعـالى على إيقاف نفاذ القضاء حسب الأمر الصادر بالعذاب بأمـر آخر يوقف العذاب، وأنه لما أخطر قومه بنـزول العذاب عليهم بعد ثـلاث، كان يخبرهـم بما أظهره الله تـعالى على بـعض غيبه وأنـه قد خفى عـليه بالـنسبة لـقومه غيـب غيبـه، هذا الذى غفـل عنه ونـسيه من مـبادىء الإيمان بالـقدر والقضاء، فلما علم بنجاتهم أدرك أنهم تابوا، وأن خطأه تمثل فى وجهين:

الأول: حكمه بأنهم لن يتوبوا.

والثانى: نسيانه أن الله تعالى، اذا قبل توبتهم، أوقف قضاءه بالعذاب.

---

(١) نفس المصدر ص٣٣٧.

لقد خرج قوم يونس باطفالهم ونسائهم وبهائمهم يتضرعون إلى الله تعالى قبل أن يروْا العذاب فوق رؤوسهم ومالبثوا إلا قليلا حتى رأوا العذاب نازلا عليهم، فلم يقنطوا من رحمة الله تعالى، ولم ييأسوا من فضل الله تعالى، ولم يشكّوا فى قدرته بأنه قادر على أن يكشف العذاب حتى ولو بعد نزوله، فلما رأوْه ازدادوا تضرعا وبكاء وتذللا لله عز وجل داعين دعاء المضطرين آملين أن يكشفه الله تعالى عنهم غير يائسين من رحمته، ومن ثم يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] فهلا آمن أهل قرية من الأمم السابقة الذين اهلكناهم قبل معاينة مقدمات العذاب وظواهره (إلاَّ قوم يونس) أى هم فقط الذين آمنوا فى حال الإختبار قبل معاينة مقدمات العذاب وأسبابه وظواهره، تلك التى ألجأتهم إلى الإيمان والتوبة حين لا ينفع إيمان ولو توبة، لكن قوم يونس آمنوا قبل نزول العذاب، وخرجوا للتضرع إلى الله تعالى فإذا بالعذاب فوق رؤوسهم، ومن ثم لما كان منهم ذلك، كشفه الله عنهم وأبقاهم يتمتعون بالحياة إلى حين إنقضاء آجالهم الطبيعية(١)، ولاشك أن دعاءهم الاضطرارى بكشف العذاب يتضمن دليلا على إيمانهم بأن الله تعالى ـ إذا شاء ـ قادر على أن يوقف القضاء بعد نزوله، وهذا هو ما غفل عنه يونس ونَسِيَهُ فأخطأ، فأراد الله تعالى أن يعلمه خطأه بتجربة فى رد القضاء الذى إكتلمت أسبابه عليه هو، وهو القضاء بهلاك يونس فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض، مما يدل على إكتمال أسباب الموت والهلاك، كما لم تكتمل لكائن حى قبل يونس، فلما نادى فى الظلمات ربه سبحانه إستجاب له وكشف عنه الهلاك، وأوقف القضاء، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]. فالنجاة من الغم بالتوبة والمغفرة، وعلامتها

(١) تفسير الجلالين.

النجـاة من الهـلاك، وإلاَّ لظل يونـس فى بطن الحـوت إلى يوم الدين، مـع أنه من المرسلين، قـال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨]. فبعد أن إكتملت أسباب الهلاك ولم يبق إلا ظهور نتيجة الأسباب المجتمعة المكتملة بتحقيق القضاء أوقف الله تعـالى القضاء، فلما دعا الله عز وجل بقـوله (أن لا إله إلا أنت سبـحانك إنى كنتُ من الـظالمين) مُقراً بخـطئه عالما مـوقنا بما غفل عنه ونسيـه فى قومه، إذ كشف الله الـعذاب عنهم لما آمنوا وتَابوا، وصنع الله تعالى به مـا حقق نزول القضاء عليـه، واكتمال أسبـاب تحقيقـه فى نفسه، بانتهائه إلى بطن الحوت، لم ييأس يونس من رحمة الله، وأدرك ما قَدْ نساه وغفل عنه من قبل، وهو قـدرته سبحـانه على إيقاف القـضاء وكشف الهـلاك ورفع العذاب إذا شاء، فدعاه موقـنا فأستجاب الله له ونجاه من الغم وأمر الحوت فنبـذه على البر بجسد سقيم فأنبت عليه شجرة اليـقطين التى باطن أوراقها الكبيرة المستديرة ناعم، وظاهرها خشن ذا شوك دقيق فـأظلته من غير أذى لِجلْدِه فمنعت عنه الحـشرات، وغذته، حتى إستعـاد صحته ونجاه الله تعالى وعـاد إلى قومه، فى قول، وإلى غيـرهم فى قول آخر، فآمنوا فتلقوا منه الإسـلام والشريعة وفقه عبادة الله وحده، ومتـعهم الله بعد أن أَمَدَّ فى آجالهم، وبعـد أن كشف عنهم الهـلاك، وليس هذا لقوم يونس فـقط، وإنمـا هو لكل أمة تتوب إلـى الله عـز وجل، وترجع فإنه يمحوا الله تعالى عنـهم قدره بالعذاب، وإن تأخروا فى الإستـجابة حتى بعـد إثبات العـذاب، فإذا تابوا أوقفه وكشـفه عنهم حتى بعـد نزوله، وكذلك ليـست نجاة يونس عـليه السـلام له وحده، وإنما هى سنة لله عـز وجـل فى معاملة عباده المؤمنين.

روى إبن جرير بسنده عن سعيد بن المسيَّب قال سمعت سعد بن مالك ـ وهو سعد بن أبى وقاص يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إسم الله الذى إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به اعطى دعوة يونس بن متى، قال: فقلت: يا رسول الله هى ليونس خاصةَ أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به.

وعلى هذا لم يكن هذا الذى حدث من يونس ذنبا بقدر ما كان إجتهادا حكم به، فلم يصب، فيكون له عليه أجر، بيد أن هذا، إن كان يناسب العلماء، فللأنبياء مرتبة أعلى هى التى من أجلها صار إلى بطن الحوت ليتعلم أن الله تعالى قادر على إيقاف القضاء. وليس هذا مما يتنافى مع عصمة النبوة.

الفصل السادس

الوحى هو العنصر الثالث للنبوة

تعريف الوحى فى اللغة:

(الواو والحاء والحرف المعتل (أى الياء) أصل يدل على إلقاء علم فى إخفاء، أو غيره إلى غيرك)[1]. والوحى: الاشارة والكتابة والرسالة والالهام والكلام الخفى وكل ما ألقيتَه إلى غيرك يقال: وحَيْتُ اليه الكلام)[2]. وكل ما دللتَ به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة، فهو وحى، وزاد ابن حجر فى الفتح: (والوحى أيضاً هو الكتابة والمكتوب والبعث والالهام والأمر والإيماء والاشارة والتصويت شيئا بعد شىء وقيل: أصله التفهيم)[3].

تعريف الوحى فى الشرع:

عرفه ابن حجر فى فتح البارى بأنه: «الإعلام بالشرع»، وقد يطلق الوحى ويراد به اسم المفْعُول منه أى الموحى به إلى النبى وهو كلام الله المنزل على نبىٍّ من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

وقد جعل الإمام البخارى أول كتبه فى الصحيح عن الوحى وجعل عنوانه (كتاب

(١) ابن فارس/ مقاييس اللغة/ ٦: ٩٣.
(٢) لسان العرب/ ١٥: ٣٧٩.
(٣) العسقلانى/ الفتح/ ١: ٩.

بدء الوحى) وجعل أول أبواب هذا الكتاب بعنوان (باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ وقول الله جل ذكره ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]) ومن ثم تكون كيفية نزول الوحى على الأنبياء جميعا حتى خاتم النَّبِيِّين ﷺ واحدة حسب المفهوم من عنوان الإمام البخارى للباب.

(ومناسبة الآية للترجمة واضح من جهة أن صفة الوحى إلى نبيِّنا ﷺ توافق صفة الوحى إلى من تقدمه من النَّبِيِّين، ومن جهة أن أول أحوال النبيِّين فى الوحى بالرؤيا، كما رواه أبو نعيم فى الدلائل باسناد حسن عن علقمة بن قيس صاحب ابن مسعود قال: إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تَهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحى بعد فى اليقظة)[1]. فالرؤياء المنامية إذاً كيفية أولى من كيفيات الوحى، والثانية هى نزول الملك من عند الله تعالى بالرسالة الإلهية على النبى أو بكلام الله على الرسول، أما الكيفية الثالثة للوحى أو لإبلاغ الله تعالى رسالته للرسول فهى أن يكلمه الله عز وجل تكليما. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

ومن ثم تثبت هذه الآية أن الله تعالى، وهو سبحانه القدير على كل شيء، يكلم من يشاء من عباده بالكيفية التى تليق بجلاله، إلا أن البشر فى أحوالهم الدنيوية العادية لا يمكنهم ولا يستطيعوا، لضعف منهم هم، تلقى الكلام عن الله عز وجل أى من الله سبحانه وتعالى مباشرة، وهذا واضح من قوله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ...﴾ ثم ذكر سبحانه كيفيات ثلاث يمكن لعامة البشر وللرسل والأنبياء أن يتلقوا ويسمعوا من خلالها كلام الله عز وجل، الأولى منها لعامة البشر والثانية والثالثة للرسل والأنبياء.

الكيفية الأولى: وحيا وهذه يلحق بها الثالثة: لقوله تعالى فيها ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ وهما من باب واحد، لأن كلاهما وحى، وقد نَصَّ على أن

(١) العسقلانى/ الفتح/ ١: ٩.

الثالثة بواسطة رسول من الملائكة، ولم ينص على الأولى بأنها كذلك، والأولى وحى بدون واسطة الملك وهى الرؤيا المناسبة.

الثانيـة: وهى كلام الله تعالى للرسول أو النبى فـى اليقظة بدون واسطة، ولكن من وراء حجاب كـما كلَّم موسى ومحمـد صلى الله عليهما وسلم تكليـما وكذلك كلَّم آدم عليه السلام، ونبدأ بالثانية فى الآية وهى الكلام من الله للرسول من غير واسطة أو رسول من الملائكة، كـما كلَّم الله تعـالى موسى تكليمـا وسماع مـوسى ﷺ كلام ربه بكيفـية لا نعلمـها بدليل قـوله تعالى ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وهذه أعلى مـراتب اتصال الرب سبحـانه برسله وأنبيائه، وقـد وقع التكليم أيضاً لنبينا ﷺ فى المعراج كـما ثبت فى الصـحيح حيث مراجـعة مـوسى لرسـول الله صلى الله عليهـما وسلم اذ قـال له «فارجع إلى ربك فاسأله التخفيـف فرجعتُ فوضع عنى عشرا....» الحديث(١) ومما قاله ابن تيـمية رحـمه الله موضحـا المغايرة بين الوحى وبين التكليم من وراء حـجاب مفـسرا لقـوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٤] فقال مُعَقِّبًا [فُضِّلَ موسى بالتكليم على غيره ممَّن أوحى اليـهم، وهذا يدل على أمور: على أن الله يكلم عـبده تكليـما زائدا عن الوحى الذى هو قسيم التكليم الخاص، فإن لفظ التكليم والوحى كل منهما ينقسم إلى عام وخاص، فالتكليم هو المقَسوم فى قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ والتكليم المطلق هو قـسيم الوحـى الخاص ليس هو قسما منـه، وكذلك لفظ الوحى قد يكون عاما فيدخل فـيه التكليم الخاص، كما فى قـوله تعالى ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ وقد يكون قسيم التـكليم الخاص كما فى سـورة الشورى، وهذا يبطل قـول من يقول: الـكلام معنى واحـد قائم بالذات، فـإنه

(١) صحيح البخارى/ ك المعراج باب.

حينئذ لا فرق بين التكليم الذى خص به موسى، والوحى العام الذى يكون لآحاد العباد، ومثل هذا قوله فى الآية الأخرى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ فانه فرّق بين الايحاء وبين التكليم من وراء حجاب وبين ارسال رسول يوحى باذنه ما يشاء فدَل على أن التكليم من وراء حجاب كما كَلَّم موسى ـ أمر غير الايحاء][1] ومقصد ابن تيمية أن التكليم ليس نوعا من الإيحاء الذى هو النوع الأول (وحيا) والنوع الثالث ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ...﴾ ومن ثم يكون الوحى عنده هذين النوعين ويكون التكليم قسم خاص غير الوحى فى توصيل رسالة الله تعالى للأنبياء والرسل، ولا أوافقه على هذا، لأن كلام الله للنبى أو الرسول يكون أيضا من جنس الإعلام الخفى، فهو وحى بالمفهوم اللغوى، ومن ثم لا ينفرد كلام الله تعالى لمن يشاء من عباده تكليما مباشرا من وراء حجاب عن الوحى سواء منه بواسطة الملك المرئى للموحى إليه، أو بغير ملك مرئى للموحى إليه، بل هو وحى مباشر من وراء حجاب للرسل.

وهو وحى بالكلام دون الرؤية، لأنه من وراء حجاب، وهو بين الأول والثالث لأنه يدخل فيهما أحيانا كما سنرى باذن الله ومدده، ومن ثم سنحاول أن نذكر مراتب الوحى من أدنى إلى أعلى، إذ ثَمَّ وحى لغير الأنبياء والرسل فى مرتبة أدنى من وحيهم صلى الله عليهم وسلم جميعا.

أ. الخاطر:

الخاطر هو الدرجة الدنيا من الوحى وهو ما يقع لكل الناس، وهو من المعارف المباشرة للقلب حال يقظته، والخاطر هو ما يخطر على القلب من تدبير أو أمر، وهو لُغَةً الهاجس، وتعريفه: مرور معنى بالقلب بمنزلة خطاب مخاطب يحدث بضروب الاحاديث[2] ولا يكون الخاطر خاطراً إلا إذا كان من الله تعالى، لأن تلك التى تقابل الخاطر وترد على النفس من الشيطان هى النزغ الذى هو إغواء بالوسوسة، وأكثر ما يكون عند الغضب.

(١) مجموع الفتاوى مجلد ١٢ ص١٢٨ ـ ١٢٩.
(٢) الفروق اللغوية ص٦٠. لأبى هلال العسكرى.

والفرق بين النزغ الشيطانى والوسواس الشيطانى أن الأخير يكون بصوت خفى، لأن أصل الوسوسة الصوت الخفى غير المسموع بالاذن والمسموع بالاذن الباطنية أو بالقلب. أما النزغ فيدخل فى أصله الإيعاز بالحركة إلى الشر. قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ...﴾ [الإسراء: ٥٣] وعلى لسان يوسف عليه السلام ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠] فألقوه فى الجب.

وحيث ان الخاطر لا يكون الا بالخير فهو اذاً من الملاك، وليس من الشيطان، لذا فقد إعتبرتُه أول مراتب الوحى بمعنى الإعلام الخفى للصالحين من عامة الناس، والوسوسة هى الإعلام الخفى من الشياطين إلى أوليائهم من البشر أو إلى الذين يترددون بين الطاعة والمعصية.

ب.الإلهام:

جاء تعريفه فى اللغة بأنه (أن يلقى الله تعالى فى النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك، وهو نوع من الوحى يخص الله به من يشاء من عباده (أى من عامة عباده من غير الأنبياء).

(والإلهام ما يُلقَى فى الرَّوْع، وألهمه الله خيرا أى لقنه أياه)(١) ومن ثم فهو أعلى فى مراتب الوحى من الخاطر.

ويمكن القول بأنه إذا كان الخاطر لا يكون إلاَّ فى الخير، وهو يقابل الوسوسة فى الشر، فإن الالهام الذى لا يكون إلا فى الخير أيضا، يقابل النزغ فى الشر، لان الخاطر والوسوسة حديثان للنفس، أولهما من الملك والثانى من الشيطان ولا يشترط لهما أدنى أثر على الفعْل والسلوك. أما الالهام والنزغ فلهما إنبعاث فى النفس على السلوك الأولى للطاعة وللخير والثانى للمعصية والشر.

أما أصل الالهام فى اللغة فهو كما عرَّفه ابن فارس فى معجمه بأنه (أصل صحيح يدل على ابتلاع شىء، ثم يقاس عليه. ومن هذا الباب الإلهام، كأنه شىء أُلقى فى الروع فألتهمه).

(١) لسان العرب مجلد ١٢ ص٥٥٥.

ويميز شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الالهام المعرفى العلمى، والإلهام السلوكى العملى: الأول: يؤثر فى القلب ويغذيه بالعلم والظن والاعتقاد والفروض فى المجالات العلمية والنظريات أيضا.

أما الثانى فهو يغذى الإرادة بما يدفعها للاختيار وعقد العزم على الفعل.

قال شيخ الإسلام (والإلهام فى القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب، فقد يقع فى قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر للصواب، وقدْ يميل قلبه إلى أحد الأمريْن دون الآخر. وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر».

ويفهم من هذا النص لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن التحديث هو الالهام أو هما حالة واحدة للنفس المؤمنة. وهذا ما لا أوافقه عليه، اذ أرى أن التحديث أعلى مرتبة من الالهام، حيث يتم الإلهام بدون الاستماع إلى صوت متحدث بينما التحديث أو التكليم يتم بالصوت وبعبارة مسموعة وهذا هو المستوى الرابع من درجات الوحى. فالإلهام لعامة المؤمنين بينما التحديث للخاصة من أمثال عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

جـ. التحديث

روى البخارى فى فضائل الصحابة وكذلك مسلم عن النبى ﷺ أنه قال، (قد كان فى الامم قبلكم محدثون، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر)(١).

وأورد أيضا صاحب الفتح رواية أبى هريرة رضى الله عنه (قال: قال النبى ﷺ: لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكَلَّمُون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر) والمعنى أن المحدَّث يتلقى نصف الوحى الذى يتلقاه النبى حيث يسمع الكلام ولا يرى صورة الذى يحدثه ويكلمه من الملائكة(٢).

ويقسم شيخ الإسلام ابن تيمية الالهام والتحديث إلى ثلاثة أقسام إذ ناظر بين

---

(١)، (٢) البخارى: فضائل الصحابة باب ٦ وفى الفتح حديث ٣٦٨٩.

الرؤيا من ناحية وبين الالهام والتحديث من ناحية أخرى، وقاسهما على الرؤيا وقسمهما ثلاثة أقسام على منوال تقسيم الرؤيا. فقال (واذا كانت الرؤيا على ثلاثة أقسام: رؤيا من الله، ورؤيا من حديث النفس، ورؤيا من الشيطان، فكذلك ما يلقى إلى الإنسان فى حال يقظته ثلاثة أقسام: ولهذا كانت الأحوال ثلاثة: رحمانى وشيطانى ونفسانى. وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف ثلاثة أصناف: ملكى ونفسى وشيطانى، فإن الملك له قوة، والنفس لها قوة، والشيطان له قوة، وقلب المؤمن له قوة، فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل)(١).

وتفسير هذا أن الله عز وجل أذن لمملكة الشر الطاغوتية بخوارق للعادات والسنن شبيهة فى الظاهر بما يؤيد به أنبياءه ورسله وأولياءه والمؤمنين من معجزات وكرامات. فكما يوحى الله تعالى لأنبيائه ورسله يوحى الشياطين لأوليائهم قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٣].

وقال تعالى أيضا عن وحى الشياطين لأوليائهم ولبعضهم البعض ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وأذن الله تعالى لخلافة الشيطان بالسحر وغيره من خوارق السنن بجانب الوحى والنزغ والوسوسة وغير ذلك تحقيقا للابتلاء، فليس فى مملكة النور والحق أى عند خلفاء الرحمن خارقة إلا وفى مملكة الظلمات الطاغوتية ما يناظرها. وهذا يفسر ما قاله ابن تيمية من أن الوحى أو الرؤيا أو التحديث أو الخاطر أو الالهام جميع هذه المراتب للإعلام الخفى هى على قسمين رئيسيين إما رحمانية وإما شيطانية، وأضاف إليها حديث النفس أو رؤيا من النفس وهكذا تصير ثلاثة.

(١) مجموع الفتاوى مجلد ١٠ ص٦١٣.

والوحى الربانى يكون برسول من الملائكة يرسله الله تعالى إلى الرسول الآدمى لقوله تعالى ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أى رسولا من الملائكة يوحى باذن الله تعالى ما يشاؤه الله تعالى إلى النبى أو الرسول الآدمى، وهذا الوحى هو من جنس النوع الأول الذى أخبر عنه الله تعالى بقوله ﴿... إلاَّ وَحْيًا ...﴾ أى بالرؤيا المنامية، وذلك لأن الرؤيا المنامية الرحمانية للأنبياء والرسل والأولياء يجريها فى القلب ملاك مرسل من الله ومكلف بها وتكون واضحة صريحة مثل فلق الصبح، وليست رمزية تحتاج إلى تأويل أو تعبير أو تفسير مثل رؤية سيدنا إبراهيم بأنه يذبح سيدنا إسماعيل، قد علم أنها أمر من الله عز وجل.

وكثير من أنبياء بنى إسرائيل كانوا يتلقون كتبهم بهذه الكيفية من كيفيات الوحى أى وهو نائم، فاذا قام من نومه تذكر كل ما تلقاه فكتبه، أما تكليم الله تعالى للرسول من وراء حجاب كما كلَّم موسى وكلَّم آدم، فهو نوع من الإصطفاء، وهو دليل على أن الله تعالى يكلِّم من يشاء من عباده بما يشاء، فالتكلم من أفعال الله تعالى الذاتية، وهو سبحانه سيكلم عباده يوم القيامة بغير حجاب، لكن فى الدنيا من وراء حجاب لقول رسول الله ﷺ: «... ولن تروا ربكم حتى تموتوا....» ومن ثم يمكن القول أن بعض الأنبياء يتلقون كلام الله تعالى ﴿وَحْيًا﴾ أى بالرؤيا المنامية الواضحة الصريحة، كما كان هذا لبعض أنبياء بنى إسرائيل، وحيث قد فضل الله تعالى بعض النبيِّين على بعض، وفضل بعض الرسل على بعض، فمنهم من تلقى خبر السماء برسول من الملائكة كجبريل، ومنهم كلَّمة الله تعالى مثل موسى ﷺ، ومنهم من جمع الله تعالى له الكيفيات الثلاثة: الرؤيا والكلام والوحى بالرسول الملائكى مثل سيدنا رسول الله المصطفى ﷺ.

.الكيفيات التى يتلقى بها النبى أو الرسول من الملاك:

أورد الشيخ على المتقى الهندى فى كنز العمال نقلا عن الجامع الكبير للسيوطى قول النبى ﷺ عن كيفيتَيْن رئيسيتَيْن كان يتلقى بهما الوحى من جبريل عليه السلام وهو قوله (أحيانا يأتينى - يعنى الوحى - فى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علىّ،

فيفصم عنى، وقد وعيتُ ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول)[1]. وزاد الطبرانى فى آخره قوله ﷺ (وهو أهونه علىّ) وهذا الحديث ينص على كَيْفِيَّتَيْن يتلقى بهما النبى الوحى من جبريل عليهما السلام.

١ـ أمّا الكيفية الأولى فهى أن يتلقى النبى بقلبه من جبريل القرآن الكريم، فيكون النبى ﷺ فانيا عن بشريته باقيا بروحه، وكأن روحه ﷺ تنفصل أو تكاد عن آدميته، ولهذا تكون هذه الكيفية هى أشد الكيفيات على نفس النبى ﷺ بدليل قوله (مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ) ويثبت هذا أيضا ما رواه الأمام أحمد عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ (اسمع صلاصل ثم يسكت عنى ذلك، فما من مرة يوحى إلىّ إلاّ أنى ظننتُ أنّ نفسى تفيض)[٢].

٢ـ أما الكيفية الثانية فهى أن يتم التحول فى نفس جبريل أو الملك المنزل بالوحى فيتمثل فى صورة رجل من الناس ويكلم النبى ﷺ فيعى منه ما يقول وهذه الكيفية أهون من الأولى على نفس النبى صلى الله عليه وسلم.

وقد بين النبى ﷺ أن الذى ينزل به جبريل على قلبه وتتلقاه روحه لا يتفلت منه، أما الذى يتلقاه من جبريل كرجل لرجل فهو يتفلت منه لأنه ﷺ يكون فى حالته الآدمية التى من طبائعها النسيان؛ وهذا ما يدل عليه قوله ﷺ (كان الوحى يأتينى على نحوين: يأتينى به جبريل فيلقيه علىّ كما يلقى الرجل على الرجل، فذاك يتفلت منى، ويأتينى فى شىء مثل صوت الجرس، حتى يخالط قلبى، فذاك الذى لا يتفلت منى)[٣] فنبينا ﷺ قد تلقى الوحى بجميع الكيفيات حتى الثالثة، كما أن الله تعالى قد كلمة وحيا أى مناما، ومن وراء حجاب، وبارسال جبريل له، ولايشترط فى سائر الأنبياء أن يأتيهم الوحى بهاتين الكيفيّتيْن، بل كان النبى من الأنبياء لا يوحى إليه الا بالصوت فقط دون الصورة فيسمع صوت الملاك ولا يراه بدليل قوله ﷺ (كان النبى

---

(١) قال صاحب الكنز (رواه مالك وأحمد، والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن عائشة) كنز العمال حديث رقم ٣٢٥١ المجلد ١١.

(٢) عن كنزل العمال حديث رقم ٣٢١٥٠ المجلد الحادى عشر.

(٣) عن كنز العمال حديث رقم ٣٢١٥٥ وعزاه لابن سعد. المجلد الحادى عشر.

من الأنبياء مَنْ يسمع الصوت فيكون بذلك نبيًا، وإن جبريل يأتينى فيكلمنى كما يأتى أحدكم صاحبه فيكلمه)(١).

كما روى الطبرانى ومسلم فى صحيحه أنه ﷺ قال (.... يأتينى جبريل فى صورة دحية الكلبى)(٢).

٣ـ وثمة كيفيَّة ثالثة لتلقى النبى الوحى عن الملاك، وهى أن ينفث روح القدس فى روع النبى ﷺ ودليل هذه الكيفية قوله ﷺ (إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب)(٣).

وهذه الكيفية غالبا ما كانت لتلقى النبى ﷺ الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية والحديث وحى ثانى مع القرآن الكريم فهما وحيان.

أما عن تلقى جبريل الوحى من الله عز وجل لتوصيله للنبى فقد جاء فى هذا من خبر الوحى قوله تعالى ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وفى تفسير هذه الآية أورد السيوطى فى الدر المنثور الحديث الذى أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما أَوْحَى الجبار إلى سيدنا محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحى فسمعت الملائكة عليهم السلام صوت الجبار يتكلم بالوحى، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله؟ فقالوا الحق، وعلموا أن الله تعالى لا يقول إلاَّ الحق، قال ابن عباس رضى الله عنهما: وصوت الوحى كصوت الحديد على الصفا فلما سمعوا خروا سجدا فلما رفعوا رؤوسهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلى الكبير)(٤).

---

(١) كنز العمال برقم ٣٢١٥٤ وعزاه لأبى نعيم عن ابن عباس.

(٢) قال صاحب كنز العمال رواه مسلم فى صحيحه وهو آخر فقرة من حديث طويل كتاب الإيمان باب الإسراء وهو فى كنز العمال برقم ٣٢١٥٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) السيوطى/ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور مجلد (٥) ص٢٥٥.

وقال السيوطى أيضا: وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخارى وأبو داود والترمذى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات (عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان يفزعهم ذلك، فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الذى قال الحق وهو العلى الكبير، فيسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هكذا واحد فوق آخر. وصف سفيان بيده وفرج بين أصابعه، نصبها بعضها فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا وكذا فيُصَدَّق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء)(١).

وأورد السيوطى أيضا فى تفسير هذه الآية ما أخرجه ابن جرير وابن خزيمة وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ اذا أراد الله أن يوحى بأمر تكلم بالوحى، فاذا تكلم بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله تعالى، فاذا سمع بذلك أهل السماوات صُعِقُوا وخروا سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليهم السلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضى به جبريل عليه السلام إلى الملائكة عليهم السلام كلَّما مر بسماء سماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق وهوالعلى الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل عليه السلام ، فينتهى جبريل عليه السلام بالوحى حيث أمره الله من السماء والأرض)(٢).

وقد فسر كثير من السلف قوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى حتى إذا جُلِّيَ عن قلوبهم.

---

(١) المصدر السابق ص٢٥٦.

(٢) المصدر السابق ص٢٥٦.

وقوله فى الحديث (فينتهى جبريل عليه السلام بالوحى حيث أمره الله من السماء والأرض) أى ينزل به لتبليغه إلى من أمر الله تعالى جبريل بتبليغه إياه، إما إلى ملك من الملائكة فى السماوات، وإما إلى رسول أو نبى من الآدميِّين فى الأرض.

وعلى هذا فالوحى الذى هو أقوال ورسالة من الله تعالى يتلقاها جبريل أو غيره من الملائكة من الله عز وجل لتبليغها للنبى الآدمى لكى يبلغها بدوره إلى قومه، هذا الوحى الذى هو نور كما وصفه الله تعالى فى القرآن، وهو روح من أمر الله عز وجل ينزل على روح النبى أو الرسول هذا الروح الذى هو عنصر ومكِّون رئيسى من مكونات النبوة، بحيث يمكن القول بأنه كما أنه لا نبوة إلاَّ باصطفاء وعصمة، فانه لا نبوة البتة إلا بوحى من الله عزوجل.

الفصل السابع

المعجزة هى العنصر الرابع للنبوة فى الحياة الدنيا

١. حقيقة المعجزة وعلاقتها بقانون السببية:.

علمنا أن الله تعالى خلق الإنسان فى الحياة الدنيا للابتلاء،ومن ثم وتحقيقا للابتلاء، شاء الله تعالى أن تكون الاحداث وجريان الأمور وتحقق الاعمال التى يكتسبها الإنسان المبتلى فى هذه الحياة الدنيا من خلال الاسباب، فلا يستطيع أحد من الناس أن يحصل على نتيجة إلاَّ مِنْ خلال اكتساب أسبابها كاملة، يتساوى فى هذا المؤمن بالله عز وجل والكافر به. قال تعالى﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[الليل: ٥ - ١٠] وقال تعالى ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾[الاسراء: ٢٠].

وبناء على ذلك فإن القانون القائل بأن لكل معلول علة ولكل مفعُول فاعل هو ناموس كلى عام فى هذه الحياة الدنيا، فلا يتم حدث أو نتيجة أو فعل إلا بمقتضاه ، وهو ما يدركه الإنسان منذ نعومة أظفاره فينشأ متعوداً عليه متُعاملاً به بحيث أنه يصير مُوقنًا بأنه إذا عطش فلن يرتوى إلا إذا شرب الماء، وإذا جاع فلن يسد جوعه إلا تناول الطعام، وإذا أصابه البرد فلن يعيد إليه الدفء إلا البعد عن مصادر البرد

وارتداء ملابسه الشتوية، أمَّا إذا أراد أن يحصل على طعامه فلا مناص من زراعة القمح وسائر المواد الغذائية ،وكذلك تربية الماشية للحصول منها على اللبن واللحم وغير ذلك.

هذا فى هذه الحياة الدنيا بخلاف أصحاب الجنة فى الآخرة، وبخلاف ما كان لأبينا آدم وأُمِّنا حواء عليهما السلام فى الجنة قبل المعصية لقوله تعالى له ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾[طه: ١١٨ - ١١٩] وقال الله لآدم مُحَذِّرًا ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾[طه :١١٧]. وقد خرج فَشَقِىَ نتيجة الأخذ بالأسباب للحصول على النتائج المرجوة حسب سنة الله تعالى العامة فى هذه الحياة الدنيا، ولولا إيمان الناس جميعاً مشركهم وموحدهم بأن إحداث السبب يُمكِّن من الحصول على النتيجة، ما أقدم أحد على أى فعل، وقيام الناس باعمالهم كل فى مجال تخصصه يدل على إيمانهم بهذه السنة العامة أو الناموس الكلى فى هذه الحياة الدنيا.

فالجميع يؤمنون بأن حدوث المعلول يعقب حدوث العلة بصرف النظر عن كون العلاقة بين العلة والمعلول ضرورية وحتمية أم غير حتمية أى إقترانَّية فقط(١).

أما الكافرون المشركون والملاحدة الماديون فيقولون بأن العلة محدثه للمعلول، وأن الإنسان خالق لفعله، وهذا هو جوهر شركهم وحقيقة كفرهم.

أما المؤمنون الموحدون فيعتقدون بأن الله تعالى خالق العلة والمعلول والفعل والفاعل والمفعول، وأن العلاقة بين العلة والمعلول تتمثل فى الاقتران الزمانى بينهما، وكذلك العلاقة بين الفعل والفاعل، تتمثل فى كسب الفاعل للفعل الذى هو مخلوق لله تعالى ويقتصر دور الفاعلية الإنسانية على كسب الفعل فقط.

بَيْدَأن كثيرا من المؤمنين يغفلون عن هذا الحقيقه فى اكثر أحوالهم فيظنون أن العلة محدثة لمعلولها، وأن الفاعل منهم هو المحدث لفعله، وهذا من الشرك الخفى الذى حذر منه النبى ﷺ ولاينج منه الا العارفون بالله تعالى وعلاجه الإستغفار وهو لا ينفى كون العبد موحدا.

(١) المعتزلة قالوا إن العلاقة بين العلة والمعلول حتمية لأنها محدثة لها أما الأشاعرة فقد قالوا إنها إقترانية فقط وأن الله تعالى هو خالق العلة والمعلول مقترنا بها فى الأحوال العادية.

وفى فترات علو حزب الشيطان وزيادة الكفر، فإن إيمان الناس بالعلة المادية المحدثة لمعلولها يزداد، إذ يفسرون العلاقة بينهما بأنها حتمية، أى أنه إذا حدثت العلة الكاملة، فانه لابد ان يتبعها معلولها حتما. وإذا رأينا معلولا قد حدث فبالحتم والضرورة تكون علته قد حدثت كاملة، وهذا حق إلا أن الموحدين يؤمنون أن حدوث المعلول بإذن الله وخلقه له وليس بإحداث العلة للمعلول كما يعتقد الطبيعيون.

والمعجزة النبوية هى الفعل الذى يظهره النبى أو الرسول برهانا ساطعا ودليلا دامغًا وحجة بالغة على المكذبين له من قومه. ومن ثم جاء ذكر المعجزات التى أجراها الله تعالى على أيدى الرسل والأنبياء الكرام صلى الله عليهم جميعا وسلم باسم الآيات، لأن الآية هى الدليل وهى البرهان الذى لا يمكن ردّه أو دحضه أو ابطاله. وهى أيضا العلامة.

فمجيء لفظ «آية» للدلالة على معجزة الرسل يكون بمعنى العلامة والدليل والبرهان على صدقه، أى الحجة التى يؤيده الله بها أمام خصومه ومُكَذِّبيه، قال تعالى عن المعجزات التى قدمها المسيح عليه السلام لقومه كبرهان له على صدق نبوته ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٤٩] وقال تعالى عن آية موسى الكبرى لفرعون ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ - ٢١] وهذه المعجزة الكبرى لفرعون هى تحول العصا إلى حية. وفى موضع آخر نجد أن العصا إحدى تسع معجزات أرسل الله تعالى بها موسى ﷺ إلى فرعون وملئه فقال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠)

إلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[النمل: ٨ - ١٤]. فتحول العصا إلى حية وخروج يده من جيبه بيضاء من غير سوء آيتان أظهرهما الله تعالى لموسى وأخبره رب العزة أنهما ستكونان ضمن تسع آيات أى معجزات. ومع هذا لم يؤمنوا لموسى ﷺ ورموه بالسحر. لماذا؟ لأن السحر فى ظاهره خارق لقانون العلية، والمعجزة خارقة لقانون العلية.

فما من معجزة حسية لنبى أو رسول إلاَّ وهى إحداث معلول بدون علته المعتادة، أو إحداث العلة مع تخلف المعلول المعتاد حدوثها معها وبعدها، وفى هذا يكمن معنى الاعجاز، لأن كل الناس يمكنهم أن يكتسبوا المعلول بإحداث العلة المعلومة له، كما لا يمكنهم إحداث العلة دون حدوث المعلول رغما عنهم.

فيأتى النبى فيحدث معلولا من غير علته المعتادة أو بدون علة البتة، كما فعل المسيح بن مريم صلى الله عليهما وسلم بابراء الاكمه والأبرص بدون دواء، بل لم يكن لهما دواء معلوم للاطباء فى زمنه، وكذلك النفخ فى هيئة الطير الطينية فتتحول إلى طير حى هو أيضا معلول بدون علته المعتادة، حيث لا يُخلق هذا الطير إلا من أبوين ذكر وأنثى بفقس ا لبيض. وجميع آيات موسى عليه السلام التسع هى معلولات تحدث من غير عللها المعتادة، وناقة صالح عليه السلام أيضا معلول بدون علته الطبيعية لانشقاق الجبل عنها وخروجها منه.

وخروج ا لخليل ابراهيم صلى الله عليه وسلم من النار المتأججة سليما معافًا لم يصبه احتراق هو حدوث العلة مع تخلف المعلول أى الاحراق. فالنار لم تحرق لان الله تعالى أمرها ان تكون برداً وسلاما على ابراهيم فى حين أنها ليست كذلك على غيره.

وهكذا ليس من معجزة لنبى أو رسول إلا ونجدها حدوث علة مع تخلف المعلول أو معلول يحدث بدون حدوث العلة.

وذلك لأنه لا يقدر على خرق ناموس السببية العام الشامل فى هذه الحياة الدنيا الا الله عز وجل .

٢.التشابه الظاهرى بين المعجزة والسحر:.

وحيث أن السحر الذى هو إحداث معلولات بفاعلية الشياطين وكفرة الجن حسب تنظيمات وقوانين شرعها الطاغوت لمملكة الشر، بحيث تبدو هذه المعلولات بدون عللها المعتادة فيبدو حدوثها فى الظاهر أنها من خوارق العادات كالمعجزة النبوية ، فإن الشياطين يُلَبِّسون على الناس ما يجرى على أيدى الأنبياء من معجزات بدعوى أنها من السحر كما زعم فرعون بالنسبة لآيتىْ موسى عليه السلام: تحول العصا إلى حية وخروج يده من جيبة بيضاء من غير سوء، فقال عنهما إنهما من السحر. وكذلك زعم مشركو قريش بالنسبة لمعجزة شق القمر إلى نصفين التى اجراها الله تعالى على يد النبى الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾[القمر: ١ – ٣].

بَيْدَأَنَّ التباين بين المعجزة النبوية والسحر الطاغوتى واضح وصريح والاختلاف بينهما كما بين السماء والأرض، ولكن هذا التبايُن لأولى البصائر وذوى الالباب والأفَهام، لأن السحر تغيير أو تحويل يقتصر علَى ظواهر الأشياء وربما كان فى مخيلات الناس وأحاسيسهم ، وليس فى حقائق الأشياء، ولذا كان أول الذين آمنوا بإنقلاب عصا موسى إلى حيه تأكل ما يأفكون، هم السحرة أنفسهم، لأنهم يعلمون أكثر من غيرهم أن تأثير السحر ليس فى حقائق الاشياء، ولكن فى مخيلة المشاهدين، ومن ثم لا يكون هذا خرقا حقيقيا لناموس السببية العام الذى لا يقدر على خرقه والإحداث بخلافه إلا الله عز وجل. قال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الاعراف: ١٠٤ - ١٢٦] لقد علم السحرة أنَّ عصا موسى صلى الله عليه وسلم تحولت حيَّة حقيقية لما رأوْهَا تلقف حبالهم وعصيهم التى خُيِّل لموسى بأنها تسعى ، وما كانت فى الحقيقة تسعى، أو تتحرك من مكانها، فلما أدركوا أن العصا الجامدة الميتة قد صارت حية تسعى وتأكل، علموا أن حقيقتها تحولت وصارت كائنا حيًا بدون العلل المعتادة لوجود مثل هذا الكائن الحي.

وتلك هى المعجزة التى لا يقدر عليها الا الله عز وجل خالق السماوات والارض والانس والجن وكل شئ. فكأن المعجزة رسالة عملية من الله تعالى للناس الذين يشاهدونها تقول لهم : حيث أنه لا يقدر على خرق السنن المعتادة فى العقل والاثر والخلق والإحياء والإماتة إلا الله عز وجل ، وحيث أن هذا الذى يخاطبكم يزعم انه رسول منى، وحيث اننى لا أترك رسلى دون أن أؤيدهم بمعجزات هى خوارق للسنن يعجز الانس والجن وكل الخلق أن يأتوا بمثلها ، لذا فها أنذا الخالق أحدث

على يدى رسولى هذه المعجزة الخارقه لقانون السببية لتعلموا أنه رسولى إليكم حقا وصدقا.

٣. تعريف المعجزة عند بعض العارفين العلماء:

أورد الشيخ النبهانى فى سفره القيّم «حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين» قول القاضى أبى الحسن الماوردى رحمه الله تعالى فى كتابه «اعلام النبوة» عن المعجزة فقال(وإذا كانت حجج الأنبياء على أممهم هو المعجز الدال على صدقهم فالمعجز ما خرق عادة البشر من خصال لا تُستطاع إلا بقدرة إلهية تدل على أن الله تعالى خصَّه بها تصديقا على إختصاصه برسالته فيصيردليلا على صدقه فى إدعاء نبوته إذا وجد ذلك منه فى زمان التكليف... وانما أعتبر فى المعجز خرق العادة لان المعتاد يشمل الصادق والكاذب فاختصٍّ غير المعتاد بالصادق دون الكاذب...)(١). ثم أورد الشيخ النبهانى رحمه الله ما كتبه سيدى العارف بالله الشيخ عبدالوهاب الشعرانى عن المعجزة فى كتابه «اليواقيت والجواهر» فقال: (إعلم أن الحق تعالى ما أرسل الرسل إلا ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم، وذلك أنه ما بعث رسولا إلا فى زمن حيرة وتردد بين التنزيه والتشبيه بعقولهم، فمنٍّ الله تعالى بأن أقام لهم شخصا ذكر أنه جاء إليهم من عند الله تعالى برسالة يزيل بها حيرتهم، فنظروا بالقوة المفكرة فرأوْا أن الأمر جائز ممكن فلم يقدموا على تكذيبه ولارأوْا علامة تدل على صدقه، فوقفوا وسألوه ، هل جئت بعلامة من الله تعالى يُعَرف بها صدقك فى إرساله لك، فانه لافرق بيننا وبينك إلاَّ ذلك؟ فجاءهم بالمعجزة، فمن الناس من آمن ومنهم من كفر وما أيَّد الله جميع رسله بالمعجزات الباهرات إلاَّ تأسيساً لانقياد قومهم لهم إذ من شأن البشر أن لاينقاد لبعضه بعضا إلاَّ بظهور برهان. وقد حدَّ جمهور الأصوليِّين المعجزة بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة من المرسل إليهم ،بأن لا يظهر منهم ذلك الخارق والمراد بالتحدى هو الدعوى للرسالة)(٢).

---

(١) الشيخ النبهانى / حجه الله على العالمين.../ ص ٨.
(٢) الشيخ النبهانى / حجه ا لله على العاملين ص ٨.

ويتابع الشيخ النبهانى سرد ما جاء فى اليـواقيت والجواهر للشيخ الشعرانى فيقول رحمه الله (ثم قال رضى الله عـنه، ورأيت فى كتاب سراج العقول للـشيخ أبى طاهر القزويـنى رحمه الله مـا نصه: إعلم أن الـبرهان القـاطع على ثبـوت نبوة الأنبـياء هو المعجـزات، وهى فعل يخلـقه الله خارقا للعـادة على يد مدعى الـنبوة معترفـا بدعواه وذلك الفـعل يقوم مـقام قول الله عز وجل : أن رسـولى تصديقـا لما إدعاه. مثـاله قام إنسان فى ملأ من الناس فى حضرة ملك مـطاع فقال: يا معشر الحاضرين أنى رسول هذا الملك وإن آية صدقى أن الملك يقوم ويرفـع التاج عن رأسه فيَقوم الملك فى الحال ويرفع التـاج عن رأسه عقب دعوى هـذا المدعى، أليس ذلك الفـِعل منه يتنـزل منزلة قوله: صدقتَ أنت رسولى[1].؟!

٤.الفرق بين المعجزة والكرامة:

المعجزة للنبى يتـحدى بها أن يأتوا بمثلها تصديقا لدعوى نـبوته، أما الكرامة فهى للولى، ويشتركان فى أنهما من خوارق الـعادات لكنها للولى تكون لمخرج من مأزق أو رزقاله فـى حال العوز مـن حيث لا يحتـسب أى من حيث لا يـتوقع أن يأتـى منه رزق.

وفى كـتاب النـبهانـى ما يُمَيِّز به الشـيخ الشـعرانى رضـى الله عنه بـين المعـجزة والكرامة بقوله (والفرق بين المعجزة والـكرامة أن المعجزة تقع مع التحَّدى أى دعوى الرسالة، والكرامة لا يتحدى بها الولـى، وحقيقة ذلك أن الولى إذا أدعى بفعل خارق للعادة أنه ولى، فإنَّ ذلك لايقدح بمعجزة الـنبى، بخلاف ما اذا أدعى بمثل ذلك الفعل الآن على أنه نبى، فإنه يكذب فى دعواه، والكـاذب لا يكون وليًا لله تعالى فلا يصح ان يظهر على يديْه ما يظهر على أيدى الأنبياء والأولياء)[2].

٥.الفرق بين المعجزة وبين السحر والشعوذة:

كما قـلنا المعـجزة خرق حقـيقى لسـنن الحياة والموت، وتَـغَيرُّ الاشيـاء، وحدوث معلول أو نتيجة حقيقية من غير علتهـا المعتادة أو العكس، أما السحر فهو تأثير نفسى

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

على المشاهد بالجن وليس تحويلا فى حقائق الاشياء والأحياء والسنن والشعوذة اكثر خداع للرائى بحيل أو بالجن والكهانة.

وأضاف سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى كتابه فروقا أخرى بين المعجزة والسحر أن المعجزة تبقى هى وأثرها بعد النبى زمانا، والسحر سريع الزوال والمعجزة يظهرها النبى على رؤوس الاشهاد وعظماء البلاد. أما السحر والشعوذة انما يُرَوِّجُ إمرها على الصغار وضعفاء العقول وجهلة الناس.

٦. الفرق بين المعجزة والكهانة:

الكاهن كالساحر من جنود مملكه الشر الابليسة الطاغوتية والكاهن من جنود هذه المملكة الخبيثة، والكاهن يزعم أنه يعلم غيب المستقبل وهو ليس له من مصدر لهذا سوى كلمة حق يخطفها من الجنى الذى يسترق السمع من السماء ويضيف إليها مائة كذبة. ولهذا فنبوآته صدق قليل يكسب به ثقة العامة وكذب كثير يخدعهم به ، وكذلك حال المنجمين. وحيث أن من معجزات النبوة التنبؤ بالغيب ومعرفه المستقبل فإن عمل الكاهن يشبه فى الظاهر هذه الوظيفة النبوية، إلاَّ أن أقوال الانبياء كلها حق وصدق وعدل وخير وبر، فى حين أن أقوال الكهان صدق قليل وكذب كثير وهو لا يأمر بخير ولا ينهى عن شر، بل ر بما أمر بالشر ونهى عن الخير. وكل كاهن معه شيطان جنى يسترق له السمع فهو يتلقى منه فى حين أن النبى يتلقى من الله عز وجل وحيا أو يكلمه الله تعالى من وراء حجاب أو عن طريق رسول من الملائكة.

فشتان بين الذى يستمد من شجرة النبوُّة النورانية المباركة وبين من يتلقى من الشجرة الخبيثة الملعونة فى القرآن شجرة الطاغوت الظلماتية.

الفصل الثامن

الآدمية هى العنصر الخامس للنبوة فى الحياة الدنيا

اولا: الآدمية ومترادفاتها فى القرآن الكريم والسنة:.

النُبوَّة حقيقة إنسانية قبل أن تكون حقيقة بشرية، ومع هذا فهى ظاهرة من ظواهر الحياة الآدمية، لأن النبوة فى هذه الحياة الدنيا هى الكمال المقَّدر للنوع الآدمى متمثلا فى بعض أفراد الإنسان.

والإنسان هو هذا النوع من الخلق الذى جاء نداؤه فى القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[الاعراف: ٣٥ - ٣٦] وجاء نداؤه أيضا بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار:٦ - ٨] وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦] وجاء نداؤه أيضا بقوله تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[الرحمن: ٣٣] وجاء ذكره أيضا فى القرآن الكريم باسم البشر قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[الروم: ٢٠].

فهى خمسة أسماء إذاً لهذا النوع هى : بنو آدم والإنسان والإنس والناس والبشر. هذه الاسماء ا لخمسة، وإن دلت على مخلوق واحد، إلاً أن لكل منها دلالة خاصة ومعنى خاص بالنسبة لهذا المخلوق، يختلف عن معنى الأسماء الأخرى، فلكل منها مفهومه الخاص، ومن ثم فبين كل واحد منها وبين الأربعة الأخرى فروق فى الدلالة والمعنى والمفهوم، مع أنها تصدق جميعا على مخلوق واحد، وتعليل هذا هو أنَّ (إختلاف الأسماء يوجب إختلاف المعانى فى كل لغة)(١). وما يهمنا فى هذا المقام الصلة بين مفهوم لفظ الإنسان ولفظ البشر فى القرآن الكريم باعتبارهما عنصرين جوهريِّين عند بنى آدم ،لأن ألفاظ القرآن الكريم المكررة مصطلحات علمية دقيقة تتوافق مع معانى الالفاظ فى اللغة العربية التى نزل بها القرَآن من جهة، ومن جهة أخرى فهى تحمل من الدقة فى تَحْدِيد المعنى، وفى الاستخدام الذى يتطابق مع هذا المعنى، ما يجعلها مصطلحات علمية، لا نجد أدنى مخالفة فى استعمالها حسب هذه المعانى المحددة لكل منها، ولو فى آية واحدة .ولفظا إنسان وبشر إسمان قرآنيان يدلان على ما أقول، اذ يُعُد كل واحد منهما مصطلحاً علمياً دقيقا له معناه المحدد فى جميع الآيات الكريمة التى ورد فيها.

ومادامت حقيقة النٌبوة ظاهرة من ظواهر الحياة الآدمية والتاريخ الإنسانى، ومادامت هى مفُهوم الكمال الإنسانى والبطولة الإنسانية فى عقيدة الإسلام، فإنه يكون من الواجب علينا فهم حقيقة الإنسانية وحقيقة البشرية، لأنهما المكّونان الجوهريان للحقيقة الآدمية، أما لفظ الانس ولفظ الناس فتدلان على الطبيعة الاجتماعية للآدميِّين بدليل قوله تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنس﴾ فالاجتماعية للجن والانس معا ، وكذلك لفظ الناس والأنَاسِيٍّ هى من الانس والمؤانسة فهى أسماء تحمل دلالة الطبيعة الاجتماعية عند بنى آدم.

ثانيا.مصطلح البشرية فى القرآن الكريم:

إذا تَّدبرّنا الآيات القرآنية الكريمة التى تتضمن كلمة بشر يمكن أن نستنبط منها معنى محدداً لهذا اللفظ هو:

(١) ابو هلال العسكرى / الفروق اللغوية ص ١٠.

البشرية هي الصفات والأحوال والخصائص الجسدية الحيوية (البيولوجية والفسيولوجية) عند بني آدم.

مثل نشأة الجسد من الطين، وتكونه من أعضاء مختلفة، لكل عضو وظيفته الخاصة التي يشارك بها هذا العضو في الوظيفة العامة للجسد الحي، وهي إستمرار الحياة، فالقلب يضخ الدم في العروق، والرئة تستخلص (الاكسوجين) وتتخلص من (ثاني اكسيد الكربون)، والمعدة تهضم الطعام والإمعاء تمتص عصارته، وللكبد وظيفته في هذا كله وكذا سائر أجهزة الجسم ... وهكذا جميع الكائنات العضوية متشابهة من هذا الوجه، وهذا كله من الخصائص البشرية، ومن البشرية أيضا أحوال الكائن الحي، وهي الكيفيات التي تصاحب الحياة والتي يعتبر أي خلل فيها بالزيادة أو بالنقصان دليلا على المرض، كدرجة حرارة جسم الانسان وضغط الدم ودرجة سيلانه... وغير ذلك. ومن البشرية أيضا خصائص الكائن الحي التي يتميز بها عن جميع الأحياء الأرضية، وعن النبات أو عن الجماد أو غير الاحياء: مثل التغذي والنمو والاحساس والحركة والتناسل والموت، إذ أن حتمية الموت هي خاصية الاحياء الأرضية جميعا.

ومن خصائص البشرية إختلافهم إلى نوعين: ذكر وأنثى، وجعل كل نوع منهما محتاجا إلى الآخر، وهو أمر يشترك فيه كل الأحياء، بما في ذلك أكثر النباتات.
والآن: هل خرجت إستعمالات لفظ «البشر» في القرآن الكريم عن هذه المعاني، أو عن المعنى المحدد لهذا المصطلح ، أم أنها جميعا إلتزمت به وجاءت موافقه له. ؟!
بالنسبة لحقيقة الموت وهي الحقيقة الاولى، والمؤكدة لجميع الاحياء وللبشر بخاصة قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾(١) فقال في الآية «لبشر» ولم يقل لإنسان لأن الإنسان كما سنعلم مخلد في الجنة او في النار، فالخلود في الآخرة حالة إنسانية لبني آدم وليست خاصية بشرية.

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾(٢).

---

(١) الانبياء / ٣٤.   (٢) الفرقان / ٥٤.

وقال تعـالى ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾(١) والمـاء والتراب يكونان معا الطين الذى هو أصل البشرية عند الآدميين. قال تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون﴾(٢) وقال تعالى ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين﴾(٣).

وبالنسبـة إلى التناسل قال تعـالى يقص علينا رد مـريم عليها السلام حـين بشرها الروح بعيسى عليه السلام ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾(٤) ومثلها قوله تعالى ﴿ قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا﴾(٥) فقول السيدة مريم عليـها السلام فيه إشارة إلى سـنة الله تعالى فى إنجاب الأولاد عن طـريق إلتقاء الذكـر بالانثـى: إما بالزواج، وإمـا بالزنـا، ففيـه إشارة إلى الـغريزة الجنسية وسـبل الإستجابـة لها وما ينتج عـنها من الولد، وهذا من الخـصائص البشرية عـند بنى آدم، ومن ثم قالت«لم يمسسنى بشر» ولم تقل «ولم يمسسنى إنسان».

وبالنـسبة للتـغذى كضرورة لاستـمرار الحياة ، قـال تعالى عن إحـدى الأمم التى أستأصلها من الأرض لكفرها وفسادها ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون (٣٣) ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴾(٦) فالبـشرية إذا مجـموعة خصائص فـى بنى آدم ترتبط بـالجسد أوثق إرتباط، ومـن ثم فهى من الأصل الـطينى الذى يفتقر إلى ما يـخرج من الطين؟ من الطعام والغذاء لاستمـرار الحياة فيه، لذلك جاءت كلمة بشر فى الآية التى تضمنت وصف الرسل بحاجتهم الى الطعام.

كذلك تشير كلمة «بشر» فى أصلها اللـغوى إلى ظهور الإنسان للعيان متمثلا فى جسد يغطيه ويرى منه جلده الذى هو بشرته.

قال إبن فارس فى معجم مقاييس اللـغة [الباء والشين والراء أصل واحد: ظهور

(١) الروم / ٢٠.
(٢) الحجر / ٢٨.
(٣) ص / ٧١.
(٤) آل عمران / ٤٧
(٥) مريم / ٢٠.
(٦) المؤمنون / ٣٣ - ٣٤.

الشئ مع حسن وجمال. فالبَشَرة ظاهر جلد الانسان ومنه باشر الرجل المرأة، وذلك بإفضائه ببشرته إلى بشرتها. وسمى البشر بشرا لظهورهم. والبشر حُسْنُ الوجه. والبشارة الجمال][1] ومن ثم فالبشرية مشتقة من البَشَرة التى هى اسم لظاهر البدن البشرى وهذا واضح من قوله (وسمى البشر بشرا لظهورهم).

ومن ثم قال عيسى بن مريم عليه السلام وهو فى المهد لأمه ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾[2] وكذلك لهذا المعنى تمثل الروح فى آدمى لمريم عليها السلام فى قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[3] أى كائنا يبدو للناظر اليه أنه بشر له بشرة الآدميين وليس هو فى الحقيقة بشرا.

ولما كان الاحساس بالألم الشديد يحدث من إحتراق الجلد أى البشرة الظاهرة من بنى آدم [4] فقد جاء ذكر لفظ «البشر» عند وصف حرق النار لاجسادهم مناسبا، لأن النار، عندما تلفح الجسد الآدمى، والعياذ بالله، فإنها تلفح أول ما تلفح بشرتهم، وتحرق أول ما تحرق فيهم جلودهم[5] وتلك من خصائص البشرية. قال تعالى ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[6] ثم قال تعالى بعد ذلك ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[7] لأن عذاب النار والتحذير منه أوقع فى النفس إذ يكون على البشر من القول أنها ذكرى للإنسان أو لبنى آدم أو للناس أوللإنس لأن وقع ألم النار يكون على بشرة الآدميين والبشرة من أولى الخصائص البشرية.

وكذلك مثلها قوله تعالى عن النار أيضا ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾[8]

---

(١) ابن فارس / معجم مقاييس اللغة حـ١ ص ٢٥١.

(٢) مريم / ٢٦. (٣) مريم / ١٧.

(٤) لاشتمال سطح الجلد أى البشرة على أعصاب الإحساس بآلام الحريق نعوذ بالله تعالى من عذاب النار.

(٥) قال تعالى ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]. وفى هذا دلالة على أنه بذهاب جلودهم ينتهى إحساسهم بالإلم لذهاب اعصاب الاحساس بألم الاحتراق. فعذاب النار مرتبط بالبشرة أى الجلد.

(٦) المدثر/ ٢٨ - ٣٠.

(٧) المدثر / ٣١. (٨) المدثر / ٣٥ - ٣٦.

فكان ذكر البشر فى الآية هنا فيه تذكير للناس بأن طبيعتهم البشرية قابلة لإحتراق البشرة والجلود التى بها الاحساس بآلام لهيبها.

وهكذا نجد أن البشرية دون الانسانية فى بنى آدم من حيث أنها لصيقة بجسده ويمتد أصلها فى الطين.

ومن ثم فإن كلمة بشر تأتى أيضا فى الموضع الذى يكون موضوع الآية الرئيسى هو بيان الدونية فى الطبيعة الآدمية، أو عندما يكون هدف المتحدث الحط من شأن بنى آدم، فعندما أراد إبليس أن يبرر رفضه السجود لآدم لم يذكر شيئا عن إنسانيته، بل ذكر بشريته وأصلها الطينى ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾(١) فَخَصَّ بالذكر هنا بشرية آدم مع أصل خلقته الطينية تجاهلا منه ـ لعنه الله تعالى ـ لما ميَّز الله تعالى به آدم من خصائص عليا يُرتفع بها من مستوى البشرية إلى مستوى الإنسانية.

علما بأن الله عز وجل لم يأمر إبليس والملائكة بالسجود لآدم البشر فقط، وإنما أمرهم بالسجود لآدم البشر الإنسان، لأن الأمر بالسجود جاء بعد نفخ الروح فيه وتعليمه الاسماء .

ونجد مثل هذا الموقف الحاقد من إبليس على آدم هو نفسه موقف المكذبين بالرسل فى كل زمان ومكان. وهو موقف أحد أئمة الكفر فى مكة المكرمة الوليد بن المغيرة المخزومى الذى إفترى على القرآن الكريم حسداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أَقَرَّ بأنه كلام رب العالمين، ثم رجع عن ذلك إستكباراً وحقداً فقال ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(٢) فذكر البشر هنا إمعانا منه فى نَفْى ما يخص القرآن الكريم من إعجاز لا يستَطيعه البشر، فقوله إنه من قول البشر، إنما هو للتأكيد على أن القرآن الكريم من الكلام العادى وليس من كلام رب العالمين، أى أنه إمعان فى التكذيب والإنكار.

فالبشرية من الخصائص الآدمية التى يَسْتَحْيى منها الإنسان ويخجل منها. كالأكل والشرب والنوم والمعاشرة الجنسية وقضاء الحَاجة، والجسد الآدمى به من العورات البشرية ما يخجل الإنسان من كشفها أمام غيره من الناس. وهذا كله يدل على أن

(١) الحجر / ٣٣.   (٢) المدثر / ٢٥

هذه الخصائص من صفات النقص عند بنى آدم، إذ بالرغم من أنهم جميعا يتّصفون بها، إلا أنهم يخجلون منها ويستحيى الواحد منهم أن يظهرها أو يزاول هذه الحاجات أمام غيره، فالبشرية ليست من النبوة كما أن النبوة ليست من البشرية، بل هى غيرها وسابقة عليها ومستقلة عنها، وان كان من البشر أنبياء، وسيأتى بيان هذا باذن الله تعالى، لذلك يجئ ذكر البشرية فى الرد على مواضع التكبر والعلو عن مقام العبودية عند الإنسان قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(١) فاثبات بشريتهم هو أنفى لقولهم أنهم أبناؤ الله وأحبّاؤه، الأمر الذى يساويهم مع سائر الناس من حيث أصل الوجود وأحواله، ومن حيث تعلق مصيرهم بعملهم فى الدنيا.

وكذلك يكون ذكر البشرية أصوب وأدق وأكثر مناسبة من ذكر الإنسانية حين يكون موضوع الآية نفى الألوهية عن النبى أو إثبات عبوديته لله تعالى ككل الآدميِّين قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٢) فذكر بشرية النبى فى هذا الموضع أكثرتأكيداً فى معرض نفى هذا الإفتراء بالتأله عليه من ذكر إنسانيته.

وعلى هذا فان البشرية هى الخصائص الحيوية عند بنى آدم، تلك التى أصلها الطين، وهى تلك الخصائص والأحوال التى يوجد نظير لها عند الأحياء الثَّديِيَّة والتى هى مصدر كل نقص عند الآدمى يخجل منه.

ثالثاً. مصطلح الإنسانية فى القرآن الكريم:

إذا تَدَبَّرنا الآيات التى وردت بها كلمة «الإنسان» يمكننا أن نستنبط منها تعريفاً للإنسانية بأنها (مجموعة الخصائص والصفات والأحوال والإمكانات والمواهب

(١) المائدة / ١٨. (٢) آل عمران/ ٧٩ ـ ٨٠.

العليا التى ميَّز الله تعالى بها بنى آدم وكرمهم وفضلهم بها على سائر الكائنات الحية الأخرى). ومن ثم فلا يوجد نظائر للخصائص الإنسانية عند غير الإنسان من أحياء الأرض والسماء، أى ولا الملائكة.

لقد وردت كلمة إنسان فى خمس وستين آية كريمة تفيد جميعها ما يخص الإنسان دون غيره من أحياء الأرض والسماء.

أول هذه الخصائص وأهمها الإبتلاء، إذ هو ـ أى الابتلاء ـ الحكمة التى من أجلها خلق الله تعالى الإنسان قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(١) تتضمن هذه الآية الكريمة حقيقة الابتلاء، وهى الحكمة التى من أجلها خلق الله تعالى الإنسان، ومن ثم جعله سميعا بصيرا، كما جعله مختاراً بين سبيلين: سبيل الشكرو سبيل الكفر. فالحرية والاختيار من خصائص الإنسانية. لذا قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ ولم يقل «البشر».

والعلم مما يتميز به الإنسان، وهو محل فخر لأنه صفة كمال، وليس مما يعيب أو يلحق به النقص، كبعض خصائص البشرية قال تعالى ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٢) فالعلم خاصية إنسانية وليس خاصية بشرية. كذلك البيان: الفن والشعر والأدب قال تعالى مقرراً ما يفيد أن القرآن الكريم، وهو البيان المعجز، هما مما خص الله تعالى به الإنسان من الفضل العميم والنعمة العظمى ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(٣) والنظر الذى هو المنهج الصحيح للعلم هو أيضاً من الخصائص الإنسانية قال تعالى ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾(٤) فهذه دعوة للنظر والبحث عن كيفية إستخراج الله تعالى رزق الإنسان والأنعام من الأرض بالماء اذ فيها أصول علم النبات.

(١) الإنسان / ٢ - ٣.
(٢) العلق / ٥.
(٣) الرحمن / ١ - ٤.
(٤) عبس / ٢٤ - ٣٢.

فـالنظر منهج العلم وهو للإنسـان دون غيـره قال تعـالى ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَـانُ مِمَّ خُـلِـقَ﴾[1] وكذلك رؤية الحقيـقة إنما هى نتيجة لعمليـة إستنباط وتفكر وتدبر، وهى نشاط إنسـانى وليست نشاطا بشريا، قـال تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[2] فالذى يرى الرؤية العقلية الاسـتنباطيه وهو الانسان وليس البـشر لذا قـال ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإنسَـانُ﴾ ولم يقل أو لم ير البشـر. ومعرفة الحقـيقة من الاحداث السابقة أو من السنن الجـارية هى أيضا من الأمور المعرفيه فـهى إنسانية قال تعالى ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[3] ومما يتميز به الإنسان عن جمـيع الخلق الجدل قـال تعالى ﴿وَكَانَ الإنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[4]. حـتى الكفـر والجحود هو من خصائص أو من أعمال الآدمى باعتباره إنساناً، إذ هو نتيجة للإبتلاء والاختـيار قـال تعالى ﴿إِنَّ الإنسَـانَ لَكَفُـورٌ﴾[5]. وقـال تعـالى ﴿إِنَّ الإنسَـانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[6] وقال تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[7].

وهكذا تتميز الإنسانية عن ا لبشـرية باعتبار الأولى خصـائص عليا عند بنى آدم، وإن كانتا ـ أى البشرية والإنسانيـة ـ طبيعتيْن ممـتزجتَيْن فى الذات الآدميـة الواحدة، فالآدمية طبيعة واحدة ذات قوتين: عليا وهى الإنسانية، ودنيا وهى البشرية.

رابعا.النبوة بين البشرية والإنسانية:

لم يرسل الله تعالى رسولا ولم يبعث نبياً إلاَّ آدميا أى إنسانا بشرا، لكن النُّبوة التى يتمثل فيهـا بوضوح الكمال الأدمى، هى مجموع خصائص البشـرية والإنسانية معا، أى أن كمال الذات الآدمية هو مما ينتمى للخصائص والأحوال الإنسانية، وذلك لأن كمال الإنسانية فى الذات الآدمية يفيد كمال البشرية، ولكن كمال البشرية لا يتضمن

(١) الطارق / ٥
(٢) يس / ٧٧.
(٣) مريم / ٦٧.
(٤) الكهف / ٥٤.
(٥) الحج / ٦٦.
(٦) ابراهيم / ٣٤.
(٧) العلق / ٦ - ٧.

بالضرورة كمال الإنسانية ، فكم من بطل فى كمال الاجسام وهو كافر كالبهيمة. وكم من عاجز بدنيا ، وبلغت إنسانيته العنان بإمتلاء قلبه نورا وحكمة وعقله علما.

ومن ثم قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(١) ولا شك أن على رأس الذين آمنوا وحافظوا على تقويمهم الأحسن و الأكمل والأتم هم الأنبياء والرسل. وحيث قَدْ ورد لفظ الإنسان فى هذه الآية، فإن النبوة تكون خاصية إنسانية خص الله تعالى بها من اصطفاهم من الآدميِّين البشر.

إن الأنبياء يتميزون على سائر البشر الآخرين بالاصطفاء وبالعصمة وبالوحى وبالمعجزة ، ولكن ليست هذه جميعاً هى فقط المكونات لحقيقة النبوة، إذ تعتبر الآدمية مكونا فيها.

ولا شك فى أن كل الاقوام قد إعترضوا على رسلهم بسبب بشريتهم، ولكن كل الرسل ردوا عليهم مُؤكدين بشريتهم ومثبتين و موضحين إصطفاء الله تعالى لهم للنبوة والرسالة، أى أن النبوة التى لا ينالها أحد من البشر الاَّ بإصطفاء الله تعالى من يشاء من عباده لينزل عليه وحيه الذى هو حقيقة مضافة للآدمية تَمتزج بها، ولا تنفصل عنها، كإمتزاج الإنسانية بالبشرية فى الذات الآدمية. والدليل على هذا قوله عز وجل ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(٢).

فالرسل والانبياء ـ وعلى قيادتهم رسول الله الخاتم صلى الله عليهم وسلم ـ قد أكدوا ـ كما أمرهم الله تعالى ـ بشريتهم لأقوامهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٣) فالنبى: بشر يوحى إليه إصطفاه الله عز وجل وعصمه وأيده بالمعجزة وهذا

(١) التين / ٤ – ٦.
(٢) ابراهيم / ١٠ – ١١.
(٣) الكهف / ١١٠.

القول من الرسل يفيد المثلية بينهم وبين جميع الناس مؤمنهم وكافرهم فى البشرية فقط، بالمصطلح الذى أثبتناه آنفا، لكنه لا يفيد المثلية المطلقة بينهم وبين سائر الناس، إذ المثلية محصورة فى البشرية، ومن ثم فعدم المثلية أو التفاضل قائم فيما سوى البشرية بالضرورة، وهى خصائص وأحوال وصفات الإنسانية، فالأنبياء ليسوا كسائر الناس فى خصائصهم الإنسانية.

فلا أحد ينكر - حتى من الذين كفُروا برسول الله صلى الله عليه وسلم، قديما وحديثا - أنه عليه الصلاة والسلام أفضل الناس خلقا وحكما وعلما وبيانا وتفكيراً وتدبيرا وعدلا وحلما وأمانة وصدقا، وأعظمهم فعلا للخير وأكبرهم أثرا على الحضارة وسموا بالانسانية وخيرها.

وقد كتب أحد الغربيين المعاصرين كتابا جعل إسمه «الخالدون مائة على رأسهم محمد»[1] ﷺ ؛ بالرغم من أنه ليس مسلما ولم يؤمن برسالته.

فمن ذا الذى يستطيع أن يزعم بعد ذلك أن المثلية قائمة بين رسول الله ﷺ وبين غيره من الناس ؟!، إنها ليست قائمة بينه وبين المؤمنين والمصلحين والأخيار والأبرار، بل إن التفاضل قائم بينه صلى الله عليه وسلم وبين غيره من الأنبياء والرسل عليهم جميعا الصلاة والسلام، فإذا كانوا جميعا متماثلين فى البشرية، ويماثلهم فيها أى فى خصائصها الرئيسية، الأشرار والمتَسفّلون من النَّاس، فإن ثمة خصائص وأحوالا وصفات أخرى ليسوا متماثلين فيها، والتفاضل قائم بينهم فيها بالضرورة، ألا وهى الإنسانية، التى من خلالها يتَلقى النَّبِيُّ الوحى.

فالتفاضل قائم بين المؤمنين فى خصائص الإنسانية، بل وبين الأنبياء والرسل أيضا. قال تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[2] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[الإسراء: ٥٥].

(١) الكتاب من ترجمة الاستاذ أنيس منصور.
(٢) البقرة / ٢٥٣.

خامساً: البشرية ليست مكونا من مكونات النبوة وإنْ كانت شرطا مُصاحِباً لها فى الحياة الدنيا:

لقد شاء الله عز وجل أن يكون الأنبياء والرسل فى هذه الحياة الدنيا من بنى آدم، تحقيقا للحكمة التى من أجلها خلق الحياه الدنيا وخلق الإنسان من ناحية، ألا وهى الابتلاء، وتحقيقا للحكمة من إرسالهم، وللهدف من وجودهم وبعثهم، وللفائدة المرجوة منهم لبنى آدم من ناحية أخرى.

ومعنى كون الأنبياء والرسل من بنى آدم، أى أنَّهم كانوا يعيشون بأحوال وخصائص وصفات الآدميِّن أى الإنسانية والبشرية، فَوُلِدُوا كما يولد كل كائن آدمى، كذلك ماتوا كما يموت كل آدمى(*). قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾(١). وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾(٢). وقال تعالى أيضا حاكيا لنا مقالة خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام التى يذكر فيها فضل الله تعالى ونعمه عليه ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ⑦⑨ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ⑧⓪ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ⑧① وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾(٣). وقال تعالى لعبده ونبيه الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(٤).

وهكذا تثبت هذه الآيات الكريمات آنفة الذكر جميع أحوال وحاجات وضرورات وخصائص البشر للأنبياء والرسل، مثل الطعام والشراب والشهوة والزواج والذرية والمرض والجسد المادى الذى يحتاج إلى هذا كله وتعتريه جميع أحوال الجسد الآدمى المعروفة لنا نحن البشر حتى الموت الذى هو نهاية حتمية لكل

(*) ماعدا المسيح بن مريم عليهما السلام إذ رفعه الله تعالى اليه وسينزل من السماء بعد خروج المسيح الدجال ليقتله ويخلص الناس من شره بأذن الله تعالى ثم يموت ويدفن بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا لاينفى بشريته.

(١) الأنبياء / ٧ - ٨.
(٢) الرعد / ٣٨.
(٣) الشعراء / ٧٩ - ٨٢.
(٤) الزمر/ ٣٠.

حى، ومن ثم كان من الجائز عقلا وقوع القتل عليهم من أعدائهم، وأعداء الله عز وجل. قال تعالى لبنى إسرائيل قتلة الأنبياء ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾(١).

وقال تعالى عن نبيه المصطفى الخاتم صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾(٢).

ومن ثم فمن المؤكد أن النبوة فى هذه الحياه الدنيا لا تكون إلاَّ فى الآدميِّين، ومع هذا فالبشرية ليست مكوِّنا جوهريا فى حقيقة النبوة، وإن لم يُبعث رسول، ولا نبى إلا من البشر، وإن لم يُسمِّ القرآن الكريم الملاك الذى يرسله الله تعالى بالوحى وهو جبريل عليه السلام أو غيره من الملائكة أنبياء، مع أنهم رسل الله تعالى إلى أنبياء ورسل البشر، قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣). وقال تعالى ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(٤).

لكن هؤلاء الملائكة الكرام ليسوا أنبياء، وليسوا رسلا بمفهوم وبحقيقة رسل البشر، لأن رسل البشر أنبياء، قبل أن يكونوا رسلا، إذ كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا، ومن ثم فرسول الملائكة يختلف فى حقيقته ومفهومه ومهمته ووظيفته والحكمة من إرساله عن كل ما يناظر هذا كله عند رسول البشر. ومرجع هذا الاختلاف هو بشرية الرسول الآدمى التى هى، وإن لم تكن عنصرا جوهريا فى حقيقة النبوة، إلا أنها شرط مصاحب للنبوة فى هذه الحياة الدنيا تابع لآدمية النبى.

سادساً: الحكمة من خلق وبعث الأنبياء لا تتحقق إلا إذا كانوا بشراً.

ترتبط بشرية الانبياء بالحكمة من خلقهم وبعثهم، فقد علمنا من باب سابق أن الله تعالى خلق الإنسان بعامة للإبتلاء، و الأنبياء أشد الناس بلاءًا، والله تعالى خلقهم

---

(١) البقرة / ٨٧.
(٢) آل عمران / ١٤٤.
(٣) فاطر / ١.
(٤) الحج / ٧٥.

ليبتليهم ويبتلى بهم أقوامهم، ومن ثم فإن الحكمة التى من أجلها جعل الله تعالى الأنبياء بشرا أى جعل النُّبوة فى البشر وليست فى الملائكة، هى أن الملائكة ليسوا مخلوقين للإبتلاء.

كذلك شاء الله عز وجل بعث الأنبياء وإرسال الرسل، لئلا يكون للناس على الله عزوجل حجة يوم القيامة، فهم حجج الله تعالى على العصاة والكافرين، وهم شهوده تعالى على خلقه يوم الدين. ولا تتحقق هذه الحكمة أيضا إلا إذا كانوا بشرا.

إذ لو كانوا ملائكة، أو أى نوع آخر من الخلق غير البشر، لكان للناس حجة يوم القيامة مضمونها أن ما كلفهم الله تعالى به فوق طاقة البشر، وأن ما إبتلاهم الله تعالى به فى الدنيا خارج عن إستطاعتهم، وأن الانبياء والرسل قاموا به وأطاعوا الله تعالى، لانهم لم يكونوا بشرا مثلهم، ولو كانوا بشرا مثلهم ما إستطاعوا وماأطاعوا. ولما كان الرسل والأنبياء بشرا، فقد بَطُلَتْ حجج الخاسرين فى الدنيا ويوم القيامة. صحيح أن النبوة فى آدمية النبى ليست من خصائص البشرية فيه، وانما هى تنتمى إلى الخصائص الإنسانية العليا فى ذات النبى، إلا أن اعتبار البشرية شرطا للنبوة، لأنه تابع للآدمية وبحيث لا يكون النبى إلاّ من البشر، وهذا أمر هام وضرورى لتحقيق الحكمة الربانية من إرسال الأنبياء والرسل، وهى ان يكونوا شهداء على الناس يوم القيامة وحججا لله تعالى عليهم، لأنهم حملوا فى الدنيا نفس الطبائع وعاشوا نماذج عليا حيّة للكمال الخلقى، والافعال الانسانية الرفيعة اللائقة بالانسان.

ومعنى هذا أن حقيقة النبوة سابقة على الآدمية أى البشرية والإنسانية، وباقية بعدهما، كما سنعلم هذا بعد لهذا لزم القول بان البشرية ليست من النبوة ولا النبوة من البشرية، وان كانت النبوة هى الكمال المقّدر للآدمية أى للإنسانية وللبشرية معا، وبالتالى فإن حقيقة النبوة أقرب وألصق بالإنسانية فى الآدمى من البشرية، وإن إجتمع الجميع فى ذات واحدة ، هى ذات النبى والرسول الآدمى، أما لماذا جمع الله تعالى بين النبوة والبشرية رغم تباينهما؟ فالاجابة : هى لكى تَتَحَقّقْ الحكمة من ارسال الرسل والأنبياء ، ألاَ وهى أنّهم حجج لله عز وجل على الناس، وهذه لا تَتَحَقّق إلاّ اذا كانوا بشرا.

الفهرس

مقدمة ....

الباب الأول: الأصول الاعتقادية لحقيقة النبوة فى القرآن الكريم والسنة ١٧

الفصل الأول: النسق المنطقى لترتيب أركان الإيمان ١٩

الفصل الثانى: أساس الإيمان بالله عز وجل بين الوحى والعقل ٢٥

الفصل الثالث: الفطرة هى الأساس النفسى للإيمان بالله عز وجل واحداً لا شريك له ٣١

الفصل الرابع: الإيمان بالله عز وجل أول الأركان واسبقها وجوديا ومعرفيا ٣٧

الفصل الخامس: إفراد الله تعالى بالخالقية هو الأساس الفكرى للتوحيد الإسلامى ٤٥

الفصل السادس: من جوهر التوحيد الإسلامى إفراد الله عز وجل بالأولية والآخرية ٤٩

الفصل السابع: من جوهر التوحيد الإسلامى وصف الله عز وجل بالكمالات المطلقة وتنزيهه عن النقص ٦١

الفصل الثامن: صفات الله تعالى الذاتية الدالة على خصائص الألوهية، وصفاته سبحانه الفعلية الدالة على خصائص الربوبية ٦٧

الفصل التاسع: صفة الحكمة تنفى عن الله عز وجل الخلق للعبث أو اللهو، كما تثبت له الغنى المطلق وتنفى عنه الفقر والحاجة إلى غيره وطلب الفائدة من الخلق ٧٣

الباب الثانى: الإيمان بالنبوة والرسالة من اللوازم الضرورية للتوحيد الإسلامى الخالص ٧٩

الفصل الأول: الموحد توحيدا صحيحا لابد أن يؤمن بالنبوة ٨١

الفصل الثانى: نفى المثلية عن الله واثبات استوائه على العرش وعلوه على كل الخلق يستلزم نفى تلقى البشر عنه مباشرة ٨٧

الفصل الثالث: لانه سبحانه رحيم ودود رؤوف بالعباد شاء إرسال الرسل ٩٧

الفصل الرابع: إنكار النبوة والرسالة كفر بالله تعالى وشرك به ١٠١

الباب الثالث: الحكمة من إرسال الرسل وبعث الأنبياء ١٠٣

الفصل الأول: ابتلاء الناس بالنبيين وابتلاؤهم بالناس ١٠٥

الفصل الثانى: ليكونوا أسوة للمؤمنين فى جميع الأحوال والابتلاءات فى الحياة الدنيا ١٠٩

الفصل الثالث: لإبطال إحتجاج الكافرين والعصاة وإقامة الحجة البالغة عليهم يوم الدين ١١٣

الباب الرابع: وظيفة الأنبياء والرسل ١١٧

الفصل الأول: البلاغ ١١٩

الفصل الثانى: الإبانة ١٢٥

الفصل الثالث: الامتثال والتطبيق ١٢٩

الفصل الرابع: الجهاد بالكلمة ثم بالسيف لاقامة دين الله عز وجل ١٣٣

الباب الخامس: أحكام الإيمان بالنبوة فى الإسلام ١٣٧

الفصل الأول: وجوب الإيمان بالرسل والنَّبِيِّين جميعا وعدم التفريق بينهم ١٣٩

الفصل الثانى: وجوب الإيمان بالتفاضل بين الأنبياء والرسل ١٤٥

الفصل الثالث: وجوب الإيمان بأن الله تعالى ختم النبوة والرسالة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ١٤٧
الفصل الرابع: وجوب حب الرسل والنَّبِيِّين بعامة وحب رسول الله صلى الله عليه وعليهم جميعا بخاصة ١٥١
الفصل الخامس: وجوب موالاة الرسل والنبيين بعامة وموالاة رسول الله صلى الله عليه وصحابته وأمته بخاصة ١٥٣
الفصل السادس: الاعتقاد بوجوب طاعة الرسل والنَّبِيِّين بعامة وطاعة رسول الله صلى الله عليهم جميعا بخاصة ١٦١
الفصل السابع: وجوب توقير الرسل ونصرتهم بعامة وتوقير ونصرة رسول الله صلى الله عليهم جميعا بخاصة ١٦٧
الباب السادس: النبوة والتفسير الإسلامى للتاريخ ١٧٣
الفصل الأول: تفسير التاريخ بين الإسلام والجاهلية ١٧٥
الفصل الثانى: مجمل تاريخ البشرية فى ست آيات بينات ١٨٣
الفصل الثالث: الخطوط العريضة لتاريخ البشرية من خلال سير الأنبياء والمرسلين ١٨٩
الفصل الرابع: النبوة فى القرآن الكريم وتقدير عمر البشرية ١٩٥
الباب السابع: عناصر النبوة ٢٠٥
فصل تمهيدى: ماهى عناصر النبوة؟ ٢٠٧
الفصل الأول: العنصر الأول هو الاصطفاء ٢٠٩
الفصل الثانى: الذكورة شرط فى النبوة تابع للاصطفاء ٢١٥
الفصل الثالث: العنصر الثانى هو العصمة ٢٢٣
الفصل الرابع: شبهات حول عصمة الأنبياء ٢٣١

الفصل الخامس: درء الشبهات عن عصمة الأنبياء ٢٣٧
الفصل السادس: العنصر الثالث للنبوة هو الوحى ٢٩٩
الفصل السابع: المعجزة هى العنصر الرابع للنبوة ٣١١
الفصل الثامن: الآدمية هى العنصر الخامس للنبوة فى الحياة الدنيا ٣٢١

كتب للمؤلف

١- **القضاء والقدر فى الإسلام** الجزء الأول: فى الكتاب والسنة	ثلاث طبعات
٢- **القضاء والقدر فى الإسلام** الجزء الثانى: عند السلف والمتكلمين	ثلاث طبعات
٣- **القضاء والقدر فى الإسلام** الجزء الثالث: عند الفلاسفة	ثلاث طبعات
٤- **القضاء والقدر فى الإسلام** الجزء الرابع: عند الصوفية	تحت الطبع
٥- **الأصول الاعتقادية للمعرفة**	طبعة واحدة
٦- **الإسلام والعلم التجريبى**	طبعتان
٧- **استخلاف الإنسان فى الأرض**	ثلاث طبعات
٨- **قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة فى القرآن والسنة**	طبعتان
٩- **الإنسان والشيطان**	ثلاث طبعات
١٠- **مفاهيم قرآنية حول حقيقة الإنسان**	ثلاث طبعات
١١- **محاضرات فى العقيدة الإسلامية**	طبعة واحدة
١٢- **توفيق الحكيم لمن استمع وإلى من تحدث؟**	طبعة واحدة
١٣- **مقومات المجتمع المسلم**	ثلاث طبعات
١٤- **الخلافة الإسلامية** (أصولها الاعتقادية وحتمية عودتها)	طبعة واحدة
١٥- **علم التوحيد** (جـ١ المعرفة بالله عز وجل)	طبعة واحدة
١٦- **التوحيد الجزء الثانى**	
١٧- **المدخل إلى العقيدة الإسلامية**	تحت الطبع
١٨- **القيامة الصغرى على الأبواب** (جـ١ الإصدار الثانى لزلزال الأرض العظيم)	طبعتان
١٩- **القيامة الصغرى على الأبواب** (جـ٢ المدخل إلى علم أشراط الساعة بمنهج المطابقة)	طبعة واحدة
٢٠- **القيامة الصغرى على الأبواب** (جـ٣ الإمارات العلمية والتكنولوجية للساعة فى القرآن والسنة)	طبعة واحدة

٢١- **القيامة الصغرى على الأبواب** (جـ٤ الإمارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للساعة فى القرآن والسنة) طبعة واحدة

٢٢- **القيامة الصغرى على الأبواب** (جـ٥ المسيح الدجال بين الجبت والطاغوت) طبعة واحدة

٢٣- **القيامة الصغرى على الأبواب** (جـ٦ المسيح الدجال ـ طلاسم وألغاز ـ كشف أسرار النصوص)

٢٤- **البيان النبوى لدمار إسرائيل الوشيك** طبعتان

٢٥- **الإسلام والإرهاب** (جـ١ نقض الجذور الفكرية لاستخدام العنف فى الدعوة والإصلاح) طبعة واحدة

٢٦- **الإسلام والإرهاب** (جـ٢ نقض الجذور الفكرية لاستخدام العنف فى الدعوة والإصلاح) طبعة واحدة